المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا

الشعر وحروب الخلافة العثمانية

.... هـ .... م / ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م

رسالة لنيل درجة الدكتوراة
في الأدب

إعداد
عبد الله بن ابراهيم بن يوسف الزهراني

إشراف الأستاذ الدكتور
محمود عبد ربه فياض



الجزء الثاني

١٤١٢ هـ

الباب الثانى

الشعر وحروبها داخل الوطن العربى

الفصل الأول : حروبها في المغرب العربى .

الفصل الثانى : حرب طرابلس .

الفصل الثالث : الحرب العالمية الأولى

داخل الوطن العربى .

الفصل الأول

حروبها فى المغرب العربى

* المرحلة الأولى .
* المرحلة الثانية .
* المرحلة الثالثة .

تمهيـــد :

إن مجـيء العثمانيين إلى بلاد المغرب العربى مما يحمد لهـم فى تلك الحقبة التاريخية الحرجة ، إذ كانت تعانى تلك البلاد من النفوذ المتزايد للاسبانيين والبرتغاليين ، بل تم استيلاؤهم عـلى أجـزاء كثيرة منهـا ، فقـام العثمـانيون بـإخراجهم بمساعدة أهل البلاد الأصليين ، وكذا مسلمى الأندلس الفـارين مـن بطش النصـارى ، الذين كثيرا ماشكوا حالهم من شدة وطأة النصارى عليهم (١) .

فقـد خـاضت الدولـة العثمانية وولاتها ، ومن والاها من أهـل تلـك الأصقاع حروبا ضارية كان لها صدى واضح فى الشعر العـربى ، ونظرا لطول تلك الفترة التاريخية وكثرة المعارك قمت بتصنيفها إلى ثلاث مراحل .

المرحلة الأولى :

* استغاثة الأندلسى المجهول ، واستغاثة على بن هارون
* معركة وادى المخازن .
  - المعركة وقيمتها التاريخية .
  - صداها فى الشعر .
* تمجيد القوة .
* صورة الجيش البرتغالى .
* صورة الجيش الإسلامى والثناء عليه .
* ذكرى الوقعة عند "محمد بن ماء العينين" .

---

(١) كمـا نلحـظ ذلك فى قصيدة الأندلسى المجهول وقصيدة على ابن هارون .

* إثارة الحمية والحماس عنده .
* سقوط أصيلا ودعوة علمائها للجهاد .

المرحلة الثانية :

* استقرار العثمانيين بالجزائر .
* استغاثات الشعراء لنجدة «وهران» واستجابة العثمانيين لذلك .
* المدح .
* جور الاستعمار وتنكيله بالمسلمين .
* الدعوة لإنقاذ وهران مع وصف الجيش المنقذ .
* الفأل بالنصر .
* وصف المعركة والهزيمة .
* الحث على الجهاد ، واستعادة بعض المدن والشوق لاستعادة الأندلس .
* الحث على الجهاد .
* استرداد العرائش وطنجة .
* الشوق لفتح سبتة والأندلس .
* ملاقاة فرنسا «لعلى باشا» ودحرهم فى حلق الوادى .
- ابراهيم الخراط ، وخليفة بن قايد -

المرحلة الثالثة :

* احتلال الجزائر فى نظر شاعرين من تونس .

على أن العلاقات بين المغرب العربى والدولة العثمانية كانت تمر بقوة وضعف نظرا لمحاولة بعض الولاة الانفصال عن الدولة الأم ، ولكن الدولة كانت متشبثة بالتمسك بهم ومحاولة ربطهم بها حتى فى أشد الظروف سوءا .

استغاثة الأندلسي المجهول :

في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية في بداية ظهورها كقوة فعلية على الساحة العالمية ، كان المسلمون في الأندلس يعانون الأمرين من تساقط دولهم بأيدي الأسبان والبرتغاليين ، ومع منتصف القرن التاسع الهجري (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) فتحت "القسطنطينية " فلاحت لمسلمي الأندلس بارقة أمل فأرسلوا سنة ١٤٧٧م «سفارة إلى استانبول وجهوا فيها نظر السلطان محمد أبي الفتوح إلى تدهور أحوال المسلمين في الأندلس وناشدوه التدخل لإنقاذهم ... ولكنه كان منصرفا إلى مواجهة تحالف صليبي يهدد دولته بأفدح الأخطار». (١)

وبعد وفاة السلطان "محمد أبي الفتوح" ، استنجد مسلمو "الأندلس" بابنه السلطان "أبي يزيد الثاني" ، ولكن تزاحمت على السلطان الجديد الأزمات الداخلية والخارجية، مما استحال إجابة تلك الاستغاثة . (٢)

وقد تضمنت استغاثة أهل الأندلس للسلطان "أبي يزيد الثاني" قصيدة لأحد أهل الأندلس المضطهدين عرض فيها للأفكار التالية :

أول مابدأ به في هذه القصيدة ، أن أزجى عبارات التحية والسلام إلى السلطان ومعاونيه من القضاة وأهل الديانة ، تخللها عبارات الإكبار والإجلال لهم .

سلامٌ كريمٌ دائمٌ متجددٌ　　　أخصُّ به مولاي خيرَ خليفةٍ

---

(١) الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ٦٦٦/٢ .
(٢) نفسه ٦٦٧/٢ .

سلامٌ على مولاى ذى المجدِ والعُلا
ومنْ ألبسَ الكفّارَ ثوبَ المذلّةِ
سلامٌ على منْ وسّعَ اللّهُ ملكَهُ
وأيّدهُ بالنّصرِ فى كلِّ وجْهةِ
سلامٌ على مولاى منْ دارُ ملكِه
قسنطينةٌ أكرِمْ بها من مدينةِ
سلامٌ على منْ زيّن اللّهُ ملكَه
بجُند وأتراكٍ من أهلِ الرِّعاية
سلام عليكم شرّفَ اللّهُ قدرَكم
وزادكمُ ملكا على كلِّ ملّة
سلام على القاضى ومن كان مثله
من العلماءِ الأكرمين الأجلّة
سلام على أهل الدّيانة والتُقى
ومن كان ذا رأى من أهل المشورة

ثم يوضح ممن كان ذلك السلام .

من عبيد تخلفوا بأرض الأندلس ، وأحاط بهم الروم ، وحلت بهم المصيبة ، وينوع فى تلك الشخصيات التى تهدى السلام مع بيان ما أصابهم من عنت ومشقة ، من شيوخ ونساء ، وبنات وعجائز لاحول لهم ولاطول ، ويختم هذا المقطع بالدعاء للخليفة أن يديم الله ملكه وينصره ويسكنه دار الرضا والكرامة .

سلام عليكم من عبيدٍ تخلّفوا	بأندلسٍ بالغربِ فى أرضِ غُربة
أحاطَ بهم بحرٌ من الرّوم زاخرٌ	وبحرٌ عميقٌ ذو ظلام ولُجّة
سلام عليكم من عبيد أصابَهم	مصابٌ عظيمٌ يالها من مُصيبة
سلام عليكم من شيوخٍ تمزّقت	شيوبُهم بالنّتف من بعد عِزّةِ
سلام عليكم من وجوه تكشّفت	على جملةِ الأعلاج من بعد سترة

سلام عليكم من بنات عواتق ‌ ‌ ‌ يسوقهم اللبّاط قهراً لخلوة
سلام عليكم من عجائز أكرهت ‌ ‌ ‌ على أكل خنزير ولحم لجيفة
نقبّل نحن الكل أرض بساطكم ‌ ‌ ‌ وندعولكم بالخيرفى كلّ ساعة
أدامَ الإله ملككم وحياتكم ‌ ‌ ‌ وعافاكم من كلّ سوءٍ ومحنة
وأيّدكم بالنّصر والظّفربالعدى ‌ ‌ ‌ وأسكنكم دارَ الرّضاوالكرامة

ثم يبدأ فى بث الشكوى للسلطان ، وكيف كانوا على دين النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم غدر بهم عدوهم ونصّرهم ويؤكد أنهم لم يستسلموا لهم بل قاوموهم على كثرة عتادهم وعددهم ، ففنى بتلك المقاومة الرجال ، ومع ماحل بهم من بلاء فإنهم لم يتلقوا أى دعم من إخوانهم المسلمين وآثروا بعد ذلك الاستسلام لعدم جدوى المقاومة خوفا على الأهل والأبناء .

شكوْنا لكم مولاى ماقدْ أصابَنَا
من الضرّ والبَلْوى وعُظم الرّزيةِ
غُدِرْنا ونصّرنا وبدّل ديننُا
ظُلِمْنا وعوملْنا بكلّ قبيحة
وكنّا على دينِ النّبى محمدٍ
نقاتلُ عبّادَ الصّليب بنيّةِ
ونلقى أموراً فى الجهاد عظيمةً
بقتلٍ وأسرٍ ثم جوعٍ وقلّةٍ
فجاءت علينا الرّومُ من كلّ جانبٍ
بسيلٍ عظيمٍ حملةً بعد حملة
ومالوا علينا كالجَرَاد بجمعِهم
بجدٍّ وعزمٍ من خيولٍ وعُدّةٍ
فكنّا بطولِ الدّهر نلقى جموعَهم
فنُقتلُ فيها فرْقةً بعد فِرْقةٍ

وفرسانُهم تزدادُ فى كلِّ ساعةٍ

وفرسانُنا فى حال نقصٍ وقلّة

فلمّا ضعفْنا خيّموا فى بلادِنا

ومالوا علينا بلدةً بعد بلدة

وجاءوا بأنفاطٍ عظامٍ كثيرةٍ

تَهدّم إسوارَ البلاد المنيعة

وشدّوا عليها فى الحصار بقوةٍ

شهورا وأياماً بجدٍّ وعَزْمة

فلمّا تفانت خيلُنا ورجالُنا

ولم نرَ من إخواننا من إغاثة

وقلّت لنا الاقواتُ واشتدَّ حالُنا

أطعناهمُ بالكُرهِ خوفَ الفضيحة

وخوفا على أبنائنا وبناتنا

من أن يُؤْسَروا او يُقتلُوا شرَّ قِتْلة

ثم يبين شروط الاستسلام ، وعددها خمسة وخمسون شرطا ، ولكن العدو غدر بهم ونصّرهم بالقوة ، وحرق المصاحف وخلطها بالمزابل والنجاسات وكذا جميع الكتب الإسلامية .

ويعطينا صورة عن محاكم التفتيش العنيفة التى أجريت للمسلمين هنالك إبانئذ ، ويطلق أنّات الأسى والحسرة على ما آلوا إليه ، وكيف أضحت بلاد الأندلس معاقل للصليب ، بعد أن أمنوا ردة فعل بقية المسلمين .

على أن نكونَ مثلَ من كان قبلنا

من الدَّجن من أهلِ البلاد القديمة

ونُبقى على آذانِنا وصلاتِنا

ولانتركنَّ شيئاً من أمرِ الشّريعة

ومن شاءَ منّا البحرَ جازَ مُؤَمّنا
بما شاء من مالٍ إلى أرض عُدْوة
إلى غير ذاك من شروطٍ كثيرةٍ
تزيدُ على الخمسين شرطاً بخمسة
فقالَ لنا سلطانُهم وكبيرُهم
لكم ماشرطْتُم كاملاً بالزّيادة
وأبدى لنا كُتُباً بعهدٍ وموثق
وقال لنا هذا أمانى وذِمّتى
فكونوا على أموالكم وديارِكم
كما كنتمُ من قبلُ دونَ أذيّة
وخانَ عهوداً كان قد غرّنا بها
ونصّرنا كَرْهاً بعنفٍ وسطْوةٍ
وأحرقَ ماكانت لنا من مصاحفٍ
وخلّطها بالزِّبلِ أو بالنّجاسة
وكلّ كتابٍ كان فى أمرِ دينِنا
ففى النّارِ ألْقَوْهُ بهُزءٍ وحَقْرة
ولم يتركوا فيها كتاباً لمُسلمٍ
ولامصحفاً يُخْلى به للقراءة
ومن صامَ أو صلّى ويعلمُ حالُه
ففى النّار يلقوه على كلِّ حالة
ومن لمْ يجئْ منّا لموضعِ كُفْرِهم
يعاقبُه اللّبّاطُ شرَّ العقوبة
ويلطِمُ خدّيه ويأخذُ مالَه
ويجعلُه فى السّجن فى سوءِ حالة
وفى رمضانٍ يُفْسِدون صيامَنا
بأكلٍ وشربٍ مرّةً بعد مرة

وقد أمرونا أن نسب نبينا
ولانذكرنه في رخاء وشدة
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه
فأدركهم منهم أليمُ المضرّة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم
بضربٍ وتغريمٍ وسجنٍ وذلةٍ
ومن جاءه الموتُ ولم يحضر الذى
يذكّرهم لم يدفنوه بحيلة
ويترك في زبل طريحاً مجندلاً
كمثل حمارٍ ميّتٍ أو بهيمة
إلى غير هذا من أمورٍ كثيرةٍ
قباحٍ وأفعالٍ غزارٍ رديّة
وقد بُدّلت أسماؤنا وتحوّلت
بغيرِ رضاً منّا وغيرِ إرادة
فآها على تبديل دينِ محمدٍ
بدين كلابِ الرّوم شرِّ البرية
وآها على أسمائنا حين بُدّلت
بأسماءِ أعلاجٍ من أهل الغباوة
وآها على أبنائنا وبناتنا
يروحون للبّاط في كل غدوة
يعلّمهم كفراً وزوراً وفرية
ولايقدروا أن يصنعوه بحيلة
وآها على تلك المساجد سوّرت
مزابل للكفارِ بعد الطهّارة
وآهاً على تلك الصوامع علّقت
نواقيسهم فيها نظيرُ الشهادة

وآها على تلك البلادِ وحسنِهــا
فقد أظلمَتْ بالكفرِ أعظمَ ظُلمـة
وصارتْ لعبّادِ الصّليبِ معاقــلاً
وقد أمنوا فيها وقوعَ الإغـارة
وصرْنا عبيداً لاأُسارى فنفْتَــدى
ولامسلمين نطقُهــم بالشهــادة
فلو أبصَرتْ عيناك ماصارَ حالُنا
إليه لجادَتْ بالدّموع الغزيـرة
فياويلَنا يابؤسَ ماقدْ أصابَنـا
من الضُرّ والبلوى وثوبِ المذلّة

ثم يحدد مطالبه من السلطان "بايزيد" لينظر فيما أصابهم من عنت ومشقة ، وأن يسأل "البابا" المقيم في "روما" ، لماذا تلك المجازر والأفعال الشنيعة بالمسلمين ؟

ويقارن بين حالهم وماهم فيه من قهر ، وحال النصارى الذين استظلوا إبان حكم المسلمين بالأمن في دينهم ومعَاشهم.

ويذكر السلطان بكتابه السابق إلى النصارى وأنه لم يجد شيئا ، بل زاد العدو عنفا وشراسة في معاملتهم .

وكذا يذكره برد النصارى على المماليك عندما هددوا بالانتقام من النصارى الموجودين تحت رعايتهم ، وزعموا في ردهم أن مسلمي الأندلس اعتنقوا النصرانية من تلقاء أنفسهم ويفند تلك المزاعم ، ويؤكد أساليب التعذيب والاضطهاد ، ثم يرجو السلطان أن يتوسط لهم إما بالبقاء بديارهم مع الحفاظ على معتقدهم ، أو بالاذن لهم بالخروج إلى بلاد "العدوة" .

ثم يختم القصيدة بالدعاء والسلام على الخليفة .

سألناك يامـولاىَ باللّه ربِّنـا
وبالمصطفى المختار خيرِ البرية

عسى تنظروا فينا وفيما أصابَنا
لعلّ إلهَ العرشِ يأتى برحمة

فقولُك مسموعٌ وأمرُك نافذٌ
وماقلتَ من شيءٍ يكونُ بسرعة

ودينُ النّصارى أصلُه تحت حكمِكم
ومن ثمَّ يأتيهم إلى كلِّ كُوْرة

فبالله يامولاى مُنّوا بفضلكم
علينا برأيٍ أو كلامٍ بحجة

فأنتم أولو الإفضالِ والمجدِ والعلا
وغوثُ عباد الله فى كلِّ آفة

فسل "بابَهم "أعنى المقيمَ بروميةٍ
بماذا أجازوا الغدرَ بعد الأمانة

ومالهم مالُوا علينا بغدْرهم
بغير أذىً منّا وغيرِ جريمة

وجنسهُم المغلوبُ فى حفظ ديننا
وأمْنٍ ملوك ذى وفاء أجلّة

ولم يخرجوا من دينهم وديارهم
ولانالَهم غدرٌ ولاهتكُ حرمة

ومن يُعطِ عهداً ثم يَغْدُر بعهده
قبيحٌ شنيع لايجوز بوجهة

وقد بَلَغَ المكتوبُ منكمْ إليهم
فلم يعملوا منه جميعا بكلمة

ومازادهم إلا اعتداءً وجُرأةً
علينا وإقداما بكلّ مَساءة

وقد بلغت أرسالُ "مصر" إليهم
ومانالهم غدرٌ ولاهتكُ حرمة

وقالوا لتلك الرّسل عنّا بأنّنا
رضِيْنا بدين الكفر من غيرِ قَهْرة
وساقوا عقودَ الزّور ممن أطاعهم
ووالله مانرضى بتلك الشهادة
لقد كذبوا في قولهم وكلامِهِمْ
علينا بهذا القول أكبر فِرْية
ولكنّ خوفَ القتل والحرْقِ ردّنا
نقول كما قالوه من غير نيّة
ودين رسول الله مازالَ دينُنا
ولابالذى قالوا من أمر الثلاثة
وإنّ زعموا أنّا رُضينا بدينهم
بغير أذىً منهم لنا ومساءة
فسل وقرا رمن أهلها كيف أصبحوا
أُسارى وقتلى تحتَ ذُلٍ ومَهْنَة
وسل "بِلّفيقا" عن قضية أمْرها
لقد مُزّقوا بالسيف من بعد حَسْرة
و"منيافة" بالسيف مُزِّق أهلُها
بجامعهم صاروا جميعا كفحْمة
و"اندَرَش" بالنار أُحرق أهلُها
كذا فعلوا أيضا بأهل البُشَرَّة
فهانحن يامولاى نشكو إليكم
فهذا الذى نلْناه من شرّ فُرقة
عسى دينُنا يبقى لنا وصلاتُنا
كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلا فيجلونا جميعاً من أرضهم
بأموالنا للغرب دار الأحبة

فإجلاؤنا خيرٌ لنا من مقامنا
على الكفر في عزٍّ على غيرِ مِلّة

فهذا الذي نرجوه من عزِّ جاهكم
ومن عندكم تُقضى لنا كلُّ حاجة

ومن عندكم نرجو زوالَ كروبنا
ومانالَنا من سوءِ حالٍ وذلّة

فأنتم بحمد اللّه خيرُ ملوكِنا
وعزّتُكم تعلو على كلِّ عِزّة

فنسألُ مولانا دوامَ حياتكم
بمُلكٍ وعزٍّ في سرورٍ ونعمة

وتهدين أوطان ونصرٍ على العدى
وكثرة أجنادٍ ومالٍ وثروة

وثم سلامُ الله تتلوه رحمةٌ
عليكم مدى الأيام في كل ساعة (١)

ويلحظ الدارس على هذه الوثيقة التاريخية الدامغة مايلي :

تنحصر قيمة هذا النص في الإطار التاريخي ، أما القيمة الفنية فمحدودة أو عديمة ، ولعلها لأحد فقهاء المسلمين الذين عاينوا الأحداث ، ولمسوا محنة المسلمين في الأندلس ، وعرفوا تفاصيلها ، وهي إنْ لم تكن أدبا بالمعنى الصحيح ، فهي مادة لملحمة خالدة لو صادفت أديبا موهوبا .

لم يتعرض لأسباب الهزيمة وعلاجها بعد أن وصل بهم الحال إلى ذلك المصير المحزن .

---

(١) ازهار الرياض في أخبار القاضي عياض ١٠٩/١ ومابعدها ، ط/صندوق احياء التراث الاسلامي ، أحمد بن محمد المقري.

وهذه القصيدة تعكس الحال التي وصلت إليها اللغة العربية على يد "الموريسكيين" ، فالشاعر ضعيف اللغة والتراكيب ، نحو "بجند وأتراك" ، وكذا تكراره للفظة ومشتقاتها في البيت الواحد دونما مبرر مما يدل على ضحالة مخزونه اللغوي .

سلام عليكم من عبيد أصابهم مصاب عظيم يالها من مصيبة

أما صوره فضحلة ساذجة ، إذ أن تشبيهاته سطحية مألوفة ويكتفي بالسرد والتسجيل دون أن نلمس خيال الشاعر .

تكاد القصيدة تخلو من المحسنات البديعية التي أرهقت شعراء المشرق في تلك الحقبة التاريخية .

لايجد القارىء فيها صدى يذكر لقصائد الرثاء السابقة التي قيلت في الأندلس .

وأما "علي بن هارون"(١) قاضي الجماعة بفاس فيستحث العثمانيين لاستعادة "تونس" إلى حوزة المسلمين بعدما طغى الأسبان على البلاد بقيادة "شارلكان" وذلك في آخر عهد الحفصيين ، إذ سمح لجنده بارتكاب أبشع أنواع الوحشية والنهب والفتك بأهل البلاد(٢) .

فقد ساء هذا القاضي شكوى أهل البلاد مما حل بهم ، وكان الخبر بمثابة الفاجعة له ، لخوفه أن تقع تونس تحت قبضة الأسبان من غير رجعة مثلما حدث للأندلس .

ويذكر بعض أعمال الأسبان بأهل البلاد ، حتى تغيرت وجوه الغيد ، وتشوهت بعد ماكانت تعلوها النضارة .

ويرسل صيحته للعثمانيين أن يسرعوا الخطى بقسيهم وسيوفهم لانقاذها .

---

(١) لم أعثر على ترجمته .

(٢) التاريخ الإسلامي - العهد العثماني ٨/ ٥٢

جادكِ الغيثُ اذا الغيثُ انهمرْ
حضـرةَ الانسِ البديعِ المؤنس
لم يكـنْ إلا كلمـحٍ بالبصـر
أو بريقٍ – لاح لى – من تونس
ياـلَها من فجْعة زيـدَ الخبـر
إنّهـا شقيقـةُ الأنـدلس
كـمْ خدودٍ فى وجوهٍ كالقمـر
خدّها دمعٌ جرى مـن نَرْجس
حالكاتٍ غُيّرت منهـا الصّور
ذلّ أُسْد بعـد عـزّ الأنفـس
أصبحوا أسْرى بأيدي من كَفَـر
مُلِكَـت ارقابُهـم بالافلـس
يـالتـركٍ بقِسـيٍّ ووتـر
أخرجوهـم من ظـلامٍ حِنْـدِس (1)

والقصيدة تتضمن بعض ألفاظ موشحة "لسان الدين بن الخطيب" المشهورة وقافيتها على قفل تلك الموشحة .

وقيمة هذه القصيدة تأتى من قائلها لكونه مفتى مدينة فاس وعالمها مما يعكس الإحساس العام عند أهل المغرب ممثلين فى أمثال هذا القاضي بوجوب مجيء العثمانيين ، مما يدل دلالة واضحة على أن العثمانيين لم يأتوا غزاة او مستعمرين كما يحلو للبعض وصفهم بذلك ، بل أتوا استجابة لصيحات أولى النهى والغيرة من الطبقة المثقفة من أهل البلاد .

---

(1) الأدب المغربي ص٥٦ ط٢ مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ، محمد بن تاويت

معركة وادى المخازن :

سيطر العثمانيون على بلاد «الجزائر وتونس»، وبقيت "المغرب" خارج نطاق الولايات العثمانية ، ونظرا لما واجهه ملوك "السعديين" من ازدياد النفوذ البرتغالى والإسبانى الذى يريد القضاء على المسلمين هناك . فمن الطبيعى أن يكون هنالك تعاون بين المسلمين لدرء ذلك الخطر وكان فاتحة الأمر معركة "وادى المخازن" ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

إذ لجأ الأميران السعديان "عبد الملك" الملقب "بالمعتصم" و"أحمد" الملقب "بالمنصور" إلى الخليفة العثمانى السلطان "مراد الثالث" يطلبان مساعدتهما ، لاستعادة الإمارة من عمهما "محمد" الملقب "بالمتوكل" ، فأمدهما بجيش استطاعا به طرد عمهما فلجأ إلى "البرتغال" مستعينا بهم لحرب ابنى اخيه ، فقاد ملك «البرتغال» "سبستيان" جيشا «برتغاليا» يدعمه بعض «الاسبان والالمان والطليان»، وبالمقابل أمد العثمانيون "عبد الملك" وأخاه "أحمد" والتقى الجيشان على ثرى "وادى المخازن" فى معركة عنيفة أسفرت عن هزيمة الصليبيين وموت "سبستيان" ، أما "محمد المتوكل" فقد ولى هاربا فى البحر فمات غرقا ، فأخذ بدنه وسلخ فسمى الملك "المسلوخ" ، أما "عبد الملك" فمات لمرض أصابه فتولى "أحمد المنصور" الملك من بعده وأضحت العلاقة بينه وبين العثمانيين على أحسن مايرام .(١)

---

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٣٢/٣ ، ط/المطبعة المصرية ، أحمد الناصرى السلاوى ، التاريخ الاسلامى ـ العهد العثمانى ٥٣٤/٨ .

أثرها في الشعر :

ولاشك أن نتيجة هذه المعركة من الوجهة السياسية والحضارية كانت ضخمة ، إذ أخرت الزحف الأوربى ردحا من الزمن .

وكان من المتوقع أن أجد كما شعريا يوازى فخامة تلك المعركة ولكننى لم أعثر إلا على ثلاث قصائد قيلت فى فترات مختلفة :

(أ) قصيدة "داود بن عبد المنعم الدغوغي"[١] وهو ممن عاصر المعركة .

(ب) قصيدة للوزير عبد العزيز الفشتالى[٢] .

(ج) قصيدة ل "محمد الامام بن ماء العينين"[٣] فى فترة جيشان الاستعمار مرة أخرى .

وتدور القصائد الثلاث حول الأمور التالية :

تمجيد القوة عند "الدغوغي" وأنها سبب النصر ، وامتلاك معالى الأمور ، فمن ملكها استطاع الظفر ومن لم يكن كذلك ولم يخض الحروب دفاعا واستبسالا كان مطمع العدو .

---

(١) داود بن عبد المنعم الدغوغى من أسرة عريقة بالمغرب ، من أدباء عصره المرموقين ، له بعض قصائد متناثرة فى كتب التاريخ والأدب .
انظر : الأدب المغربى ص ٣٠٤ .

(٢) عبد العزيز بن محمد الفشتالى "أبو فارس" وزير الملك أحمد المنصور وكاتبه وشاعره الذى قال فيه : "إن الفشتالى نفتخر به على الملوك ، ونبارى به لسان الدين ابن الخطيب" ، توفى سنة ثلاثين ، أو احدى وثلاثين وألف .
انظر : خلاصة الأثر ٢/ ، ريحانة الألبا ١/ ، روضة الآس العاطرة الأنفاس .

(٣) لم أعثر على ترجمته .

جنى النَّصرِ مابينَ الظُّبا والكَنَائن
على سابقاتِ المُذكياتِ الصَّوافنِ
فبين المعالى والمآثير فى الوغى
يجولُ الذى يَبْغى اقتحامَ المدائن
هى السُّورُ من يجتزْه حلَّ بساحِها
فحلَّ له منها امتلاكُ الخزائن
ومن لم يخض بحرَ الحروبِ فلايُرى
لحَوزتِهِ دون العدل خيرُ مائن
ومن لم يخضها بالثَّبات فرأيُه
يقيلُ ويَمْسي حظُّه جدَّ خائبْ (١)

صورة الجيش البرتغالى بقيادة "سبستيان" :

كان جيشا يملأ أطباق الأرض ، يثير الغبار الكثيف لدرجة حجبه ضوء الشمس من كثرته ، يقوده "سبستيان" المغرور الذى غره عدد جيشه ، نفسه تغلى حقدا على الإسلام والمسلمين ، يتوق لقتلهم ، وانتهاك حرماتهم ، وامتلاك بلادهم .

ولكن أنى له ذلك {ويمكرونَ ويمّكرُ اللّهُ واللهُ خيرُ الماكرين} (٢) ، فلم تخفهم مدافعه ولم تفت فى عضد المسلمين بل قاوموه فرد مخزيا صاغرا .

وماذا يُفيد الجيشُ إنْ كان ربُّه
"كسبستيان" عند "وادى المخازن"
اتى سادراً يختالُ فى غُلَوائِه
وفى صدرِه للدِّين غَلْيُ الضَّغائن

(١) خل وبقل ص ١٠٦-١٠٨ ، ط/المكتبة المهدية عبد الله كنون ، وانظر : الادب المغربى ص ٣٠٥ ، محمد بن تاوت ، ط/مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى .
(٢) سورة الأنفال : ٣٠

يُسَرِّبُ نحوَ المَغْرِبين جنـودَهُ

كمثلِ الدَّبَى عن ماخراتِ السَّفائن

وماقصدُه إلا انتهاكُ حريمـهِ

ودكُّ صَياصِيهِ وبعثُ الدَّفائن

وقودُ أُسارى المسلمين لأرضِه

يُقدِّمهم للصَّلْب مثلَ القرائن

ولهوٌ بأبكارِ الخُدور بناتِنا

فيُصْبِحْنَ من خُدّامه والسَّوادن

فذا مكرُه واللهُ يمكرُ مكرَه

به إذ حداهُ نحو تلك الأماكن

فخيَّمَ في تلك الجهات وعينُه

لمرّاكشَ الحمراءِ لا لِتطَاون

ولكنّه مع حَفْلِه بمدافعٍ

وبيضٍ وسُمرٍ وامتلاءِ الكنائن

تخلَّف ربطُ الجأشِ عنه فردَّه

على خِزْيه صفراً ولو من فراسن (١)

والنص خلو من روح الفن ، ولايزيد عن نظم للواقع الذى اشترك فى تصوره عامة المسلمين آنذاك ، لكن دلالته التى تعنينا هى خمود القرائح ، وغياب المواهب الفنية التى كانت قمينة أن تشعل الصدور غيرة ، وحفيظة على من أرادوا أعراضهم وديارهم ودينهم بسوء .

وفى ظنى أن هذه الهجمة الضارية على الإسلام والمسلمين هى من جانب آخر إعلان عن الضعف والتفكك الذى حاق بالمسلمين آنئذ لأسباب عنى المؤرخون بتفصيلها .

(١) السابق ص ١٠٦-١٠٧ .

صورة الجيش الاسلامي والثناء عليه :

وصف "الدغوغي" الجيش العثماني والمغربي بأنه "جند الله" ، وقد بدا في ترتيب بديع ، فكان الملك والعلماء والشيوخ أهل التقوى ، ثم الجنود المتطوعون ، وبقية أفراد الشعب .

تجمَّع جندُ اللّه من كلِّ وجْهةٍ
وقد غَصّ من مدينه كلُّ دائن

من المَلِكِ المِقْدام فالعُلماءِ فال
شّيوخِ أُولى التّقوى وأهلِ البواطن

وتِلْوُهم الأجنادُ والناسُ كلُّهم
تضلُّ بهم أبصارُ كلِّ مُعاين (١)

ولا أدري ما أهل البواطن الذين هم من جنود المقاومة !!

بينما يصفه "عبد العزيز الفشتالي" في إحدى قصائده ، بالكثرة ، والشجاعة فهم يصبون على العدو صواعق تخسف به ، ولو علت كتائبه رضوى لاندك ، وهم كالحصى عددا ، وإذا ماجن الليل هدتهم الخرصان إلى مقاتل العدو .

صببْنَ على أرضِ العداةِ صواعقاً
أسلْن عليهم بحرَ خسفٍ ورجفان

كتائبُ لو يعلوْن "رَضْوى" لصدّعت
صفاه الجيادُ الجردُ تعدو بعُقْبان

عِدادُ الحصى من كلِّ أروعَ معْلم
وكلِّ كميٍّ بالرُّدَيْنيّ طعّان

إذا جَنّ ليلُ الحَربِ عنهم طُلى العدا
هدتّهم إلى أوداجها شهبُ خرصان

(١) السابق ص ١٠٦ .

من اللاءِ جرّعن العداكأ غُصصَ الـرَّدى
وعفّرن فى وجهِ الثَّرى وجه بستان (١) (٢)

ولايخفى أن قصيدة "الفشتالى" اقوى سبكا وأجود معنى من قصيدة "ابن داود" ، مع ملاحظة أن "ابن داود" كان مسجلا فقط وصورة نثرية ، بينما "الفشتالى" جنح إلى المبالغة فى قوله "كتائب لو يعلون رضوى لصدعت ... الخ" ، وقوله "هدتهم إلى أوداجها شهب خرصان" فيه لفتة فنية جيدة .

صورة المعركة :

وصف "الدغوغى" اشتباك الجيشين ، ورسم صورة للمعركة وقد حمى وطيسها ، فالمدافع أرعدت ، والصياقل أبرقت فى الميدان ، وانقضت فرسان المسلمين انقضاض صقور الجو على الحمام .

وكانت النتيجة أنك لاترى إلا مجندلا فى الثرى ، مبقور البطن قد اندلعت أمعاؤه ، ولاتبصر إلا رؤوسا تتطاير بين سنابك الخيل كأنها الكرات بينما ولى قائدهم صوب البحر هاربا ، فكان البحر كفنا له ، وأضحت أشلاء الكفار منتنة فى ساحة المعركة ، لم تدفن لكثرتها ، ولكثرة رؤوسهم تمنى الشاعر أن يصنع منها مآذن .

وقد حقق الله النصر للمسلمين فى ذلك اليوم وأصبحوا فى عزة بعده ، ويشبهه فى نتائجه بيوم بدر وحنين ، اذ ذاق "البردقيز" الخزى والعار ، نظرا لبغيه ، ويعيد التأكيد على كثرة القتلى من النصارى ، فجثثهم تهب بها الرياح فى

---

(١) السابق ص ١٠٠ .
(٢) يريد "سبيستيان" ملك البرتغال الذى قتل فى تلك المعركة كما مر بنا .

الغيافي ، ولكن تلك الغيافي لاتستفيد منها شيئا ، إذ لو كانت في مكان آخر صالح للزراعة لكانت سمادا جيدا .

ثم يختم القصيدة بحمد الله على ذلك النصر .

فشبَّتْ لَظَى الهيجاءِ ليس وَقُودُها
سوى أنفُسِ الشّجعان وسطَ الميادنِ

إذ أرْعدَتْ تلك المدافعُ أبْرقت
مَقيلاتُ بيضِ الهند فوق اليَمَائن

قد انقضَّت الفرسانُ منَّا عليهم
هم انقضاضَ صُقورِ الجوِّ فوْق الوراشِن

وصابرَ كلٌّ قِرْنَه فمجندَلُ الشَّـ
ـرى وجريحٌ ساحبٌ للمَصَارن

وهامهُم مثلُ الكُرين وقد غدَتْ
سنابكُ خيلِ اللّهِ مثلَ المحاجن

و"سيبسطيانُ" كفَّنَته مياهُه
هَزيما وماءُ النَّهر أفظَعُ كافن

فحين قَضَى البتّارُ في الكفر ماقضَى
وأشلاؤه نتنٌ بغيرِ مدافِن

رأيتَ الوفا من رؤوسٍ تجمَّعت
وياليتَها أيضا جدارُ المآذن

هنالك نصرُ المؤمنين مؤزَّرٌ
على كل ذي كفرٍ تهجَّم فاغِن

فذلك يومٌ مثلُ بدرٍ وصِنْوه
حُنينٍ بأيدي المؤمنين الميامِن

لقد ذاقَ "البردقيزُ" من الرَّدى
جزاءً منا حيسٍ خَزَايَا ملاعِن

بَغَوا فجَنوا جنى البُغاة فأصبحوا

سمادَ الفيافي لاسِمادَ الفدادن

فنحمد رب العرش إذ كان ديننا

لأهل الوغى والبأس خير المعادن (١)

والحق أن الشاعر يحمد له تسلسل صوره ، فمن حديث عن الجيش البرتغالى ، ووصف للجيش الإسلامى ، ورسم لصورة المعركة .

ولكنه كان فى هذا المقطع عييا ، فالصورة فى ذهنه ، ولكن العبارة لم تكن مواتية لتادية المعنى ، وهذه دلالة على عدم قدرته الشعرية ، إذ التعقيد واضح فى مثل قوله :

رأيت الوفا من رؤوس تجمعت

وياليتها أيفا جدار المآذن

وقوله :

بغوا فجنوا جنى البغاة فأصبحوا

سماد الفيافى لاسماد الفدادن

ثم إن قوله "أيفا" ، و"فدادن" فيها نبو وعدم ملاءمة للغة الشعرية ، وخياله ساذج مألوف فى كل الصور التى أوردها .

ولكن الشاعر من عمره ، فلايطلب منه فى تلك المرحلة اكثر من هذا التسجيل والمشاركة ومحاولة إخراج الشعر مما وقع فيه من موضوعات هزيلة .

وتمر الأيام ويجيش الاستعمار من جديد بجموعه على بلاد المسلمين فى "أفريقيا" ويروع أحد العلماء (٢) ذلك المنظر ، وليس هنالك من يصد الصليب عن أهدافه ويستعيد تاريخ مقارعة المسلمين للصليب فى "وادى المخازن" وماأبداه المسلمون

---

(١) السابق ص ١٠٧-١٠٨ .
(٢) هو محمد بن ماء العينين، ولم أعثر على ترجمته

وقتئذ من تضحيات ، فجادت عليه قريحته بقصيدة أعاد فيها الإشادة بالرجال الذين احرزوا النصر في ساحة "وادى المخازن" ، إذ شيدوا الدين وارتدوا رداء المعالى ولم يثنهم لهو ولامجون ولاخلاعة ، لأنهم ليسوا من أصحابها ، إذ "هم الناس إن عدت كرامُ المعادن" ويشمخ أنفه متطلعا لذكرى ذلك الانتصار ، ولكنه سرعان مايرتد حسير الطرف ، عندما يرى بنى عصره ، وماهم فيه من ذل وهوان ، ولايخفى مافى تلك المقارنة من حث واستنهاض لهمم معاصريه ، وكذا مافيه من تقريع لهم . .

خليليَّ مرّابى بوادى المخازن
نجدّدْ شكراً بين تلك المواطن

مواطنُ كانت للجهادِ مشاهداً
بهنَّ مياهُ العزِّ غيرُ أَوَاسِنِ

به وقعةٌ مازالَ يَسْرى نسيمُها
على بُعْدِ عصرٍ وابتعادِ الأماكنِ

بأيدى رجالٍ شيّدوا الدّينَ وارْتَدَوا
رداءً من العلياءِ مَافِي المَحَاسن

فلم تُثْنِهم عن راحةِ العزِّ راحةٌ
وحسوُ كؤوسٍ بين شادٍ وشادنٍ

رجالٌ من أبناءِ المغاربة الأُولى
همُ النّاس إنْ عُدّت كرامُ المعادن

فتشمخُ أنفاً ثم نطرقُ بعدها
حياءً لفوتٍ بيننا وتَبَايُنِ

أُولاكَ حَمَوا اقصى البلادِ وأنتمُ
مساكينُ محميونَ وسْطَ المساكنِ

ومــــاذاك إلا من نتيجــةِ سعيِكم
ونبذٍ لدينِ المصطفــى والتّهــاون (١)

والباحث ينظر إلى مثل هذا الشعر من زاويتين :

(أ) لدلالتــه على ماآل إليه الشعر فى عصر الشاعر ، من سقم وتهافت ، وعندما تعم الشعر هذه السّمات فغالبا مايكون منشاهــا مــن هبوط في روح الناس ، ومن جمود فى العصر كله .

(ب) يتصدى للشعر بعض العلماء الذين يجعلون الشعر من شعور عظيــم وخيــال خصب ، ومن رؤية شعرية متجددة إلى نظم ، أهــم مايصلــه بالشعر أنــه مــوزون مقفــى . إضافة إلى ارتكاب الضرورات والوقوع فى المحظورات ....!!

إن الشــاعر هنــا يقــرِّع بنى قومه ، بتهاونهم ، ونبذهم لكثــير مــن أمــور الدين ، ويحاول بعث هممهم وتذكيرهم بيوم "وادى المخــازن" ، وهــو اليــوم الــذى كسروا فيـــه شـــوكة "البرتغــاليين" الغــزاة ... ولكــن هــل ينفع الغناء فى هذه الذكرى العظيمة بصوت متحشرج ؟!!

(١) السابق ص ١٠٥ .

سقـوط أصيـــلا :

عندمـا بـدأ الأسـبان والبرتغـاليون فـى الاسـتيلاء علـى السـواحل المغربية تزكيهم النزعة الصليبية ضد المسلمين من أهـل البلاد أو النـازحين من الأندلس نجاة بدينهم وأرواحهم ، كـان لابد أن يكون من العلماء من يقوم بمهمة الحض واستثارة النـاس ضـد النصـارى الغـزاة ، والدعوة إلى الجهـاد لتحرير الثغـور المسـلوبة ، لـذا انـبرى فى تلك الفترة التـاريخية الحالكـة بـالمغرب العـربى العـالم الشـاعر "محمد بن يجيش التـازى" ليـؤلف كتابا فى الجهاد ويختمه بقصيدة يدعو فيها (١) إلى الجهاد ، ونبذ الفرقة ، والتنـازع - أصل الضعة والانحلال - ، ويبيـن أن الوحـدة هـى الأمثـل لاسـتعادة الحقوق المسلوبة ، ويظهر قلقه وخوفه من استنساد «البرتغـاليين» وتواكل المغاربة واتخـذ من سقوط "أصيلا" بيد «البرتغـاليين» أداة لشرح المأساة بكاملهـا معرجـا علـى "أصيـلا" ومافعل العدو بها ، وكيف أن مساجدها تبكى لفقد روادها ، وصوامعها أضحت معطلة عن الأذان ومجالس العلماء فى باحاتها أصبحت ميدانا للرهبان .

ولم أستطعْ صبرا وكيفَ يصحُّ لـى
وقد هُتِكَت من ديننا كلُّ حُرمة

وشاركَنَا الأعداءُ فى قُطرِ غَربنا
وقد أخذوا جلَّ البلاد البهيَّة

(١) محـمد بـن عبد الرحيم بن يجيش التازى من أعلام الدولة السـعدية ، لـه ديـوان شعر وكتب أخرى منها فى الجهاد "تنبيه الهمم العالية" .
انظر : الحركة الفكرية ٢/

وقد أُرْعِبَت تلك السّواحلُ منهمُ
وصاروا يؤدّون الخراجَ كجزيةِ
وأنتم شغلتم بالتعلّل والمُنى
بلغتم مرادَ النّفس من كلّ لذّة
وأسعفتمُ الشّيطانُ ممّا أرداهُ
ومِلتم إلى نَهْجِ الطّباع الخسيسةِ
فهذا هوانٌ واحتقارٌ وذِلّةٌ
وعارٌ شنيعٌ ثمّ قِلّةُ حِيلة
فقصةُ أميّلا عَرَفتم جميعاً
ومافعلَ الأعداءُ من شرِّ غَدْرة
وأضحتْ على الإسلام تَبكى رسومُها
وسكانُها قد صاروا فى أرْضٍ غُرْبة
مساجدُها تَبكى على فقدِ أهلِها
كأنْ لمْ يكنْ فيها مردّدُ سورة
صوامعُها قد عُطّلت عن أذانِها
كأنْ لم يكنْ فيها أذانُ مصوّت
مجالسُ أهلِ العلمِ ياصاحِ بُدّلت
بتلبيسِ رهبانٍ ورِجْسِ الأَخسّة

ثم يحض على الإنفاق فى سبيل الله ، ويشنع على البخلاء من ذوى الثراء :

ولاتبخلوا بالمالِ وهو لربِّكم
وأنتم له فالبخلُ شرُّ سجيّة
فمن كان ذا مالٍ ولمْ يكُ ذا ندى
فذلك ممقوتٌ خبيثُ الطّويةِ

ويستنهض الهمم للجهاد ، مذكرا بالأمجاد السالفة التى سطرها الأجداد داعيا إلى سلوك طريقهم .

أيا أولياءَ النّصر يا أهلَ غربِنـا
بكم تُضْرَبُ الأمثالُ فى كلِّ بلدة
وأنتم همُ الشّجعانُ فى شدّةِ الوغى
وأنتم همُ الأبطالُ عند الحقيقة
فكيف يضيعُ المُستجيرُ بجاهِكم
وأنتم ملاذُ الخائفِ المُتشبتِ
وأسلافُكم لم تالُ عن مُستغيثِكم
على نهجهم فامْضوا بصدقِ عزيمةِ
فكمْ أنقذوا من مُسْتَغِيثٍ بجاهِهِم
وكمْ كَشَفَوا من كُربةٍ مُستقرَّة
وكم من جيوشٍ اوردوُها حتوفها
وكم فرَّقوا فى دهرِهم من كتيبةِ
فقدْ كان هذا والعدوُ ببرّهم
وفى الغربِ عادَ القومُ فى قُرب عُدْوة
وصاروا يرومونَ البلادَ ببرِّكم
يحطُّون منكم قريةً بعد قرية
فياعجباً من ذلكم لعدوِّكم
وأنتم لكم فى الحربِ أعظمُ صَوْلة
فأين أسودُ الغربِ أينَ رجالُه
وأين ذوو الخيل العِتاقِ الأعزّة (١)

والقصيدة على مافيها من ضعف فى الخيال والتراكيب واختلال فى الوزن عند قوله :

فقصة أصيلا عرفتم جميعا
وسكانها قد صاروا فى أرض غربة

---

(١) الحركة الفكرية فى المغرب فى عهد السعديين ص ٢٠٠-٢٠١ ط فضالة

محمد حجي

الا انها تعتبر شاهد عصر على دور بعض العلماء العاملين الذين استشعروا واجبهم ، فكانى بهذا العالم قد امتطى صهوة جواده وطلابه يحفونه من كل جانب ، ثم وصل المسجد واعتلى منبره ، ثم قام خطيبا محرضا منبها قومه من خطورة عدوهم ، ولا ادل على ذلك من كثرة أدوات النداء فى هذه القصيدة .

ولكن تلك المدينة لم تستمر طويلا بيد البرتغاليين ، فما إن استقر "المنصور الذهبى" على كرسى العرش حتى جرد جيشا لاستعادتها ، وعلى ذلك فلم تذهب صيحة "ابن يجيش" سدى وهنا ينظم شاعر المنصور وكاتبه "عبد العزيز الفشتالى" قصيدة يهنئه فيها بذلك الفتح .

ويشبه المدينة بعروس بكر زفت إلى خاطبها متهللة مستبشرة ، اتته طائعة مختارة بعد ماشغف بحنينها له ، ويبين مكانة تلك المدينة بين بقية الأمصار المغربية .

بكرُ الفتوحِ لكم تهلّل بِشرُها
وافترَّ عن شَنَبِ المسرّة ثغرُها

وعقيلةُ الأمصار وهى أصيلة
انت العزيزُ لذا أطاعك مِصرُها

وآخى بها الفتحُ المبين يزفّها
بكم وليس سوى قبولِك مهرُها

شُغِفَتْ ببدرِك واستباكَ حنينُها
فتجمّعت بكما حُنَيْنُ وبَدرُها

كانت ليالى الكفرِ فيها دمّلاً
وبعصرِك الاقوى تَبيَّنَ فجرُها

خَضَعَتْ لكم بخضوعِها الدّنيا وقد
لبّاك من بطحاءِ مكةَ حِجرُها

ويدعو المنصور أن يجرد الجيوش لاستعادة الأندلس ، وأن ذلك استجابة لعواطف ذلك الجيش ، ويطالب بحصد رؤوس الكفار بها .

أوطىء جيوشك أرضَ أندلسٍ فقد
نَذَرتْ تطيعُك كي يُوفّى نذرُها

واحصدّ رؤوسَ المشركين بها فقدّ
آن الحَصَادُ لها وأرْطَبَ بُسْرُها (١)

وتدل صيحة هذا الشاعر الوزير إبانئذ على القوة النسبية التي بلغها المغرب في عهد المنصور الذهبي .

(١) روضة الآس العاطرة الأنفاس ص ١٣٣ ، ط/الملكية الرباط ، للمقري ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور .

استقرار العثمانيين :

عندما استقر وضع العثمانيين ومن والاهم فى بلاد المغرب العربى كانت الجيوش "البرتغالية والأسبانية" لاتزال تحتل بعض الثغور الساحلية المهمة ، بينما بدأت "فرنسا وبريطانيا" تتطلعان إلى الديار الإسلامية «بالمغرب» للنزعة الصليبية من جهة ، وإيجاد موارد اقتصادية من جهة أخرى ، نظرا للثغور البحرية المهمة التى تمخر فى عبابها السفن التجارية الدولية مما يدر موارد ضخمة للدول المتحكمة فى تلك السواحل .

لذا خاض ولاة الدولة العثمانية فى المغرب حربا استعمارية شرسة ضد الدول الطامعة ، وكان طبيعيا أن نجد صدى لتلك الحروب فى الشعر العربى ، فألفينا بعض الشعراء العلماء يسيرون جنبا إلى جنب مع الجيوش المحاربة ومع أهل الثغور المستعمرة ، استغاثة وتحريضا ووصفا للمعارك ، وتطلعا إلى تحقيق المزيد من الانتصارات الحربية .

انقاذ وهران (١) :

كانت من الثغور المهمة التى بقيت فى يد الاستعمار الصليبى «الأسبانى»، بعد استقرار العثمانيين بالجزائر "وأصبحت قضية وهران هى القضية الأولى التى يهتم بها الرأى العام ويريد أن يصفى حسابها مهما غلا الثمن ... وهى فى نظره قضية جهاد إسلامى عام ... والشعراء بقصائدهم العديدة

(١) هى من أكبر مدن الجزائر بعد العاصمة ، تقع بالقرب من حدود المغرب .

كانوا يلهبون الحماسة ، ويشحذون العزائم ، ويستنفرون الشعب والحاكمين من أجل الحملة النهائية ، ولقد حفظ لنا التاريخ بعضا من هاتيك القصائد المؤثرة التى تعتبر مرآة للراى العام ، وصورة صادقة للإحساس الشعبى" (١) .

ويمكن تصنيف تلك الأشعار على المنوال التالى :

* الاستصراخ لإنقاذ وهران .

* المدح .

كان "محمد بكداش" (٢) هو الوالى على الجزائر ، ووزيره "حسن باشا" (٣) ، فحظى هذان العلمان بمكانة فى شعر هذه الحقبة – فى الجزائر – نظرا للمجهود الذى قاما به لإنقاذ "وهران" واستردادها .

من ذلك قول "محمد بن يوسف الجزائرى" (٤) :

"بشرى لمن قدومه خذل العدا" - - - - - - - - - - - - -

ومنها :

مستنصرٌ باللّهِ فى حركاتــه	ومؤيّدٌ بالعــزِّ منه فأيِّــدا
من يمّمَ السّلفَ السّعيدَ وأمّهُ	واقتصَّ آثارَ السّعادةِ والهُدى
ابدا أميرُ المؤمنين مُحمّــدٌ	للنّاس من شِيَمِ الافاضلِ مابَدَا
....	
ولقدْ علا بين المُلوك بعدلِهِ	وجرى من العلياءِ أقصى مــدى

---

(١) حرب الثلاثمائة عام ص ٢٤٧ . ط - الشركة الوطنية للنشر - أحمد المدني

(٢) محمد بكداش باشا والى الجزائر سنة ١١١٨هـ/١٧٠٧م ، عربى الأصل تركى المولد والنشأة ، له معرفة ومشاركة فى بعض الفنون ، ولى خطابة بعض الجوامع فى الجزائر ، مات مقتولا سنة ١١٢٢هـ/١٧١٠م .
انظر : التحفة المرضية ، حرب الثلاثمائة عام .

(٣) الامير حسن باشا كان محبا للخمر والملذات ، ثم تاب وأناب عن ذلك ، وتزوج ابنة "محمد بكداش" وعين وزيرا له ، قتل سنة ١١٢٢هـ .
انظر : التحفة المرضية .

(٤) ابو عبد الله محمد الملقب بابن يوسف الجزائرى ، من أدباء وشعراء عصره ، شارك فى المعارك التى دارت لاسترداد وهران . انظر : التحفة .

فوزيرُهُ وكفيلُهُ "حَسَنٌ" الذى
ساقَ الجيوشَ إلى الجهادِ ومهّدا
يُزجى عساكِرَهُ "الوهرانَ" التى
أضحى بها الإشراكُ مُلتحِمَ السّدَى

ويدعو الله أن ييسر على يديهما فتح مدينة "وهران" .

يارَبِّ يَسِّرْعن يديْهِم فتحَهَا
ربّي وكنْ لهما مُعيناً مُنجِدا
وتعودُ للإسلام دارَ مُقامِهِ
وبها منارُ المسلمين مُشيّدا
ويزُولُ من بعدِ الضّلالةِ بالهُدى
ماغيّرَ الإشراكُ قبلُ وأفسدا (١)

والشاعر على ضعف فى لغته وتراكيبه إلا أن ألفاظه مناسبة لمقام المدح فهو يحذو حذو السلف ، ذو شيم رفيعة وعدل .

ويمدح "محمد بن عبد الله المستغانمى" (٢) والى الجزائر بقصيدة سماها "الكوكب النائر فى مدح أمير الجزائر" منها :

لازِلْتُ أقْتَبِسُ الآثارَ حَيثُ بدا
لِمُقلَتي كوكبٌ بالنّصرِ مُتَّزِرِ
إمامُ عدلٍ حَمَاهُ الرّبُّ حيثُ غدا
مُعْتَصِماً صابراً للّهِ مُنتصِرِ
سلطاننا المرتضى دامت سعادته
وازداد نصراً على نصرٍ مدى العُمْرِ

---

(١) التحفة المرضية ص ١٧٧-١٧٩ .
(٢) لم أعثر على ترجمته .

فقدْ أتى واحداً فى عمرنا رافعاً
لرايةِ العِلمِ والشَّرعِ القويم حَرى

....

أيامُكم أقبلت ودولةٌ سعِدت
ورحمةٌ وُسِعَتْ فى البدْوِ والحَضَر

بحاكمٍ فاضلٍ وعالمٍ عاملٍ
أحْيا الحنيفيَّةَ السَّمحاءَ كالمَطَر

أدَارَ ملكٍ فلاتخشوْنَ منْ أحدٍ
فكلّ أعدائِكم منْكم على حَذَر

ويدعو الله أن ينصر المسلمين ويهزم الصليبيين كهزيمة الشرك فى بدر وحنين .

ربِّي بأسمائِك الحُسْنى فكنْ ناصراً
لهم بريحِ الصَّبايا خيرَ مُنْتصر

واهزِمْ ولاةَ الصّليبِ هزْمَ بدرٍ كما
هزمْتَهم بحُنَينٍ سَلْ عن الخَبَر (١)

والشاعر مثل سابقه مهلهل النسج ، ضعيف القريحة ، سقيم التراكيب والصور ، يخرج كغيره من طبقته على أوزان العروض ، وحينا على قواعد النحو ، وهذا هو وقت الإفلاس فى تاريخ الشعر العربى ، ووقت الانحطاط والجمود فى تاريخ الأمة .

ويمدح "محمد بن محمد القوجيلى" (٢) ، "أبا العباس الحاج أحمد داى" (٣) بقصيدة منها :

---

(١) السابق ص ١٨١-١٨٣ .

(٢) محمد بن محمد بن على بن يسعد الملقب بابن آقوجيل له اشتغال بالمنظوم والمنثور ، أحد أعلام زمانه ، له بعض التصانيف ، كان يتقاضى جراية من والى الجزائر .
انظر : التحفة المرضية .

(٣) أبو العباس الحاج أحمد داى تولى الجزائر سنة ١١٠٦هـ/ ١٦٦٥م الى سنة ١١٠٩هـ/١٦٩٨م .
التحفة المرضية .

بسعادة تجديدكم وسرور — وبه الهناء على مَمرّ دُهور

فرحت جزائرُنا بكم وتأنّستْ — بمقامِكم فيها بحال حُبُورِ

دَبّرتم أمرَ البلاد ومنتم — أحوالَها جُهدا من التغيير

يهنى أبا العباس مُلك بلادنا — مامثلها بلد بنقد بصير

ويدعو الله أن يبقيه ذخرا للبلاد :

فالله يبقيكم لنفع بلادنا — ظلاّ ظليلاً غايةَ التعمير (١)

والشاعر ضعيف التراكيب ، سقيم العبارة ، دخيل على الشعر الجيد كسابقه ، إلا أنّ الباحث يسوق مثل هذه النماذج ليدل على ضعف الشعر ، وعلى تهافت الروح العامة ، وعلى الحركة التى بدأت تسرى إلى الشعر من خلال الأحداث التى جيشت الوجدان فبدأ يخرج بها الشعر من وهدته .

ويثنى "محمد بن عبد المؤمن" (٢) على الأمير "حسن الشريف باشا" (٣) بقوله :

يا أيّها الملكُ الذى أيامُه
غُرَرٌ غدت بكماله تتباهى

ومن الذى أحيا معالمَ سنّة
وشيّد اركانَهـا وبنَاها

ذاك الأميرُ أبو محمدٍ الرِّضي
حسنٌ به قطرُ الجزائر تاها

انت الأمير المرتَجَى لكريهةٍ
يوم النِّزال فأنت قُطبُ رحاها (٤)

---

(١) السابق ص ٢٠٦ .
(٢) أبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن ، توفى سنة ١١٠١هـ/١٦٩٠م .
التحفة المرضية .
(٣) تولى سنة ١٠٩٢هـ/١٠٩٤م .
التحفة .
(٤) نفسه ص ٣٠١ ، ٣٠٢

وهو مثل سابقيه في ضعف التراكيب والاخلال بالوزن في قوله "وشيد ..." .

وممن مدح "حسن باشا" ودعا له "عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن موسى"(1) ، عندما هدم "حصن المرسى" الأعلى وهرب النصارى منه للحصن الأسفل ، إذ يشد من عزم "الباشا" لاستكمال البقية الباقية من حصون النصارى إبّانئذ .

هَنيئاً لكم باشا الجَزائِرِ والغَرْبِ
بِفَتحِ أَسَاسِ الكُفرِ مَرْسَى قِرَى الكَلْبِ

سَتَفْتَحُ وَهراناً ومَرْساتها التي
أَضَرَّت بِذا الإقليمِ طُرّا بلا رَيْب

فَثِقْ بالإلهِ واستعِنْ به واصبِرَنْ
يُنلك المرادَ يا أميري ومَطْلَبي

وقد وَعدَ الرحمنُ جلَّ جلالُهُ
معَ العُسر يُسراً قد اتى ذاك في الكُتُب

وقد قال فاروقٌ ابو حفصٍ الرضي
بيُسرينِ عُسرٌ واحدٌ ليسَ ذا غُلْبِ

فأبقاكَ ربّي فاتحا لحُصُونهم
وكَهفاً منيعا ذا عُلُومٍ وذا صَوب

ونَوِّر قلباً منك بالعلمِ والتّقى
واعطاك ماتهوى من النصرِ والحُبّ(2)

ويقول أيضا داعيا الله أن يمنحه العز والنصر ، ويفرج كربه ويرعاه :

---

(1) عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن موسى الوجديجي ، ولد سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٣م ، توفي سنة ١٠٠١هـ/١٦٣٠م . التحفة .

(2) السابق ص ٢٧٨ .

تُحَيِّي بنصرٍ مع فُتُوحٍ تَواتَرتْ

على نَجلِ خير الدين خير المَطالِبِ

وتُرضيه يامَولاى فى كلِّ وِجْهةٍ

وتمنَحُهُ عــزّاً وخيــرَ العواقِــبِ

وتَكْشِفُ ضُــرَّهُ وتَحفظُ سِــرَّهُ

تُفَرِّجُ كَرْبَــهُ بإعطَــا المــآرِبِ

....

فثِقْ بالإلهِ واصبرنَّ تنلْ بــهِ

مراَدَكَ وَهرانــاً ومَرْسَى القــوارِب

وقد وعد الرحمنُ جلّ جلالــه

معَ العُسرِ يُسراً لستَ فى ذا بِغائب (١)

وكــلا القصيــدتين نظم لايجد القارىء فيهما روح الشعر ، ناهيك بتكرار معانيه والفاظه فى العسر واليسر .

ويقــول "عبــد الرحــمن الجامعى" مادحا "حسن باشا" أنه أرعــب الكفار ، وأن النصر حليف جيشه أنّى سار ، والأرض دانت لــه بدوها وحضرها ، ثم يدعو الله أن ينيله مآربه ، ويبقيه فى خير وعافية .

أرعبتَ خوفاً قُلُوبَ الكافرين فَهُمْ

قَتْــلى وَمَرْعَى لدى العِقْبَان والنُّسُرِ

لازالَ جيشُك أنّى ســار يقدمُــهُ

نصرٌ وفتــحٌ مبيــنٌ غــيرُ منحَــصِرِ

دانت له الأرضُ دانيها وشاسِعُهــا

وقــد أطــاعك اهــلُ البــدوِ والحضر

---

(١) السابق ص ٢٨٠ .

وآحْرُفُ العِزِّ والنّصرِ المبينِ على
لِـواكَ قد رَقَمَتْها أنْمُلُ القَدَرِ

أنا لك اللهُ ماتهوى وتطلُبُه
من السعادةِ والإقبالِ والظَفَرِ

فالله يُبقيكَ فى خيرٍ وعافيةٍ
مادام فينا ضياءُ الشمسِ والقمر (١)

ويقول فى قصيدة اخرى إن الإسلام بلغ غايته به ، وأنه همام شجاع ، رحيم بالمؤمنين .

فَتىً مُحسنٌ للقاصدينَ بِفضْلِهِ
لِذا حَسَناً سَمّاهُ ذو المُلْك والأمرِ

بِهِ بلغَ الإسلامُ غايةَ سُؤْلِهِ
وأصْبَحَ أهلُ الكُفر فى الحَشْرِ والعُسْرِ

هُمَامٌ حوى المجدَ المُؤَثّلَ يَافِعَاً
شجاعٌ كَمِىٌّ طاعنُ الصدرِ والنحر

رحيمٌ بكلِّ المؤمنيين ملاطفٌ
رؤوفٌ عطوف فى النوائب ذو صبر (٢)

والناظم عمد إلى رصف مجموعة من الاوصاف ذات الوزن الواحد ، دون أن يكون هنالك أية معاناة ، مثله مثل كثير من شعراء زمنه .

ويثنى "ابو عبد الله محمد حفيد المهدى الجزائرى" بقوله :

إليهِ تَناهى الحزمُ والعزمُ والعُلى
وعنهُ إلى الاقطار تُروى المكارمُ

---

(١) السابق ص ٢٨٢ .
(٢) نفسه ص ٢٨٤ .

لَهُ قَدمٌ فى مركز العز ثابتٌ
ورأىٌ سديدٌ لم تَزُغه العظائمُ
رَفيعُ البِنا فى المجدِ شَهمٌ مُحنَّكٌ
خَبيرٌ بأفرادِ السياسةِ عَالِم
....
سَطَا سيفُه بالكفر أفظعَ سَطْوَةٍ
لَقَدْ أحجمتْ عَنها الأُسودُ الضراغِم
إمامٌ سَقى الكفارَ كأْسَ منيةٍ
لهم شبهٌ بالنَّمل والسَيفُ حَاطِمُ
لقَدْ صَالَ فيهم صولةً هاشميةً
فأعماهم فى الحرب حَيران واجم (١)

وظاهر أن أوصافه مستمدة من الذاكرة ، والأبيات الأخيرة ألبق من الأولى لصلتها بموضوع الحرب .

ظلم الاستعمار :

إن النصارى فى هذه الحقبة التاريخية مانزلوا أرضا إسلامية إلا وحاولوا بشتى الوسائل طمس كل أثر إسلامى ، وإظهار كل شعيرة صليبية ، فسكوت صوت المؤذن ، يقابله دق للناقوس ، وخفض الهلال وتدمير المساجد ، يقابلها رفع للصليب وتعمير الكنائس .

فهذا "محمد بن عبد المؤمن" يصف ماحصل لمدينة "وهران" على يد الاسبان عندما استولوا عليها ردحا من الزمن ، إذ عبثوا واستباحوا كل شىء ، ورفعوا الصليب وطمسوا معالم الإسلام بها ، وأسروا وشردوا أهلها .

---

(١) السابق ص ٢٩٤-٢٩٧ .

قد طالما عبثتْ بها أيدى العِدى
حتى استباحوا أرضها وحِمَاها
وتصرّفوا فى المسلمين فأصبحتْ
أُعْجُوبةً لمن اغتدى يرعاها
أضحى الصليبُ مؤيداً والدّينُ قد
دُرِسَتْ معالمُه فلستَ تَراها
جعلوا بها الناقوسَ فى أوقاتهم
بدل الآذان وغيّروا مَعناها
كم من أسيرٍ حوْلهَا لايُفتدى
كَمْ من فقيرٍ حلّ فى مَثواها
كَم من نِسامَعْ صِبيَةٍ أسْرَى بِها
أسرى بهم من لَيْسَ يدرى الله (١)

ويقول "ابن أقوجيل" إن النصارى فى مدينة "وهران" أذاقوا المسلمين وبالا وسبوهم وكلفوهم غرامات لاتطاق .

ضاقتْ أمورُ المسلمين وكُلّفوا
غُرماً طويلا فى مديدِ شهورِ
وبغربِنا وهران ضرمٌ مؤلمٌ
سهل اقتلاع فى اعتناء يسير
كَمْ قَد أذتْ من مسلمينَ وكم سَبَتْ
منهم بقهرِ أسيرةٍ وأسير (٢)

ويصف فى قصيدة أخرى المظاهر التى أحدثها النصارى بالمدينة لمّا حلّوا بها ويعرض للخونة الذين رضوا بذل الاستعمار ، لقاء أجر مادى ، بينما الرعية تنادى بالخلاص من ظلم المحتلين وجورهم .

---

(١) السابق ص ٣٠٢ .
(٢) نفسه ص ٢٠٦ .

تَملّكها حِزبُ الشقاءِ ولم يَكُنْ
زَماناً لِحزبِ الحقِ عنها مُخاصِمُ

بِها يُسمَعُ الناقوسُ من نَحوِ فَرسخٍ
ومِنْ لغة الكفّار فيها تَراجِم

وفى كلّ يومٍ صيحةٌ من خُيولِها
يَنوحُ لها الإسلامُ والشركُ باسم

زهاواعتلى التثليثُ فيها ونُكِّستْ
لِمَادَهَمَ التوحيدُ منهُ العَمائم

وكلُّ رئيسٍ يُرتجى لِخُطُوبها
تَشاغلَ فى لَذّاته وهو نائم

ورُبَّ أميرٍ أزمعَ السيرَ نحوها
فيرجعُ لمّا كَلّلتْه الدراهم

رَضوا بالرُّشا فى الدين لما تخلّفوا
وقد رسخت فىالأرض تلك الأراقم (١)

الدعوة لإنقاذ وهران مع وصف الجيش المنقذ :

كان للشعراء دور كبير فى حض الساسة من ولاة الدولة العثمانية ، وشيوخ القبائل ، والعلماء ، على استعادة "وهران" من يد الأسبان .

فهذا "أحمد بن عبد الله القاضى" (٢) يستنهض الهمم ويحض الناس على الجهاد ، خاصا قبيلة "بنى عامر" (٣) ، مسميا شيوخ القبائل ، ثم يعمم بعد ذلك فى ندائه للاتراك ، وسادات

---

(١) التحفة المرضية ص ٢٩٥ ، حرب الثلاثمائة ص ٤٦٩ .
(٢) لم أعثر على ترجمته .
(٣) قبيلة كانت تسكن حول "وهران" أسلموا قيادهم للأسبان وأصبحوا لهم أعوانا وعيونا على المسلمين .

العرب ، مناشدا إياهم أن يهبّوا لإنقاذ "وهران" متسائلا كيف رضوا بالذل والهوان ، فالعدو يَسبى العذارى ، والوالى اليهودى من قبل النصارى سام المسلمين خسفا وعذابا فأين الهمم وحماة الذمم .

فمَنْ مُبلغٌ عنّى قبائلَ عامرٍ
ولاسيّما مِمَنْ ثوى تحتَ كافرِ

وكلَّ كميٍّ من صناديدِ "راشدٍ"
بتيجانِهمْ مع رأسها "عبدِ قادر"

وجيرانَهم فى الغرب من كل ماجدٍ
طويلَ القنا أهلَ الوفا والمفاخر

و"طلحةَ" والأحلافَ فى غرب هبرةٍ
وشيخَ سويدٍ بل وكلَّ مُفاخر

و"شيخَ بنى يعقوبٍ"الحامى الحِمَى
لكلِّ قبيلٍ مولع بالعساكر

ويامعشرَ الإسلامِ فى كلِّ موطنٍ
وفى كلِّ نادٍ سالفٍ ومعاصر

ويامعشرَ الاتراكِ ياكلَّ عالمٍ
وكلَّ ولىٍّ حافظٍ للأوامر

وياسادَة العُربان مِنْ آل هاشمٍ
وغيرَهم باللّه مامبرٌ صابر

أُناشدِكم باللّه ماعُذرُ جمعِكم
لدى الله فى وهرانَ ذاتِ الخنازر

اذلّكم الجبارُ ! كيفَ رَضيتُمو
بِسَبْيِ العذارى من بناتِ الأكابر

فصرتُمُ مِنْ جَورِ البُغاة كأنّكم
يهودُ الجزا تُعطونها بالأصاغر

فلاهمةٌ تعلو بكم عن دنيّةٍ
ولاغَيرةٌ تدعوكمو للمآثرِ
ولاذمةٌ تَرعونها فى نبيِّكم
ولاحرمةٌ تَحمونها بالبواتر
عليكم لحاقُ الذل أينَ فحولُكم
أَما أبْصَروا فى الذلِّ خيرَ الحَرائر
وتَحتَ اليهودى غادةٌ عربيةٌ
يُعاليها الخنزير فوق الهزابر
ومَامنكمُ الا خصىّ أذلّةُ
بميسمِه النصرانى ياآل عامر
اضيمُ ملوكٍ أم تغلّبُ ظالمٍ
عليكم رماكم فى جِوار الكوافر (١)

وفى قصيدة أخرى يحث الناس أيضا على استعادة تلك المدينة المغصوبة سالكا نفس المسلك السابق فنادى الملوك والزعماء من المسلمين والسلطان التركى ، وجيشه المرابط فى الجزائر محرضا إياهم جنودا وقادة ان يخوضوا لجج البحر حفاظا لدين الله ، وإنقاذا لبنات العرب الأبكار من ان تنتهك أعراضهن من قبل الظالمين .

وفى استنهاضه للاتراك يذكرهم ببطولات أجدادهم فى "القسطنطينية" .

ومَنْ مُبلغٌ عنى ملوكَ الاقالمِ
وكُلَّ رئيسٍ من رُؤوس العمائمِ
وكُلَّ هُمامٍ مائلٍ فى حمائلٍ
على مَتْنِ جارٍ سابقٍ فى العزائمِ

(١) حرب الثلاثمائة عام ص ١١٧-١١٨ .

وكلّ زَعيمٍ مُولَعٍ عن جدوده
بصيد الضّواري من فُحُول القراغِمِ

وسُلطانها التركيّ في دارِ مُلكهِ
وبيتِ عَلاهُ في دُهَاةِ الطَّماطِمِ

وجُنْدُ بني عثمانَ في كلّ قائدٍ
جُيُوشٌ كموجِ البحرِ عندَ التلاطُمِ

يريدون لأوهرانَ ما سبق القضا
بتنفيذهِ للوقت في جفنِ عالم

يَخوضون لُجّاً في سفائنِ رائسٍ
حوّاطاً لدين الله عزّ العزائم

وحِرْزِ بناتِ العُرب من كلّ فاتكٍ
بأبكارِها كالحور في قصر ظالم

فما لبني عُثمان في سِنَة الكرى
ووهران تزهو نخوةً بالمَراغِم

ويامعشرَ الاتراكِ مابالُ سعيكم
وكلّكُمُ أعمالُه بالخواتِم

ألستم اخذتم دارَ ملكِكُمُ التي
مِنَ اشراطها وهذهِ في العلائم

وقد ظفر المرحومُ جدُكُمُ السَّمي
قُرونَ الثريا عنوةً والنَّعائِم

ودانت له البلدانُ حتّى عراقُها
إلى يمنٍ ولمْ يَخَفْ لومَ لائم

وفي مغربِ البدرينِ نَشْرُ بنودِهِ
وأعْجَزكم وهرانُ من مُسْتَغانِم

بني الأسدِ الهَصّار ما الذُلّ شانُكم
ولاحظّكُم من داهمٍ مُتَفاقِم

عليكُم سلامي ما استنارت بهديهِ
قرائحُ مغرٍ بالقَنَا والصوارمِ (١)

وكأنى بالشاعر فى كلا قصيدتيه وقف خطيبا منذرا لقومه فأضحى بعيدا عن الشعر ، ولم نلحظ فارقا يذكر بينهما فى الفكر والأسلوب فكأن الواحدة تغنى عن الأخرى .

ويحمد له فى استشارته تركيزه على القبائل ومحاولة صب تجمعها لصالح المسلمين هنالك ، وفى نفس الوقت لم يغفل دور الأتراك لأنهم ولاة الأمر فى الجزائر .

ويدعو "محمد بن عبد المؤمن" الداى "حسن الشريف باشا" أن يجيب نداء "وهران" إذ هى تصرخ مستغيثة به ، لذا يطلب أن تجيش الجيوش لغزوها ، وينبه إلى خطورة الخونة من أبناء قبيلة "بنى عامر" وهذا يدل على دور هذه القبيلة ، ووعى الشاعر خطرها على المسلمين ، لأنهم لايقلون عن العدو الخارجى ، وأن القضاء عليهم وترتيب الأوضاع معهم مدعاة للظفر بما يراد من إحكام السيطرة على المدينة .

ثم يأمر المسلمين أن يقوموا هبة واحدة فقد آن الأوان لاستردادها .

نَادتكَ وهرانُ فلبِّ نِداهـا
وانزِلْ بها لاتقصدَنّ سِواها

واستدعِ طائفةَ العساكرِ نحوَها
يُغزونها ولينزلوا بِفِناها

مستصحبين لواءَك المنصورَ إذْ
يلقاهُمُ الفتحُ المبينُ وَجَاها

صَرَخَتْ بدعوتِك العليّةِ فاستجِبْ
لندائِها ولْتُكمِلَنّ مُناها

---

(١) التحفة المرضية ص ٢٩٩-٣٠٠ .

حاشاكَ أن تَفنى حَشاشَتُها وَقَدْ
قَمرتْ عليكَ نداءَها ورَجَاهـا

جَرِّدْ ظُباكَ لمحوِ آثارِ العِدَى
حتى ترى الإسلامَ فى مَغْناهـا

وادعُ الغزاةَ لغزوِها مستنجداً
وانهضْ إليها وانزِلَنْ مَرساها

عَرِّج على أطلالِهـا مَعْ فِتْيَـةٍ
سَحَراً بعـزمٍ لامُنحتَ نَواهـا

مِنْ بَعدِ تهوينٍ لناصرِ دينِهم
"أبناءِ عامر" ساءَهم مَرآهـا

وانظرْ برأيكَ فيهِمُ مسترشداً
أهلَ النُّهَى فبرأيِّهم تُعطاهـا

واستأصلَ الآثـارَ حتى لايُـرى
من عامرٍ مَن يُرتَجى نجواهـا

إذْ ذاكَ تظفرُ بالمُنى وتنالُ ما
تَهوى وتُصبح نـازلاً بذراهـا

قولوا لها يامعشرَ الإسلام قَدْ
آن القيامُ لها وحانَ لِقاهـا

خوضوا إليها بحرَها يُصبح لكم
رهواً وجوبوا نحوها بَيْدَاهـا

فالآن آن الفتحُ إذ ظهرتْ بِهـا
آثـارُ تُنْبِي أنّه وافاهـا (١)

ويدعـو "ابـن القوجيل" "أبا العباس أحمد داى" أن يلتفت إلـى الجهـاد ، ويجهـز الجيوش بـرا وبحرا ، وأن يضرم نار

---

(١) السابق ص ٣٠١-٣٠٣ ، حرب الثلاثمائة عام ص ٤٣٩-٤٤٠ .

الحرب على الكفار .

ثم يستشرف المستقبل متفائلا ان يرى جيشا ذاهبا لفتح وهران كالسيل عددا ، والبرق والرعد عدة ، بنادقه كالصواعق في تدميرها للعدو، وخيله تنقض انقضاض الصخور من عل ، أفراده كل مقدام خواض للمعارك ، ثم يدعو الأمير لغزو عدوه والتأهب لذلك ، ليشتت شمله ، وإذا ماظفر بهم فليسب الذراري والنساء ، وليقتل كل مقاتل ويتركهم طعما للنسور .

ولتلتفتْ نحوَ الجهادِ بقوّةٍ
والكفرَ اقطعْ أملَه بذُكورِ

جَهّزْ جيوشاً كالأُسودِ وسَخِّرَنْ
تلكَ الجواري في عُبابِ بُحور

أَضرم على الكفّارِ نارَ الحرب لا
تَقْلَعْ ولاتُمهلهمُ بفُتور

فانهض بعزمِك نحوَها مستنصراً
بالله في جِدٍّ وفي تشْمير

بعساكرٍ مثلِ السُّيولِ تزاحمتْ
للسّبقِ تحت لوائِكَ المنصور

او كالسَّحاب بُروُقُه ورعودُه
نارُ المَكَاحلِ أُوقدتْ بزفير

تُلقي على الكفّار منها صواعقاً
محفوفةً برصاصها المَسْطور

وسوابقٌ كُمّتٌ وشهبٌ أُضرمت
عند اللّقا تنقضُّ وقعَ صخور

مِن كلِّ مِقدامٍ إذا نارُ الوغى
حَمِيَتْ يخوضُ لهيبَها بصدور

مَا إن لها مِنْ راحةٍ إلاّ إذا
سَفَكَ الدماءَ وكَرَّ كَرَّ هَصُور

بادرْ بِنا نغزو العدوّ وسارِعَنْ
فى حَسْمِ شوكتِهم وفى التّدمير

وأْمُرْ جيوشَك بالتأهبِ للعدى
والحَزم حرِّض عزمَهم لنَفير

أقصد بلاد الكفر شتّتْ شملَها
خرّبْ بها ماكان من مَعْمُور

مزّقهم ايدى سبا حتى يُرَوْا
قدْ حيلَ بين صغيرِهم وكبير

واسبِ الذرارى والحريمَ وعَجِّلَنْ
للنّار كل مقاتلٍ بفُجُور

اقتلهمْ قتلاً ذريعاً واتركَنْ
أشلاءَهم نتناً لِطُعْمِ نُسُور (١)

ويتفاءل "محمد بن يوسف" بعقد راية الجهاد لاسترداد وهران ، ويتصور الجيش ، فالمؤمل أن يكون من كل ضرغام حذق الحرب وجربها ، يحزن العدوُّ من رؤياه ، النصر حليفه أنى كان .

فى عسكرٍ مِنْ حزبه ذى نجدةٍ — فى المعضلاتِ بِهِم يعز ويهتدى
مِن كلِّ ضرغامٍ بصيرٍ بالوَغى — وَجهُ العدو اذا رآه توجدا
والنصر مكتوبٌ على راياتِهم — نصرٌ مِن اللهِ الكريمِ على العدى (٢)

ويصف "أبو عبد الله محمد حفيد المهدى الجزائرى" الجيش الإسلامى المجاهد بأنه امتطى ظهور الخيل ، وتقلد

(١) التحفة ص ٢٠٧-٢٠٨ .
(٢) نفسه ص ١٧٩ .

السيوف ، إيذانا ببيع النفوس خالصة لله ، وعندما حمل على العدو أضحى مابين قتيل يشحط فى دمه ، وأسير مكبل بالأغلال وآلى الأبطال أن يدكوا حصون عدوهم بكل وسيلة ممكنة ، حتى تم النصر للمسلمين ، وما النصر إلا من عند الله الذى قال : {وكان حقا علينا نصر المؤمنين} (١) .

وفرت البقية الباقية هائمة ، وتاهت المدينة فرحا بعودتها لحوزة الإسلام .

وتَأهبتْ فُرسانُنــا لقتالِهــم
والخيلُ ترفلُ بالسروج وتَمهلُ

ثم امتَطوا لظهورِها وتقلّدوا
بكواكبِ الأسيافِ مِمّــا يُحمَــل

من كُلِّ هنــدىٍّ كــأن وُقُوعَــهُ
نَجمٌ اغــارَ على الأبَالِسِ مُشْعَــل

باعوا النفوسَ بجنّةٍ من ربِّهم
أكرِمْ به بيعــاً وربحــاً يَحصُــل

وتصادفتْ حَملاتُهــم فكأنَّهــم
عِقبانُ جَوٍّ بالطَّرائــدِ أقبلــوا

من بينِ ذىقَتلٍ يُشَحّطُ فىالدِّما
بَطْشاً وذى أســرٍ بــهِ يُتعجَّــل

وتعلّقت ابطالنُــا بحماتِهِــمْ
تُبدى لَهُم حَرْباً أمَــرَّ وأهــولُ

والمَشْرفِيّةُ للرِّقَابِ قَواطــعٌ
وَمِنَ البنادقِ فى الصدُورِ تتوغّلُ

---

(١) سورة الروم : ٤٧

ولاهلِ حزبِ اللــه تَمَّتْ صَولــةٌ
وَبِعِزِّهِــمْ رَبُّ السمــا مُتَكَفِّــلُ

حتّى إذا مانُفِّذَ المقـدورُ فــى
حزبِ الشَّقاءِعلى الهزيمةِ عَوَّلُوا

وَلَّوا على الأدبارِ يَحْطِمُ بعضُهم
بعضاً كأنَّهمُ القطيـعُ المُهْمَــل

وتَهافَتَتْ ابطالُنــا بعزيمــةٍ
نحو المدينةِ واستبانَ المَدخـل

وَلَجُوا عليها كالصقورِ نَجابةً
والكافرونَ بكفرهــم قد أبْسَلوا

فتملّكوهــا عُنوةً وزهتْ بهــم
فرحاً وعادَلهــا الزمـــانُ الأوّل

هذا بفضل اللهِ نَرجو عاجــلاً
واللهُ يَقضى مايشـــاءُ ويَفعــل (١)

وأرى أن هــذه القصيـدة اقوى سبكا من القصائد السابقة مع ملاحظة إقوائه فى قوله "تبدى لهم حربا أمر وأهول" ، وهو مثـل سابقيه كان متفائلا بالنصر قبل وقوعه ، واستمد الفاظه من ثقافته القرآنية نحو قوله : "نجم أغار على أبالس مشعل" "باعوا النفوس" ، "ولأهل حزب الله" .

والفــأل مــن سيما الشخصية المسلمة ، والشعراء كانوا متفــائلين كمــا سـبق ـ وكمــا سيأتى ـ استنادا إلى إيمانهم القـوى بحقوقهم ، وواجب الجهاد لرد العدو بعد أن دهمهم فى أرضهــم ، وذلــك بعد امتلاكهم القوة التى هى مقوم من مقومات النصر بعد الاعتماد على الله .

(١) الســابق ص ٢٨٨-٢٨٩ ، حــرب الثلاثمائــة عام ص ٤٤١ ، مع اختلاف فى بعض الألفــاظ .

على أن الفأل فى هذه الآونة واظهاره أمام القائد وجنده وعرضه بهذا الزخم الإعلامى يعتبر عاملا قويا لتحميس الجيش للولوج فى المعركة ، لذا وجد الفال بالنصر عند بعض الشعراء إضافة إلى ماسبق وذلك نحو قول "أبى عبد الله محمد المستغانمى" : إن وهران فتحت أبوابها ، وجيش العدو بها أضحى هائما كالحمر ، إذ دب الرعب فى قلوبهم ، وأمطرت السماء عليهم شهبا وحجارة ، ويزجى البشارة للجيش الفاتح بالفوز بإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة .

أبوابُ وهرانَ قدْ ألقتْ قلائدَها
وقدْ غدا جيشُها كهائم الحُمُر

وأدخَلَ الرعْبَ فى قلب العُداةِ وقد
من السَّمَا مُطروا بالشُّهبِ والحَجَر

ياجيشُنا فأبشروا بالحُسنيين لكم
أجنّةَ الخلد أو فتحاً هنيئا مَرِى (١)

وينتظم هذا الشاعر النفر الذين أشار إليهم الباحث صدر هذا الفصل ، فهذا شعر ركيك ، بادى الضعف ، سقيم التراكيب ، معتل الوزن فى مواقع كثيرة ، وأعود فأكرر أن قيمة هذا الشعر تتجلى فى أنه وثيقة تاريخية ؛ تدل على الهوان والمهانة والضعف الذى نزل بالمسلمين فى هذا العصر ولذلك نم الشعر عن المستوى الذى أحاط بهم ، فلما تحركت الهمم بحركة الأحداث ، واستعادت تدريجيا شيئا من اليقظة طفقت تهب على الشعر من ذلك ريح القوة رويدا رويدا . أليس الشعر مرآة العصر قوة وضعفا ، وجمالا وقبحا ؟!

---

(١) التحفة ص ١٨٣ .

ويتطلع "أبو عبد الله محمد حفيد المهدي" إلى اليوم الذي تعود فيه تلك المدينة إلى رحاب الإسلام ، وينصر دين الله بعد خذلان الكفرة ، وتصبح "وهران" دار إقامة للصلوات والذكر وحلق العلم .

وَرَجَعْتَ لِلإسلامِ رَجْعَةَ مُشفِقٍ
لِلدِّينِ يَنْصُرُ والكوافِرِ تَخْذُلُ

حتى نَرَى وهرانَ دارَ إقامةِ الصـ
ـلواتِ يسبقها الأذانُ المُكمِلُ

ونرى بها القرآنَ يفشو درسُهُ
والعلمَ حلَّ بها فنعم المنزِلُ

ويبوءُ عبّادُ الصليبِ بحسْرةٍ
لديارِ كفرِهم الشنيعِ تزلزِلُ

والخيلُ تَمْرحُ في جوانبِ أرضِهم
طَوْراً وطَوْراً بالأسَارى تقفِلُ (١)

ويبلغ التفاؤل "بابن آقوجيل" مبلغه ، إذ يدعو "الداي أحمد باشا" إلى مايفعله بعد .

فاذا فَتَحْتَ وقد ظَفِرْتَ ببغيةٍ ... وقَفَلْتَ بعد سعيِك المَشْكورِ
وقَسَمْتَ ثمَّ مغانماً حِلّاً وقد ... سِيقَ الكُراعُ بمالِها الموفورِ
فارعَ الرَّعيةَ خيرَ راعٍ سُسْهُمُ ... بسياسة من عدلِك المَنْشورِ
شاوِرْ ذوي علمٍ ودينٍ ناصحٍ ... ودَعِ الغُواةَ وكلَّ ذي تزويرِ (٢)

والباحث يعجب من أن ينتهي الشاعر العربي في المغرب إلى هذه اللكنة والفهاهة حتى أنه لايكاد يستطيع الإعراب عما يخالجه ، فيم التمسك بالشعر إذن إذا كان لايستطيع أن يقيمه

(١) السابق ص ٢٨٧ ، حرب الثلاثمائة عام ص ٤٤١ .
(٢) التحفة ص ٢٠٨ .

أهي المجاراة ، والتمسك بتلابيب الشعر لأنه من أمة شاعرة ؟!

والشاعر على كل حال يحض الوالي بعد الظفر بالعدو ، على أن يعدل في قسمة المغانم ، وأن يسوس الرعية بالعدل أيضا ، وأن يقيم ملكه على الشورى ، لأن الاستبداد بالرأي لاريب يفضي إلى الهلكة .

وبعد أن استخلص المسلمون "وهران" من براثن المحتلين سجل هذا النفر من الشعراء فرحتهم على لوح التاريخ .

فيهنىء "محمد بن عبد الرحمن المغربي" مدينة "وهران" من يد العدو ، فأضحت منارة شكر لله ، بعد أن كانت معقلا للشرك ، ومقاما للتوحيد بعد التثليث ، وأذانا وذكرا لله بعد دق النواقيس .

وقلّ لوهران يهنيك افتكاكُ	وإنقاذٌ من الأسرِ الشّديد
لك البُشرى وللإسلامِ أُخرى	بمنعك من يدِ الكفر العَنيد
تذكّره حيثُ كنتَ مناخَ شرك	فعدْتَ مقامَ شكرٍ للحميد
وكنتَ مقامَ تثليثٍ فأضحى	يُقرّرُ فيك توحيدُ المجيد
وبدّلت النّواقسُ في الزّوايا	بآذانٍ وذكرٍ من مجيد (١)

ويذكر "محمد بن يوسف" عودة تلك المدينة لحوزة الإسلام وكيف أضحت مآذنها مدوية بالتهليل والحيعلة ، وانتشرت قراءة القرآن في أرجائها ، وفرجت الكروب بعد أن أصبح دين الله بها .

عادَتْ إلى الإسلامِ داراً مثلما	كانتْ وصارتْ ريحُها تتأرّجُ
أضحى مؤذنُها يحيعلُ تارةً	وبها يهلّلُ تارةً ويهزّجُ

---

(١) السابق ص ٢٦٠ .

وقراءةُ القرآن في أرجائِها　　منها نتائجُ الاستقامة تَنتج
والدينُ أصبحَ قيّما وكفى بها　　من نعمةٍ عنّا الكروبُ تفرّج (1)

وظاهر أن الشعراء قد اتفقوا في وصف ماحدث "الوهران" مما يدل على حقيقة ذلك ، ولكنه ينم من جهة أخرى على ضعف في القدرات الشعرية لديهم لعدم تميز شاعر عن "آخر .

وصف المعركة :

ما إن ذهبت الجيوش الإسلامية لاستعادة "وهران" وبدأت تتساقط حصونها أمام ضربات الجند حتى تم الاستيلاء على المدينة ، ورافق الشعر زحف أولئك المجاهدين وأشاد بهم ، وصور دورهم في المعارك ، وهزيمة خصومهم الأسبان وكان أحد أفراد المجاهدين "أبو عبد الله محمد بن يوسف" ، فنظم قصيدة في ذلك الحدث العظيم باعتباره شاهد عيان ، وصف فيها الجيش وقوته ، وقائده الهمام "أوزن حسن" ، إذ ما إن وصلوا إلى "وهران" حتى بدأوا بحصارها ، ورمتها المَدافع بكل قواها ، وأذاقوا العدو مرارة الموت ، وتوالى سقوط حصونهم وباءوا بالهوان والخذلان ، وجندلوا في ميدان المعركة ، وأتى الناجون يبكون حظهم العاثر .

جهّزت حقاً للجهادِ عَساكِرًا
كَرْبُ الورى بقدومِهم يتفرّج

من كلِّ ضِرْغامٍ بصيرٍ بالوغى
نارُ الحروبِ بعزمِهم تتأجج

كم قاتلوا الأبطالَ يوم المُلْتَقى
حتّى محوْا داجِي الضّلالِ وفرّجوا

---

(1) السابق ص ٤١ - ٢٤٢ .

حيّاهم المولى بنصرٍ عندما
ركبوا المطايا للجهاد وأسرجوا

حسنٌ خليفتك الهمام يقودُهم
والعيسُ مابين الأكام تعجعج

حتى أتوا حقاً لوهرانَ التى
امواجُ بحرِ ظِلالهم تتموّج

نزلوا بها وبحيّها قد خيّموا
والخيلُ تسعى والجيادُ تخزلج

قدْ حاصَروا أهلَ الضلالِ لياليا
فيها والسنةُ العدى تتلجّلج

فرّت جيوشُ المشركين أمامَهم
لمّا رأوا برّقَ الهدى يتفرّج

ورماهمُ أهلُ الهُدى بصواعق
فتخرّموا فيها ومنها أخرجُوا

وسقوهم كأسَ المنايا والرّدى
كاساً بها سُمُّ الأراقم يمزَج

فاستفتحوا منها الحصُونَ بعزمِهم
ومن المدينةِ للحصُون عرّجوا

دارتْ على أهلِ الضّلال دوائرٌ
شتّى وهمّ قط لايتفرّج

ضُرِبَت ببارقةِ السّيوفِ رقابُهم
والرّمحُ فيهم والأسنّةُ تولَج

جعلوا لنا فيئاً وردّوا كيدَهم
واللّهُ شتّتَ شملَهم فتدحرجوا

بالذلّ باءوا والهزيمةِ عندما
حمى الوطيسُ ونارُه تتأجّج

لم يَبْقَ من أهلِ الضّلالةِ مُشْرِكٌ
إلا أتى مما أَصابَهُ يَنشجُ

قدجدّلوا طعناً وضرباً إذ جنّوا
يومَ اللّقاء صحيحَهم والمُخْرجُ (١)

وميزة القصيدة أن قائلها عاش المعركة بنفسه ، فصور لنا ما رآه ، ولكن لشح موهبته وعدم تمكنه من اللغة أتت تراكيبه وأخيلته متهافتة ، ومع ذلك فالتسلسل الموضوعى داخل القصيدة متناسق إلى حد ما ، وانتقاله من حدث إلى حدث آت بعده ، وتصوير حركة الجيش أولا بأول مما يحمد له .

ويثنى "محمد عبد الرحمن المغربى" على الجيش لإنقاذه "وهران" فلقد دب الرعب فى جنود العدو فولوا هاربين متخذين الليل ستارا ، واتجهوا صوب "مرسى الثغر" ظنا منهم أنه سيحميهم ، وأنى يكون ذلك وقد أحاطت بهم النيران برا وبحرا وتساقطت حصونهم ، وهدمت معاقلهم ، وإن حاولوا الفرار فإننا سنتعقبهم أنى ذهبوا .

جزى جيشَ الجزائر كلَّ خير
إلهُ الخلقِ ذو المُلك العَتيد

همُ المستنقذوك وقد أحاطَتْ
بك الأعداء تطمعُ فى المَزيد

وها أنتَ المُجارُ فلستَ تخشى
عداةَ الدِّين إخوانَ القُرُود

فقد ذَهَبوا ومايرجُون عَوْداً
إليك فعشْ هنيئا فى خُلُود

---

(١) التحفة ص ٢٤٠-٢٤٢ ، حرب الثلاثمائة عام ص ٤٦٧ .

وكيفَ وقدْ غدَوا والرعبُ يجرى
بهمْ بينَ الطّريدةِ والطّريد

ولولا اللّيلُ جنّهم لأضحَوا
نهاراً فى مُغلْغلةِ القيُود

ولولا انّهم شَرَدوا بليلٍ
لكان القتلُ اجدرَ بالشّريد

وقد ظنّوا بأنّ لهم نجاةً
بمَرْسى الثّغر من بعد الشّرُود

وهيهاتَ النجاةُ لمن أحاطَتْ
به نارٌ وبحرٌ فى صعيد

ولو أغنَى التحصّنُ عن قتيلٍ
وحالَ السّورُ من قَدَرِ المُريد

كما فُتِحَت بروجُهم وهُدّت
معاقلُهم بصاعقةِ الرّعُود

ولو عقِلوا لما جاءوا لشيءٍ
سوى دين التحيّةِ والسّجُود

وإنْ لم يسجدوا للهِ طوعًا
لقد سجدوا بمُمْلِكَةَ الهُنُود

وإنْ فَرّوا ستدركُهم قريباً
باندلسٍ جنودٌ من أُسود

أسودٌ غابُها السُّمرُ العوالى
وموردُها دماءُ ذوي الجُحُود

إذا غرَسُوا الرّماحَ جَنَوْا سريعًا
ثمارَ النّصرِ من وَرَقِ الحديد (١)

---

(١) السابق ص ٢٦٠-٢٦١،٢٦٦ .

وينشد "عبد الرحمن الجامعي"[1] قصيدة اشاد فيها ببطولة الجيش ، فبه عز الإسلام لأن الجهاد شغله الشاغل ، خرب قلاع الصليب ، واسترد الثغور من يده ، وأبدل الله بهم اليسر بعد العسر .

سلامٌ على الجُندِ المُؤيَّد بالنَّصر
ضَراغمُ خلْقِ اللّهِ فى البَرِّ والبَحر
جيوشٌ بها الإسلامُ عَزَّ مَنالُهُ
فأَصْبحَ دينُ اللّهِ مُبتَسمَ الثَّغرِ
فما شُغلُهُم إلّا الجهادُ جزاهُمُ
إلهُ الورى خيراً يفوقُ على الحصر
همُ منعوا الإسلامَ من كلِّ صائلٍ
هم قَصَموا الأعداءَ بالبِيضِ والسُّمْر
هم خرَّبوا دارَ الصّليبِ ومزّقوا
لحومَ العدى للوحشِ والطّيرِ والقَفْر
وأحيَوْا رسومَ الدّينِ بعدَ انْدِراسِها
وغاروا على الدّينِ القويم من الكفر
ففكّوا ثغوراً طالما لعِبتْ بها
يدُ الشِّركِ فى الإسرار قصداً وفى الجهْر
وأبدَلَ بعد العُسر يُسراً وأصبحت
دُمَى الكفرِ فى حَصْرٍ وعُسْرٍ وفى خُسْرٍ[2]

ونلحظ أن الأوصاف التى أطلقها على الجيش مناسبة ، وإن كان التعمل واضحا فى القصيدة برمتها بدءا من التراكيب الجاهزة المستمدة من الذاكرة : مبتسم الثغر ، يفوق على

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الله الجامعي الفاسي ، نشأ بفاس ثم رحل الى الجزائر ، من كبار متأدبي عصره ، له شعر كثير فى "التحفة" فى مدح "محمد بكداش" .
انظر : التحفة المرضية .
(٢) التحفة المرضية ص ٢٨٣ ، حرب الثلاثمائة عام ص ٤٦٨ .

الحصر ، وانتهاء بالمقابلة بين عدد من الألفاظ : البر والبحر ، الإسرار والجهر ، اليسر والعسر .

وينظم "محمد أحمد الحلفاوي"(١) أرجوزة طويلة وصف فيها الجيش واستعداده بآلات الحرب من مدافع وبارود ، وكيفية استجابة الناس للجهاد ، حتى طلبة العلم حفزهم داعي الجهاد فلبوا نداءه .

ثم وصف محاصرة الجيش للحصون ، ونصبهم المدافع حولها وأرسلوا منها صواعق على العدو ، حتى تناثرت قلاعه ، وتتبعوه في تحميناته من مكان إلى آخر ، حتى تم الاستيلاء على المدينة وطرد الأسبان منها .

فجهّزَ جيشاً حمى الدّين فَساد ... إذْ طهّرتْ به بقاعٌ من فساد
فنهضوا للّهِ حزماً وأعدّ ... معهمُ آلاتُ حَرْبٍ لاتُعدّ
من نحوِ بارودٍ وكمْ من مُدْفعٍ ... ومنجنيقٍ مالَهُ من مدْفعِ
مُؤمّرٌ صِهرَهُ "أوْزنْ حَسَنا" ... قَرْماً رِضىً فسارَ سيراً حَسَنا
والحازمَ العارفَ "باي مُصْطَفى" ... وهومن الأقْيالِ "قايق"(٢) مُصطفى
ثمّتَ نادي بالجهادِ في الأفاق ... فاعْزَمْ الحازمَ والغُفْلَ أفاق
فسارَعَ النّاسُ له إذْ طَلَبَه ... لاسيّما جماعةٌ من طَلَبه
فَنَزَلوا الأوّلَ من ربيع ... النّبوي مُنْسلخ الرّبيع
في عسكرٍ بُيوتُه عدَّ مَقرْ ... وتركوا الأثقالَ فِيهِ في مَقرْ
وقصدوا حصونَها من كلِّ شَقّ ... بَزَمَن تاريخُه "يهدّ شَقْ"
فأجمعَ الجيشَ بذاك الثّغرِ ... جمعاً كبُنيانٍ رَسَى أو ثغْر
فحاصروا البلادَ والأبراجا ... مُراصِدين حولَها منْ راجا
فضيّقوا ماكانَ منها واسعا ... إذ رامَ كلُّ كلَّ حصنٍ وسَعى
ونُصِبت من حولها مَدافع ... للرّمى كلُّ أسَد مُدافع
ومُرْعدات كورُها في الجوّ ... كَنَجْمِ رَجْمٍ مِنْ سماءٍ يهْوى

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الحلفاوي ، كان مفتيا واعظا فقيها ، اشتهر بهذه الأرجوزة التى شرحها عبد الرحمن الجامعي . انظر : التحفة .

(٢) كلمة تركية معناها: كبير العصافير

تلمحُ من خلالهـا البَـوارقْ ووقعُها أمضى من الصّواعِق

فنَشَروا مانَظَموا من عِقدِها ونَقَضوا ما أبرموا من عقدِها (١)

الحث على الجهاد واسترداد العرائش وطنجة

والشوق لاستعادة سبتة والأندلس :

إن حرب الجهاد التى كرس الشعراء لها أشعارهم لم تصرف قلوبهم عن «الأندلس»، ومازال الإحساس بجرحها غائرا يحرك وجداناتهم ، ودموع الأسى مازالت تتدفق من مآقيهم ، برغم خروج المسلمين منها .

لذلك انطلقت صيحات بعض الشعراء فى هذه الحقبة التاريخية للقيام بأمر الجهاد ، وحث الشعب المغربى لاستعادة تلك البلاد المسلوبة .

فهذا "اليوسى" (٢) يرغب فى الجهاد ، ويمتدح كل مقاتل فى سبيل الله مجاهد لأعدائه همه اعزاز دينه ، امتثالا لأمره سبحانه ، راجيا ثوابه ، ثم يصور يقظة ذلك المجاهد ودوره ، فهو يغضب لله ، تراه كالأسد الهصور فى الحرب ، غاديا على جواده كالسرحان فى سرعته وهجومه ، وفى حالة الرمى تخاله هزبرا ذائدا عن أشباله ، وأحيانا يحرض المؤمنين ويراقب عدوهم .

ثم يرغب فى الجهاد ، ويدعو إلى قتال عباد الصليب ، ويحث الناس على السير مثلما سار الأوائل فى جهادهم للكفار

---

(١) التحفة ص ٢٥٢-٢٥٤ ، وانظرها هنا بتمامها .

(٢) أبو على الحسن بن مسعود بن على اليوسى ، ولد سنة ١٠٤٠هـ ، جال بلاد المغرب عالما ومتعلما ، وزار مصر والحجاز ، له مؤلفات منها : المحاضرات فى الأدب واللغة ، وديوان شعر ، توفى سنة ١١٠٢هـ .
انظر : مقدمة المحاضرات ، الأدب المغربى .

وينطلق صوته مناديا سلالة الأندلسيين النازحين مستفهما والحسرة تملأ فؤاده "ألم تستخرجوا من أرضكم" ؟

فهلا اجتمعتم لقتال العدو مثل اجتماعه عليكم ؟ ولايخفى مافي هذا من دعوة معاصريه إلى نبذ الفرقة ، ومالها من عواقب وخيمة ، ثم إن تأكيده بأنهم أحفاد الأندلسيين أدعى لجيشان النفس واستثارتها لدرء الخطر الداهم ، واسترداد الأرض المتغلب عليها .

طوبى لعبدٍ خاشعٍ لقلبُه
في طاعةِ المولى وفيها يَدْأَبُ
ويُجاهدُ الكفّارَ لامُسْتجلِباً
فخراً ولا المَطَامعَ يطّلبُ
بلّ يبتغي إعزازَ دينِ محمدٍ
خيرُ الورى الهادي الشفيعُ الأقربُ
ويقومُ ممتثلاً لأمرِ اللّهِ في
أمرِ الجهاد وفي رضاه يرْغبُ
وثوابه يرجو ونيلُ شهادةٍ
يعلو بها يومَ الحساب ويَقْرب
فيكونَ أغضبَ مايكونُ إذا لُقِي
وأشدّ مايلقى إذا مايغضب
وتراهُ كالأسدِ الهصورَ إذا التظتْ
حربٌ يصولُ على العِداةِ ويجدب
يغدو به طوراً جوادٌ سابحٌ
في الخيل كالسِّرحان حين يُقرِّب
وتراه طوراً في الرِّماة كأنّهُ
من دون أشبالٍ هِزبرٌ مِحْرَبُ

وتراهُ أحياناً بأعلى مرْقب
للمؤمنين يحوطهم أو يرقُب
إنّ الجهادَ لخصلةٌ محمودةٌ
في الدين منصِبُها لعمري منصب
فهو الجديرُ بأنْ يرامَ سبيلُه
وأجلُّ مايُدعى إليه ويُندب
وأجلُّ مابذلَتْ نفوسُ ذوي العلا
فيه وأولى ماإليه تتعب
ياأمةَ المختار أحمدَ شمّروا
لقتالِ من هو بالنّبي مُكذّب
لقتالِ عبّادِ الصليب وعصبةٍ
عن كلِّ خيرهم قديماً غُيّبُ
واجروا كما جرتْ الأوائل منكم
أهلُ البصائرِ والليوثُ الغيبُ
ياأهلَ أندلسٍ ألم تُستخرجوا
من أرضِكم وديارِكم أوتنكبوا
هلّا انتصرتم مثلما انتصرَ العدا
هلا تحزّبتم غداةَ تحزّبوا
هلّا جعلتم في نحورهمُ القَنا
ودعوتم ربَّ العبادِ لتغلبوا
أين الشجاعةُ والحفاظُ وأنتمُ
عربٌ وللعُرْب الحفائظ تُنسبُ (١)

ولاشك أن الفكرة التي بنى عليها الشاعر قصيدته تعتبر قيمة وذات غايات بعيدة ، إلا أنه لم يملك القدرة الشعرية

(١) الأدب المغربي ص ٤٣١ .

التى تصل إلى مستوى الفكرة إذ كان أقرب إلى الوعظ فى تناوله لها .

وتعداده لدور المجاهد وتتبعه لوظيفته فى المعركة يعد أمرا حسنا فى حد ذاته ، ولو أضفى على تلك الصورة من مخيلته لكان أولى من تلك السطحية ، ثم إنه كرر لفظة "يقرب" مرتين ومشتقها "الأقرب" فى ثنايا القصيدة برغم عدم طولها مما يدل على ضحالة ملكته اللغوية .

وأدوات الاستفهام فى آخر القصيدة تعد ميدانا لإطلاق خياله فى الأسباب التى أدت إلى سقوط الأندلس وضياعها ، وكذا الدعوة إلى استعادتها ، ولكنه ابتسر القضية .

والشاعر بقصيدته فى هذا الوقت يضرب فى عمق التاريخ إذ تستعيد الذاكرة دور العالم المجاهد "عبد الله بن المبارك" فى قصيدته المشهورة فى فضل الجهاد ، والتى جاءت قصيدة شاعرنا حاذية حذوها وزنا ومعنى (١) .

والخيل فى قوله :

يغدو به طورا جوادا سابحا

الخيل كالسرحان حين يقرب

هى قريبة من صورة خيل امرىء القيس فى قوله :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة

وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (٤)

ونلقى "ابن زاكور" (٢) يستحث الشعب على الجهاد ويشكو

---

(١) انظر : ديوان الامام عبد الله بن المبارك ص ٤٠ ، ط/دار الوفاء للطباعة ، جمع د. مجاهد مصطفى بهجت .

(٢) أبو عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور الفاسى ، ولد سنة ١٠٧٦هـ ، من كبار أدباء عصره تخرج على يديه كثير من المتأدبين ، له مؤلفات مخطوطة منها : عنوان النفاسة فى شرح ديوان الحماسة ، وديوان شعر "الروض الأريض" وغيرهما .
انظر : الأدب المغربى .

ماحل بالأندلس "وسبتة" من النصارى ، ويهيب بالمسلمين أن يغاروا على دينهم ، ويطهروا أرضهم من دنس الشرك .

والبحرُ ممّا الصَّفا أبدى ضمائرَه
والبرجُ ممَّا علا يكشفُ ماخلفَه

ولاحت الشمّ من أطوادِ أندلسٍ
تشكو ذُراها النَّصارى وهيَ فيْ لهفة

وقد بَدَتْ سبتةٌ منهُ مناديةً
يا أهلَ دينِ الهدى هل عندكم عُطفة

هل عزمةٌ تَذَرُ الصّليبَ مُنْكسراً
حتّى يظلَّ الرّشادُ لامحاً عِطفَهْ

هل غيرةٌ تقتضي ظهري من
الشرك بمطلق دين الملة الصِّرفه (١)

وعبارة الشاعر لاتخلو من تعقيد يبهم المعنى الذى فى نفسه مما يدل على عيه وضعف ملكته ، مع إخلال بالوزن .

ولمّا استرجع المغرب مدينة "طنجة" من يد الإنجليز عام ١٠٩٥هـ فرح هذا الشاعر لذلك الحدث ، وقال إن الإسلام علا لما تضعضع الكفر ونادى منادى المسلمين بعودة تلك المدينة ، ثم يصف قوة الجيش وهمته ورغبته فى الحرب ، ورهبة العدو منه .

سَمَتْ ملّةُ الإسلامِ لمّا تضعضعَتْ
معاقلُ كفرٍ بالصّواعقِ والصِّفاح

وجاشَتْ جيوشٌ من أباطحِ طَنْجةٍ
ونادى مناديْ الجيش حيَّ على الفلاح

لقدَ أصبحَ الإسلامُ باليُمنِ مُسفراً
بقومٍ حماةٍ بل كُفاةٍ لدى الكفاح

---

(١) الأدب المغربي ص ٤٥٨ .

لهم همّةٌ فى الضَّربِ والطّعن بالقنا
لهم رغبةٌ فىالحرب إنْ قعقع السّلاح
لهم رهبةٌ فى الحربِ والحزمُ دابُهم
ليوثٌ لهم فخرٌ سراةٌ لهم صباحُ (١)

ويسترد المسلمون مدينة "العرائش" من يد الأسبان سنة ١١٠١هـ فيقول "الرافعي" (٢):

إن الأسبان عندما احتلوا تلك المدينة بنوا التحصينات حولها اتقاء لهجمات المسلمين ، ولكن لم تغن عنهم شيئا ، إذ مال عليها المسلمون ميلة واحدة فولى العدو مذعورا حائرا من هول مارآى .

بدارِ العرائش قدْ أحْدقوا ... وخدّوا خدوداً بها مُعلنين
وشبّوا لها النّارَ فى قعْرِها ... فكانت وبالاً على المُجرمين
ومالتْ عليهم أسودُ الوغى ... فغاروا وحلّوا بها مُسرعين
وإنّ النّصارى لفى حيرةٍ ... وخزيٍ عَرَاهم وهمْ دَاهِشين
فلم تُغنِ عنهم معاقلُهم ... من الأمرِ شيئاً لدى المسلمين
وأعطوا نفوسَهمُ كلَّهم ... أسارى لحزبِ الهدى المفلحين (٣)

ويقول فى ذلك "أبو محمد عبد الواحد البوعنانى" (٤) :

يبدأ القصيدة بتهنئة "الشريف" (٥) ، ويمدحه بذلك النصر الذى حققه إذ حمى بيضة الإسلام بجهاده ، وتسييره السفن للحرب ، واسترداد العرائش وقهر العدو بها فاضحوا مابين قتيل وجريح وأسير ، وتمر الطير والذئاب فتنتقى أطايبهم

---

(١) السابق ص ٤٣٠ .
(٢) لم أعثر على ترجمته
(٣) نفسه ص ٤٣٠ . (٤) لم أعثر على ترجمته
(٥) اسماعيل بن الشريف ولى المغرب سنة ١٠٨٢هـ ، وفرق الملك على أولاده سنة ١١٢١هـ ، كانت بينه وبين والى الجزائر العثمانى صداقة ومودة .
انظر : الاستقصا ٣/

لحما ، والمسلمون فى فرح ونشوة بذلك النصر :

ألا أبشر فهذا الفتحُ نورُ	قد انتظَمَتْ بعزِّكم الأمورُ
وطيرُ السَّعد نادى حيثُ غنّى	قد انشَرَحَتْ بحقِّكم الصّدورُ
وضوءُ النَّصرِ ساعدَهُ التّهانى	ونورُ الفخرِ نحوكم يدورُ
وقد وافتْكم الخيراتُ طُراً	وطابَ العيشُ واتصلَ السّرور
حميْتم بيضةَ الإسلامَ لمّا	بعينِ الحقِّ قد حُرِس الثّغور
وجاهدْتم وقاتلْتُم فأنتم	لدينِ اللّهِ أقمارٌ تُنير
وأطلعْتم صوارمَكم نجوماً	لدى هيجاء صاحبُها كفور
وفى ثغر "العرائش"قد تبدّى	لقدرِكمُ على الشِّعرى الظهور
ملكْتَ قيادَ عزّتها بذلٍّ	فما أغنى الحصارُ ولا العُبور
قهرْتَهمُ بأبطالٍ ضخامٍ	على الهيجاءِ كلّهم جَسورُ
فكم رأسٍ من الكفّارِ أمسى	قطيعَ الرّأسِ مجروراً يخورُ
وكم نحرٍ قلادتُه رِماحٌ	وسنُّ الرمحِ مركزُه النحور
وكم أسرى وكم قتلى بأرضٍ	وكمْ جرحى دماؤهم تَغُور
تمرُّ بها الطّيورُ فتنتقيها	وبات الذئبُ وهو لها شَكور
وأضحى الناسُ كلُّهم نشاوى	على طَرَبٍ وماشربَت خُمور

وواضح أنَّ الشاعر بدأ فى موضوعه مباشرة إذ المدح هنا يتصل اتصالا مباشرا بموضوع الحرب ، وعمد إلى بعض التركيبات المجازية المناسبة ، "طير السعد" ، "وضوء النصر" ، "ونور الفجر" .

والصورة فى قوله : "وكم نحر ..." مناسبة لموضوع الحرب ، على أنه أخل بالوزن فى قوله "بعين الحق حرس الثغور" ، وأكثر من بعض الروابط بين الجمل كـ "قد" فى أربعة أبيات متتالية مما يشى بالضعف فى اللغة والتراكيب الشعرية ، وتكراره "الكم" فى قوله :

وكم أسرى وكم قتلى بأرض	وكم جرحى دماؤهم تغور

قلل من قيمة البيت فنيا برغم إرادة التكثير .

ويبشر أهل "سبتة" بالنصر والإنقاذ ، ويردف القول محرضا الأمير على استعادتها ، وكذا أختها "وهران" ويستفهم على لسانها "متى يأتى الإمام" ؟ وينادى الأمير ويحثه على استرداد "الأندلس" ، ويطالب بجهاد العدو بها ويجب ألا تحول الحوائل دونها ، وفى هذا إشارة إلى من يثبط العزيمة ويهول استردادها ، ويختم القصيدة بالدعاء للأمير لأعماله تلك .

ألا يا أهلَ "سبتةَ" قد أتاكم	بسيفِ اللّه سلطانٌ وقور
إذا ماجاء "سبتةَ" فى عشىٍّ	تناديه إذا كان البُكُور
"ووهرانٌ" تنادى كلَّ يوم	متى يأتى الإمامُ متى يزور
متى يأتى ويفتحُها سريعاً	ويلحق أهلَها منه ثبُور
أياَمولاى قم وانهض وشمِّر	لأندلسٍ فانت لها الأمير
وجاهدْهمْ وحاربْهمْ وفرِّق	جموعَهمُ فربُّكم النصير
ولايمنعْ بفضلِ اللّه منها	كما قد قيل بَرٌّ أو بحور
لسان الحالِ يُنشِدُ كلَّ يوم	ومعنى الحال تفهمُه الصُّدور
بقرطبةٍ تنالُ المجدَ طُرّا	ويأتى العزُّ والملكُ الكبير
أيامولاىَ اسماعيلُ هذا	عُبيْدُكم الضّعيفُ المستجير
يناديكم يناديكم ويدعو	دعاءً لاتعيِّبهُ الدّهور
فياربَّ البريةِ ياإلهى	ويارحمان يانعمَ المجير
اثبْ هذا الأميرَ بكلِّ خيرٍ	ولاتجعلْ تجارتَه تبور (١)

والشاعر فى هذه المقاطع عمد إلى النداء كثيرا مع بداية كل مقطع وهو أمر محمود لأن الموقف يستدعى ذلك ، وإن كان بعضها ركيكا ، كما فى قوله : "فيارب البرية ..." ، "دعاء لاتعيبه الدهور" .

---

(١) الاستقصا ٣٥/٤ .

واستخدم افعال الأمر متتالية فى الحث ولافرق يذكر فى معناها ، قم وانهض وشمر ، جاهدهم ...

ويقول فى ذلك الحدث الفقيه "أبو محمد عبد السلام بن حمدون جسوس"(١) إن "سبتة ، وبادس ، وبريجة " يشكين ماحل بهن على يد العدو ، ويدعو الأمير «الهاشمى» أن يقضى حقهن بعد أن طهر "طنجة والعرائش" .

ومن العار أن تظل "سبتة" أسيرة ، فلابد من فك أسرها والثأر لها .

وينبه إلى ترك آراء المثبطين عن استردادها ، ويذكر أن الأولى سبقوا جادوا بأموالهم وأنفسهم فدانت لهم ، ويحرض على إرسال الجند ومدهم بالمؤن لإعادتها وقطع دار الكفر بها .

ويؤكد أن استئصال شأفة العدو بالمغرب ، سيرفع من شأن البلاد ، ثم يختم القصيدة بالدعاء للأمير أن يبقيه الله ذخرا للخلافة .

رَفَعَت منازلُ "سبتةٍ" أقوالَها — تشكو إليكم بالذى قدْ هالَها
مع "باديسٍ وبُريجةٍ" فتعطّفوا — وتنبّهوا كى تسمعوا تَسآلها
يابن النّبي الهاشمي محمدٍ — قلْ يا أميرَ المؤمنين أنالها
فلقدْ قضيتُم للعرائشِ حاجةً — مع طنجةٍ فاقفوا الذى آمالها
عارٌ عليكم أن تكونَ أسيرةً — بجواركم وجنودُكم تُغزى لها
إنْ لم تكونوا آخذين بثأرِها — من ذايفكَّ من الوَثاق حِبالَها
لاتسمعنّ من جاهلٍ ومُثبطٍ — ومُصعّب من جهلِهِ أحوالها

---

(١) أبو محمد عبد السلام بن حمدون جسوس ، كان ورعا تقيا ، عمل قاضيا لفاس ، وامتحن فى عهد المولى اسماعيل فثبت ومن أجلها نهبت داره وممتلكاته ، قتل غدرا سنة ١١٢٠هـ .
انظر : الاستقصا ٤/

إنّ الذين تقدّموا قد جاهدوا   بنفوسهم وبمالهم أمثالَها
فتملّكوا أملاكها وديارَها   وتقسّموا أموالَها ورجالَها
فابعثْ لها أهلَ الشجاعة عاجلاً   حتّى تراهم نازلين جبالُها
وامددهمُ بمؤنةٍ ومعونةٍ   كيما تقطّع بالعدى أوصالَها
وارفعْ لهذا الغربِ رأساً إنّه
في الضّعف مادامَ العدى أنزالَها
أبقاكَ ربّي للخلافةِ عُدّةً   تقفو الشريعةَ مؤثراً أفعالها (١)

وشعر "ابن حمدون الفقيه" يشاكل غيره من شعر بعض الفقهاء الذى يعتمد فيه أصحابه سرد المعانى سردا ، يخلو من الانفعال والعواطف ، ويخلو من الخيال المؤثر ، الذى يبعث فى النفوس مشاعر حية ، ويهز أريحيتها .

أما هذا الشعر الذى معنا فهو شعر تسجيلى وثائقى ، أهم أغراضه أنه حفظ التاريخ على صورة من الصور ، ورسم لنا ماذا كان وراء الأحداث فى هذه الحقب الدامسة التى سقطت من كف الزمن فلم يبق بها إلا حوادث صماء ، تسرد سردا كأنها سلبت روحها !

---

(١) السابق ٣٦/٤ .

ملاقاة فرنسا في "حلق الوادي" : ١١٨١هـ

وفي الفترة الثانية يقدم اسطول فرنسي إلى "حلق الوادي" فيهب والي تونس "علي باشا الأول"(١) لحربه وطرده ، فيمدحه شاعران من تونس :

أحدهما : "ابراهيم الخراط"(٢) ، إذ يبدأ قصيدته مادحا الباشا وحاضا إياه على الجهاد ، مهددا الفرنسيين ، ويذكرهم بما حمل للصليبيين السابقين في دار "ابن لقمان" ، وأن "تونس" أعدت مثلها لهم ، ويؤكد أن حتفهم قد آن ، ويشبههم في حربهم بالفراش عندما يرى النار في الليل فتكون مقبرته .

لك العلمُ فاعزمْ غازياً واحسم الكُفْرا
وجاهدْ فدينُ اللّه يُهْدى لك النَّصرا

الا فاخبروا جمعَ الفرنسيسِ لمْ يروا
لدى مُلكِنا إلا البواترَ والسُّمرا

ودارُ ابن لقمانٍ لديْهم إنّني
أُعدت بمصرَ مثلها له بالخضرا

يمينا بديني يافرنسيسُ ما أتيـ
ـتم "تونسَ" إلا استتمَمْتُمُ العُمرا(٣)

---

(١) علي بن حسين بن علي أمير تونس ، عني بالحديث والفقه بويع سنة ١١٧٢هـ ، حارب الفرنسيين ، أمد السلطان "مصطفى خان" في إحدى حروبه مع روسيا ، عهد بإدارة البلاد إلى ابنه "حمود الثاني" بعد أن شاخ ، توفي سنة ١١٩٦هـ .
انظر : الأعلام ٤/

(٢) أبو اسحاق ابراهيم بن الشيخ أحمد الخراط الصفاقسي ، فتن من ممدوحه "علي باشا الثاني" بسبب وشاية أهل السوء ، شفع فيه أحد أمراء فاس ، توفي سنة ١٢٥١هـ .
انظر : عنوان الأريب ٢/

(٣) يعني أن أجلهم ينتهي بحلولهم في تونس ، لأن التونسيين سيقضون عليهم .

تهافتّم في حرِّ نيران حربنا
فكنتم فَراشاً من رأى قَبَرَه الجَمْرا
ألا فابْشروا مهما ظَمِئْتم نجيعُكم
بذا اليومِ لم تلقوا به أكؤساً حُمْرا
يصدّقُ فيكم قولَ شاعرِ مصرنا
فما أكثرَ القتلى وما أرخصَ الأسرى

ثم يلتفت إلى التونسيين حاثا إياهم على الجهاد في سبيل الله ، دفاعا عن الدين ، وينبه إلى خطر الفرنسيين الذين أتوا في غفلة الناس .

فيا أهلَ أفريّقيّةّ فارقوا الكَرَى
وقومُوا بحَزْمٍ واقطعوا عنْكم العُذرا
وأمُّوا عِداكم بالبِدارِ ودافعوا
عن الدّين تُطفئُوا ماعلى كبدى الحرّى
فحفّوا ثُغورا بالحراسةِ إنّنى
أرى الداءَ يَسْرى غفلةً والذى أسرى (١)

والركاكة والضعف في التراكيب والتعقيد في المعاني جلية في القصيدة ولكنها تعطينا صورة عن إحساس هذا الشاعر بالخطر الداهم وتحذير الناس منه .

وثانيهما : "خليفة بن القائد منصور" (٢) ، يهزه نفس الحدث فينشد قصيدة مادحا "على باشا الثاني" شادا من عزمه على حرب العدو ، معليا من شانه فهو أعلى من ان يطاوله عدو ويؤكد ولاء البلاد له .

---

(١) عنوان الأريب ٥٥،٥٤/٢ ، المطبعة التونسية سنة ١٣٥١هـ تأليف محمد النيفر .

(٢) خليفة بن القائد منصور المشرّق كان أبوه واليا على سوسة ، ولكنه أساء معاملة أهلها فعزل ، اتجه الابن لطلب العلم فبرز فيه ، كان حيا سنة ١١٨٠هـ .
انظر : عنوان الأريب ٢/

قاتلْ بسعدِك فالمعالي تُنجدُ ... واعزمْ فجدُّك لمْ يزلْ يتجددُ
فلأنتَ اعلى عزّة بلْ منعةً ... من أن تُجاريك العُداةُ الحُسّدُ
والحربُ أنت مجيلُها ومُديرُها ... والخلقُ تعلَمُ والوقائعُ تشهدُ
والأمرُ أمرُك والبلادُ بأسرِها ... طوعُ اليدين ومن عليها أعبُدُ

ثم يصف موقف الخيل عندما سمعت بالحرب وتوقها لها ، وكذا دورها في المعركة ، وأن الرماح سرّت من كثر ما ارتوت من الدماء ، ثم يصور دور القائد وذهابه بالجيش إلى "حلق الوادى" ، وغبار الجيش قد حجب ضوء النهار ، إذ "البيض تبرق والصواعق ترعد" ، مما أدى إلى فرار العدو من ميدان المعركة ثم رحيلهم بعد ذلك .

سمعت خيولُك بالحروب فهزّها
طربٌ وباتتْ للصّهيل تُردّد
ومدلّلٍ في الحربِ يلْقى سارحا
نَبَتَ الرؤوسُ ومن دِماها موردُ
نهدا إذا استنجدتَه في وقعةٍ
أعطاك عفوا صدره ماتقصِد
والسمهريةُ في سرورٍ خِلتَها
سُقيت طُلًى من كثْر ماتتأوّد
عودّتها في الحرب تترعُ أكؤساً
يَسْقى العداةَ به الغَمامُ الاسودُ
ولطالما اثمرتَها من هامِهم
إذ انتَ يُثمِرُ في يديك الأمْلَد
للّهِ يومُ اتيتَ"حلْقَ الوادى"في
فخرٍ أقرَّ له العدى والحُسّد
في جَحفلٍ سَتَرَ الضّحى بغبارِه
والبيضُ تَبْرُق والصواهل تُرعد

مـتوقدُ الـجنبـاتِ تلـتـاحُ الظّبــا
والسُّمرُ فيه لبعضها تتــأوّد

من كلِّ ملـتـثمٍ على بدر الدُّجى
يعدو الصّباحُ بنورِه يُستنجِد

فارتدّ سِرْبُ الكفر يبغى نفسَه
إذ حلّه الهمُّ المقيمُ المُقعِد

لو تعقلُ السّفنُ التى قابلْتها
نطقت محيِّيةً وخـرّت تسجـدُ (١)

---

(١) السابق ٥٦/٢ .

احتلال الجزائر :

كانت فرنسا تبيت النية لاحتلال الجزائر ، فتذرعت بحادثة القنصل الفرنسي "دُوفال" مع والي الجزائر "حسن باي" فجهزت جيشا للاستيلاء عليها .

وفعلا تم لها ذلك برغم المقاومة العنيفة من قبل الجزائريين ، وولاتها العثمانيين وانتهى الفرنسيون من احتلال الجزائر كاملة سنة ١٢٥٥هـ ، أى بعد قرابة تسع سنوات من غزوهم لها ، واستحالت حركة الجهاد بعد ذلك إلى حركة وطنية خالصة لاشأن للعثمانيين بها .(١)

وكان لذلك الاحتلال أثره في شعر بعض شعراء "تونس" إحساسا منهم بذلك الخطر عليهم ، فانبروا لبيان ذلك ورثاء الجزائر ، وحث الناس على الجهاد لاستردادها .

فهذا "أحمد القليبي"(٢) من "تونس" يعزى فى الجزائر ، ويعتبر أن من حقها أن ترثى ، وأن يلبس السواد وتحلق الغدائر حدادا من اجلها كناية عن عظم المصيبة .

عظَّمَ اللّهُ أجرَكم فى الجزائر ‏ ‏ ‏ وجزاكم برزِّئها أجْرَ صابر
فهو واللّهِ فى البلاد لحقٌ ‏ ‏ ‏ أن تُعَزَّى بها وتُبْكى الجزائر
وبحقٍ علينا لبسُ سوادٍ ‏ ‏ ‏ بعد وقعتها وحلقُ الغدائر

ثم نلفى الشاعر يتحدث عن الاحتلال ، ولماذا بدأ بالجزائر ، واستعدادهم لضربها ، والمسألة فى ذهنه لاتَعدو خلافا قديما بين المسلمين والروم ، وظل الصراع مستخفيا ثم استعلت بانقضاض "فرنسا" على "الجزائر" واحتلالها .

---

(١) انظر : تاريخ الدولة العلية ص ٤٤٧ ، التاريخ الإسلامى العهد العثمانى ٥٤٩/١ .
(٢) لم اعثر على ترجمته .

هذه الـرّومُ أقبلت تتعالى	وأرادتْ على الأنام التّظاهر
بدأتْ بالجزائرِ حين كانت	فى نحورِهم كنُبْلةٍ واتر
وأعدّوا لحربها ما استطاعوا	من خيولٍ وعُدّةٍ وعساكر
ورَموها برميةٍ فَصَموها	وعموها وما رأوا غيرُ دابر

وكان الشاعر متفائلا ومتوقعا ان الله سيقيض للجزائر من يثور على "فرنسا" (١) ، بعد أن أظهروا الكفر بها ، واستولوا على خزائنها .

دخلوها وملّكوها خداعا	ودنوّا من أميرِها دون زاجر
وتولّوا خِزانةً لوحوشها	يدُ "قارون" لم تزلّ تتفاخر
وأقاموا علامةَ الكفرِ فيها	وأطاعتهم أناسٌ فواجر
ومَحَوا حُسْنَها كأنْ لم تكنْ	فيها للّه قبلَ ذاك شعائر
قَدّر اللّهُ أن تعودَ لنقصٍ	بعد هذا التّمام واللّهُ قادر
فهى بعد علوّها فى انخفاض	وهى بعد شبابها فى الغوابر
إنّ تعيشوا من بعدها سترونَ	مابه تَحسُدون أهلَ المقابر
ذلّةٌ وإهانةٌ وعَنَاءٌ	وتفاهمْ بمسلمٍ طوع كافر
وتقولون إنّ فشلتم فسوف	يأتى الله عقبى ذاك بثائر
فنعِمّ إن بلغتم ماسألتم	بعد أن تبلغَ القلوبُ الحناجر

والشاعر هنا فى منتهى اليقظة للدمار الذى لحق بها ، فهو يعرضها بمعانيها الحسية ، ويستثير النخوة والحماسة ، فالفرنسيون أتوا على مافى خزائنها فجعلوها خاوية ، ووسموا كل شىء فيها بسمة الصليب ، وللأسف وجدوا من أهل البلاد من مالأهم ، ومشى فى ركبهم .

والشاعر يتوقع وهذا حال الغزاة من الجبر والقهر والإذلال ان يبلغ الهوان بالجزائريين مبلغا يحسدون معه أهل

---

(١) انظر : الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص ٦٠ ، ط/الوحدة للنشر والتوزيع ، والدار التونسية للنشر ، د. الهادى حموده الغزى .

القبور ، ثم يتندّر بقومه الذين ينتظرون ظهور ثائر من بينهم ينقذهم ، ويخلصهم مما هم فيه ، لكنهم لن يبلغوا هذا إلا بعد أن تبلغ القلوب الحناجر .

فالمعاني كما تبدو حسنة ، لكنها صيغت صياغة رديئة متهافتة أفسدت حسنها ، وضيعت تأثيرها في النفوس ، وتأمل قوله :

إنْ تعيشوا من بعدها سترو ن مابه تحسدون أهل المقابر
ذلـة وإهـانـة وعنـاء وتفاهم بمسلم طوع كافر

فالألفاظ المكتوبة لاتؤدى مايعنيه الشاعر إلا مع تسامح شديد ، ومرة أخرى فهذا الخور فى المعانى وفى صور الأداء يعكس خور الأرواح ، ويقدم الدليل على الضعف العام الذى أطمع فيهم عدوهم .

ونرى الشاعر بعد ذلك يهيب بالجزائريين بل بالمغاربة والمسلمين جميعا أن يعملوا الحزم ، وأن يستقيموا على طريقة حق ، وأن ينبذوا خلافاتهم وراء ظهورهم ، لأن البلاء عظيم لايدفع إلا بالوحدة والاعتصام بحبل الله ، ثم ينعى على الخلافة العثمانية وعلى بعض رجالاتها تهاونهم وتقاعسهم عن نصرة "الجزائر" فيقول :(١)

هو ذا الموتُ والبلاءُ عظيمٌ
والمصابُ الذى يُضيقُ الخواطر
فاعْمَلوا الحزمَ ما استطعتم إنّ
هذا الزمانَ بالناسِ غادر
واستقيموا على طريقةِ حقٍ
واتفاقٍ ونظّموا كالجواهر

---

(١) السابق ص ٦١ .

إنّها نارٌ فتنةٍ أوْقدوها
بيدي نَجْسٍ وسمّوه "طاهر"

كافرٌ فاجرٌ ظلومٌ خؤونٌ
عاضدٌ لأولي الضّلال وناصر

أضحكَ النّاسَ ساعةً ثم أبكى
مَنْ لهُ مقلةٌ بدمعٍ تحادر

وأبانَ الخداعَ في النّاس فهو
لم يزلْ ذاهباً بشرٍّ وآمر (١)

والشاعر لم يعد في هذه القصيدة أن يكون مسجلا للحدث حسب مفهومه ، دون أن يكون سابرا لغوره مدركا إدراكا عميقا لمراميه ، لذلك أتت أساليبه ضعيفة هشة في مجملها ، لاتحس فيها أن هذا شعرا إلا من خلال الوزن والقافية .

كما أنه يشير إشارة تاريخية إلى موقف الدولة العثمانية وتهاونها ، وإرسالها مندوبا وصفه بأنه "أضحك الناس ساعة ثم أبكى" مما لم تشر إليه المراجع التاريخية التي بين يدي .

وهذه القصيدة على مافيها تعد "مثالا حيا لانبعاث فن رثاء الممالك من جديد في تلك الفترة" (٢) .

ويصف "محمد الشاهد" (٣) من تونس حالة الجزائر على يد المستعمر الفرنسي وكيف عطلت المدارس ودور العلم .

أمن صولةِ الأعداءِ صولُ الجزائر
سرى فيك رعبٌ أم ركَنْتَ إلى الأسر

---

(١) السابق ص ٦٠-٦١ .
(٢) نفسه ص ٦١ .
(٣) لم أعثر على ترجمته .

لبِسْتَ سوادَ الحزنِ بعد مَسَرَّةٍ
وعمَّت بواديك الفتونُ بلا حَصْر

رفضْتَ بياضَ الحقِّ عنك فأصْبحت
نواحيك تشكو بالأمانِ إلى الجور

وعطِّل درسُ العلمِ والجهلُ عسعسُ
ونادى بتعطيلِ العلوم عن النَّشر

وناحَ على الأسوار طيرُ خرابها
فأصبحَ فأسُ الهدم ينبىء بالغدر

أُصبْتَ بسهمٍ عن عيونِ سهامهم
تزيدُعن المعيان بالشَّفع والوتر

وأظهرْتَ للأعداءِ وجْهَ ملاحةٍ
وأبرزْت للأحباب وجهاً من النُّكر

ثم نجده يبكيها بدمع غزير ، ويصف ماحل بها من دمار وتخريب ، وبأموالها من نهب ، وطال التخريب حتى الأشجار مما يدل على عنف الاستعمار ، ووعى الشاعر كسابقه بألوان الخسف والقهر التى مارسها الفرنسيون إبان احتلالهم للجزائر .

عليكِ لذا أجريْتُ نهرَ مدامعى
وفيك استحقَّ العقلُ المكراً بلا خُمُر

نقضتِ عهودًا بالوداد تقرَّرت
وواليتِ أقواماً تمالوا على ضُرِّ

فجاسُوا بُروجاً للحروب تشيدت
وداسُوا دياراً بالنَّواهى وبالأمر

ونالوا من الأموالِ يُسْراً وميسرا
وفازوا بهاوالقلبُ يُصْلىعلى جَمْر

ومن لطفِهِ أنَّ السيوف أتت لنا
وسلّت على الأشجار تقطع بالثَّمر

ويختم القصيدة ببيان حال أهلها عندما دهمهم الاستعمار إذ فارقوا ديارهم ، وباعوا أنفس مايملكون ، وهاموا على وجوههم في الصحاري ، ثم يبكي على لسان أهل "الجزائر" البلاد المضاعة ، ويتساءل سؤال المتحسر الحيران كيف يطيب العيش تحت كنف الكفار المستعمرين ، ويسلي نفسه مؤملا أن يبدل ذلك العسر بيسر بعده .

فضجت أناسٌ والعقول تولهت
وباتوا على مُرِّ الفراق بلا فِكر

فباعوا نفائِس المَتاع ببخسِها
وهاموا حَيَارَى في الفيافي وفي البحر

فآه على جهدٍ ومابهِ منعة
وآه على دارٍ يسودُ بها غيري

أموتُ وماتدري البواكي بقصّتي
وكيف يطيبُ العيشُ والأنسُ في الكفر

أياعينُ جودي بالدّموع سماحةً
وياحزنُ شيّد في الفؤادِ ولاتسرِ

ويادارُ تدبيرِ الأمورِ لحالتي
فصبراً عسى عسرٌ يبدلُ باليسر (١)

ولاشك أن الشاعر مثل سابقه في صدق عاطفته ، وبعد نظره في خطر المستعمر ، وتتبعه لأحوال الجزائر وماحل بها ، ولكن لم يكن شعره من الناحية الفنية على مستوى فكره ، وعمد إلى المحسنات اللفظية وخاصة الطباق فهو يعبر عن مستوى الشعر في عصره ، ولكنه يعطينا مثل سابقه دلالة على بداية يقظة أدبية وفكرية على وقع الخطر الداهم من أوربا على بلاد المسلمين .

---

(١) السابق ص ٦٢،٦١ .

الفصل الثاني

حرب طرابلس

١٣٢٩هـ/١٩١١م

(١) إضاءة حول الحرب .

(٢) الدعوة إلى الاتحاد .

(٣) الدعوة إلى الجهاد بالمال .

(٤) الدعوة إلى الجهاد بالنفس .

(٥) شوق بعض الشعراء للجهاد .

(٦) نصرانية المعركة .

(٧) وصف المعركة والجيش .

(٨) أنين الجريح .

(٩) البعثات الطبية .

(١٠) المعدات القتالية .

(١١) تفنيد دعوة السلم الأوربية .

إضاءة حول الحرب :

كانت هذه الحرب إحدى الخطط الأوربية للاستيلاء على البلاد الاسلامية ، إذ توزعت البلاد العثمانية في شمال افريقيا بين كل من "فرنسا" و"بريطانيا" ، فبقى نصيب "إيطاليا" التي كانت تطمح أيضا إلى إنشاء مستعمرات لها في افريقيا .

فأخذت الضوء الأخضر من فرنسا وبريطانيا في أن تستولى على "ليبيا" لقاء سكوتها عنهما فيما يملكان من بلدان عثمانية .

وكانت قد مهدت لخطتها تلك – شأنها شأن بقية المستعمرين – بأن تخنق البلد الذى تريده بقروض تجعل قضية السيطرة عليه أمرا ميسورا ، وبعد أن اطمأنت إلى ذلك ، لاحظت أن الأتراك أخذوا يدعمون وحداتهم العسكرية بطرابلس فأرسلت إنذارا إليهم بوجوب سحب قواتهم من "ليبيا" في غضون أربع وعشرين ساعة ، ولما لم تستجب "تركيا" قام الأسطول الإيطالي بضرب "طرابلس" وقوبل ذلك الهجوم بمقاومة عنيفة ، وهب المسلمون عربا وأتراكا يتطوعون لدحر "ايطاليا" ، لكن حكومة "الاتحاد والترقى" كانت ضعيفة لم تقو على المقاومة ، فآثرت تسليم "ليبيا" لايطاليا ، على أن المجاهدين بقوا زمنا يقاومون العدوان .

وبذلك انفرط آخر عقد من ممتلكات العثمانيين في افريقيا .(١)

وكان للهجوم الإيطالي والدعوة لمقاومته أثر كبير في الشعر العربي ، إذ أدلى عدد جم من الشعراء بدلوهم فيها على شتى أقطارهم .

---

(١) انظر : التاريخ الاسلامي – العهد العثماني ٥١٧/٨-٥٢٠ ، تاريخ أوربا في العصر الحديث ص ٤٥١ .

وكانت أهم المحاور التى عالجها الشعر الذى عثرت عليه فى هذه الحرب الأمور التالية :

(١) الدعوة إلى الاتحاد ونبذ الفرقة :

اتسعت رقعة الخلاف - فى هذه الحقبة التاريخية - بين العرب والأتراك نظرا لسيطرة الطورانيين على الحكم ، وقامت هذه الحرب ضد طرابلس ، ولمس بعض الشعراء التنابذ والنفور بين الأمة الواحدة ، وأخذ ذلك الجرح يزداد اتساعا ، فى وقت يحاصر العدو البلاد المسلمة ويخطط لابتلاعها .

فدعوا إلى الاتحاد ونبذ الفرقة ، ليقف الجميع صفا واحدا فى وجه العدو وضد أطماعه الاستعمارية .

فيلقى "شوقى" قصيدة فى "جماعة الهلال الأحمر فى مصر" يدعو فى مقدمتها إلى التعاون بين العثمانيين ، ويستلهم قول النبى صلى الله عليه وسلم : "إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" (١) اذ يقول :

ياقومَ عثمان والدّنيا مداولَةٌ
تَعَاونوا بينكم ياقومُ عثمانا
كونوا الجدارَ الذى يقْوى الجدارُ به
فالله قد جعلَ الإسلامَ بنْيانا (٢)

ويشبه "الخزنه دار" الاتحاد للأمم بالغيث للأرض ، ولولاه لما كانت هذه الأجرام السماوية بتلك القوة والعظمة ، ومامن أمة أقامت بنيانها على الاتحاد إلا وانقادت لها الأمم وانصاعت .

(١) صحيح البخارى ، كتاب الصلاة .
(٢) ديوانه : الشوقيات ١/٢٤٥ .

الاتحادُ كمثلِ الغيثِ هاطلُه
مـذ جادَ من نقطٍ بالعارضِ الهامي
الاتحادُ ولولاهُ لما برَزَت
في العالمِ الحَيَوي أشخاصُ أجْرام
قلْ فهو حينئذٍ سرُّ الوجودِ وما
أدراكَ ما السرّ فاعلمْ فضلَه السّامي
ماكان في أمةٍ إلا وكان لها
شأنٌ تَخِرُّ له أعنَاقُ أقوام (١)

ويبين "الكاظمي" بلغته الجزلة الرصينة فوائد الاتحاد وعاقبة الفرقة ، ويحذر الأمة من أن يقول أعداؤها عنها هاهم تشرذموا في وقت احتدام الشر عليهم :

إذا اتّحدتُم أمِنتم كلَّ غائلةٍ
وإنْ تخاذلْتم فالْعارُ والنَّدم
كونوا يداً في سبيلِ الخيرِ واحدةً
يُسْتأصلُ الشرُّ حيثُ الشرّ يحتدم
أُعيذكم أن يقولَ الشامتون بِكُمْ
تَخَاذَلوا في سبيلِ الخيرِ وانقسَموا (٢)

ويدعو "الرَّصافيُّ" "السنوسيّ" (٣) للانضمام إلى إخوانه المجاهدين ومشاركتهم في مد العدوان .

ومن مُبلِغٍ عنَّا "السنوسيّ" أنّه
يمدُّ لهذا المدعِ منْه يدُ الرَّأْبِ

---

(١) ديوانه ص ١٣٨ .
(٢) ديوانه ــ المجموعة الثانية ص ١٠٧ .
(٣) أحمد الشريف بن محمد السنوسي ، ولد سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م من كبار السنوسيين ، جاهد الطليان زمنا ، ذهب إلى الاستانة ثم إلى دمشق فمكة ، توفي بالمدينة سنة ١٣٥١هـ/١٩٣٣م .
انظر : الأعلام ١/

فإنّا لَنَرجو أن يقودَ إلى الوغَى
طلائعُ من خيلٍ ومن إبلٍ نُجُب
فيحمي بلادَ المسلمينَ من العدى
وينهضُ كشّافاً لهم غُمّةَ الخَطب
فإن حشا الإسلامِ أصبحَ دامياً
إلى اللهِ يشكو قلبُه شدّةَ الكَرب
فقمْ أيّها الشيخُ السنوسي مُدْرِكاً
جنودَ بني عثمان في الجبلِ الغربي
وكنْ أنتَ بين الجُندِ قُطبَ رحى الوَغى
وهل من رحىً إلا تدورُ على قُطبِ ؟ (١)

وأما "أحمد محرم" فكان أجلى بيانا وأكثرهم إفاضة في الحديث عن الوحدة وأهميتها في إحدى قصائده ، إذ يسأل سؤال الفخور ، كيف نذعن للبغاة مادام في الترك مقدام حرب ، وفي العرب جرىء على اقتحامها ، وماذلك إلا لأن الأُخوة تجمعهما ، ومن كان كذلك فإن الحصون الشامخة ، والجبال الشاهقة تخر له طوعا خاشعة ذليلة برغم صلابتها .

وإن العهد والوفاء بينهما ، فلابغضاء ولاتقاطع ، وإن حاول العدو الإيقاع بينهما – وفي هذا اعتراف ضمني بدور العدو في إذكاء نار الشعوبية بين المسلمين – ويسأل ساخرا من أولئك الساعين لتوسعة رقعة الخلاف ، والإيقاع بين الإخوة كيف نطيع الوشاة بعدما رست دعائم الألفة دهرا .

ثم يبين مصير من شق عصا الطاعة على الإمام (٢) ، ويتوعده على فعلته ، ويوبخه ويؤنبه إذ كيف يرضى أن يطيع هواه

(١) ديوانه ٢/٤٨٠ .
(٢) لم اتبين من يكون ذلك الخارج على الجماعة .

ويقدمه على مصلحة الأمة .

ثم يسخر منه سخرية لاذعة ، هل يريد من خروجه ملكا ؟

أم يريد خلافة ، ويذكر اسمه على منبر الحرمين ؟

أَنُذْعِنُ للباغِي ونُعطيه حُكمَه
وفي التُّرك مِقدامٌ وفي العُرْبِ حازمُ

هُما أَخَوا العزِّ الذى دون شأوِه
تَخِرُّ الصّيامي خُشّعاً والمَخارِم

اقمْنا على عهدٍ وفاءٍ وأُلفةٍ
فما بيننا قالٍ ولاثمَّ صارمُ

على طولِ ماقال الوشاةُ وخبَّبَتْ
حُقودُ الأعادي بيننا والسَّخائمُ

وكيف نُطيعُ العاذلين وترتقِي
إلينا وشاياتُ العِدَى والنَّمائمُ

أَنَصدعُ ركنَ الدّهرمن بعد مارَسَا
وقَرَّت أواسِيهِ بِنَا والقوائمُ

فأين الوصايا والمواثيقُ جَمَّةٌ
وأين القُوى مشدودةٌ والعزائمُ

وأين النُّهَى موفورةً لايُزيغها
من الأملِ المكذوبِ ماظنَّ حالمُ

ألا إنَّ من شقَّ العصا لمذمَّمٌ
وإنَّ الذى يَبْغِي الفسادَ لآثمُ

ومنْ كان يأبى أن يوالي إمَامَهُ
طواعيةً وآلاهُ والأنفُ راغمُ

سيعْلمُ مَنْ خانَ الخليفةَ أنّه
مواقعُ أمرٍ شرُّه متفاقمُ

أطاعَ هواهُ واستزلَّتـهُ فتنــةٌ
عَضـوضٌ تَلَـوَّى فـي لَهاهـا الأراقـمُ

لـه الويلُ مـاذا هاجَ من نَزَواتِهِ
فثـارَ يُـرامِي ربَّـهُ ويُراجِـمُ

أيطلبُ مُلكـاً أم يُريـدُ خلافـةً
تُقـامُ لهـا فـي المشعَرَيْن المواسمُ

ثم يتوجه إلـى الله ويبتهل إليه ـ وهو يعلم ماوصل إليه حال المسلمين ـ أن يؤلف بين قلوب المسلمين ، وأن يجمعهم على الحق ويتولاهم برحمته .

تبـاركتَ ربّي كيف يعصيكَ مُسلمٌ
فيوقعُ بالإسلام ما أنت عالِـمُ

تباركْتَ إنَّ المسلمين كما تَرَى
تفاريـقُ منهـا مُستطير ورَازمُ

فيـاربِّ بالبيتِ العتيقِ وماثوى
بيثربَ من قبرٍ له الرُّوحُ خادمُ

تَولَّ شُعوبَ المسلميـن برحمـةٍ
تُؤَلِّفُ فيمـا بينهـم وتُلائـمُ (١)

والشاعر كما هو واضح استخدم الاستفهام ساخرا ومهددا ، ومـاذلك إلا لأنه يحتـاج إلـى جواب وإعمال عقل ، فيحاول أن يخـاطب عقـل ذلـك البـاغي عله يرجع إلى نفسه ، ويعمل ذهنه فيمـا أقـدم عليه ، ناهيك عن كون مايحدثه داخل القصيدة من جلجلـة وحماسة يؤثر بدوره على المتلقى ويسترعى انتباهه ، ثـم إنـه استخدم ضمـير الجماعـة ـ نـا ـ دلالة على التحام مشـاعره بمشـاعر الأمـة ، وتركيزه على تلك القضية يدل دلالة

(١) ديوانه : السياسيات ١/٢٠١،٢٠٢ .

إكيدة على استفحال أمرها ، وأنّها كانت تؤرق كل غيور ، إذ هي مدعاة لأن تؤدى إلى تدمير الوحدة بين الأمم على مختلف الأزمان والأماكن .

ويحذر "عبد الحليم المصرى" المسلمين من الغرب الذين لم يناموا ، إذ أخذوا ينتزعون البلاد الاسلامية الواحدة تلو الأخرى ، والمسلمون متفرقون فيما بينهم لاحول لهم ولاطول .

يا أيُّها المسلمونَ استيقظوا وكَفَى
نوماً فإنّ عيونَ الغَرْبِ لم تَنَمِ
هذى ممالككُم تُغْشَى وأرضُكم
يسومُها القومُ سُوّمَ النُّوق للسَّلَم
أصبحتموا بِدَدًا فى كلِّ ناحيةٍ
كأنّما صِرْتُم فى دولةِ الخدم (١)

وهو مثل سابقه فى اعتماد الألفاظ الحماسية لأن الظرف التاريخى الذى مرت به الأمة يستدعى ذلك .

ونجده فى قصيدة أخرى يتحسر على ماوصل إليه حال المسلمين من ضعف وفرقة ، وكيف أضحوا ألعوبة فى يد العدو .

لقد قتلَ الغرورُ المسلمينَا ... فباتوا فى الرُّبا متفرقينا
تُقلِّبهم أكفُّ الحاكمينا ... كتقليبِ الشِّواء على الضِّرام (٢)

ويحرض "على الشرقى" (٣) الأمة العربية أن تقطع الخلاف وتنبذه إذ "كيف يعمل كفٌّ خانها العضد" ، ويدعو قومه إلى أن

---

(١) ديوانه ٨٣/٢ .
(٢) نفسه ٨٨/٢ .
(٣) على بن جعفر بن محمد حسن بن أحمد الشرقى ، ولد سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م ، نشأ فى بيت علم على المذهب الجعفرى ، مارس عددا من الأعمال القضائية ، أحد الشعراء البارزين فى العراق ، له عدد من المؤلفات أهمها ديوانه ، توفى سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .
انظر : مقدمة ديوانه .

يردوا السيف في قرابه قبل إشهاره على إخوانهم ، لأنهم مسلمون "على إغماده اتحدوا" .

ثم يأتي في نهاية المقطع ليدلل على فائدة الاتحاد خاصة بعد أن زادت الأحداث وعي الأمة بواقعها .

يا أمةَ العُربِ أمسٌ قدْ مضى فسلي
بشائرَ اليوم عنّا والنذيرُ غدُ

إنّا قطعناك في نَبذِ الخلاف يداً
وكيفَ تعملُ كفٌّ خانَها العَضُدُ

ردّي القِراب عليه قبل نبْوتِهِ
فالمسلمون على إغمادِهِ اتّحدوا

وفي الوفاقِ حسامٌ دون فعْلتِهِ
ماتفعلُ العُدّةُ الشّهباءُ والعدد

نبّهتَنا منك يقظاتٌ مروّعةٌ
وربّما نبّه اليقظانُ من رقدوا (١)

ومن اللافت أن الشاعر استخدم التشبيه بكثرة وكان موفقا خاصة في قوله "الكف والعضد" إذ هو دقيق في الحض على الاتحاد .

والنبرة الخطابية جلية في النداء والأمر ، وكذا في المقابلة بين "نبّه ورقد" .

ويسخر "عبد الحميد الفراهي" (٢) من الغزاة لكونهم – كما يرى – قد غروا بما شاع من فرقة بين العرب والأتراك فأرادوا استغلالها لمصلحتهم ، وعلى ذلك فهو يؤكد الوحدة بين المسلمين ، وأن الخلافة رمز الوحدة خير جامع لهم ، كما أنه

---

(١) ديوانه ص ٩٢-٩٣ ، ط/وزارة الاعلام العراقية ، دار الرشيد ، تحقيق ابراهيم الوائلي وموسى الكرباسي .
(٢) لم أعثر على ترجمته .

لاقيمة لأصابع بلا كف تجمعها .

غرّوا بأنّ البعدَ بين	العُرب والاتراكِ شاسع
وبأنّ بينَ قلوبِنــا	صدعاً من الأفغانِ واسع
ياضلّةً لم يَعْلَمـوا	أنّ الخلافةَ خيرُ جَامِع
فلنبذلنّ لها النّفو	سَ ودون حَوْزتِها نُدافع
ما التّركُ إلا مثلُ كفٍّ	الباسلِ العارى الأشاجع
والعربُ مثلُ أصابعٍ	لاكــفّ إلا بالأصابع (١)

(٢) الجهاد بالمال :

عندما قامت الحرب انبرت فى كثير من المجتمعات الإسلامية جمعيات تدعو إلى الإنفاق لصالح المجاهدين ، إيمانا بمبدأ الرابطة الإسلامية ، وأن ذلك جزء من الجهاد كما يوضحه القرآن والسنة .

لذا عقد بعض الوجهاء العزم لتجلية تلك القضية ، وبيان دور المعونة فى الدفع لمقاومة الاستعمار قدما ، وحث الناس على التبرع لصالح المجاهدين .

فهذا "شكيب أرسلان" يبين الدور الذى قام به المصريون "واندفاعهم لمساعدة اخوانهم "الطرابلسيين" إذ أقيمت فى "القاهرة" سوق خيرية لشراء أشياء يعود ثمنها إلى المجاهدين والجرحى ... وتليت قصائد ..." (٢) .

ولذلك قام الشعراء بتصوير تلك العاطفة الإسلامية ، لشعورهم بالمسؤولية فى حض الناس على مواساة اخوانهم الذين اصطلوا بنار الحرب .

---

(١) ديوانه ص ١٢ ، ط/المحمدية ومكتباتها بالهند .
(٢) ديوانه ص ١٠٧ .

فيلقى "أحمد شوقى" فى تلك السوق الخيرية قصيدة يحث فيها الناس على التبرع ، ويبدأ فى موضوعه دونما مقدمات ، إذ يطلب من "جبريل" عليه السلام أن يهلل فى السماء ويكبر ، ربما لينبه الغافين ، ثم يكتب اسم كل متبرع فى عداد المحسنين ، ولايخفى اختيار اسم "جبريل" أمين الوحى ومافيه من استثارة للعواطف .

ويمضى "شوقى" شاحذا همم الناس بتلك الطريقة الآخاذة ، فيطلب من جبريل أيضا أن يدعو كل فرد جعل الهلال شعاره – إشارة إلى انتمائه لها – أن يبرهن على ذلك "يفتح على أمم الهلال وينصر" .

ثم يعرض للمهرجان ويزجى الثناء على القائمين عليه ، ويدلف إلى بيان فضل الإحسان فجبريل "يعرض والملائكة باعة ، ولايخفى مافى هذا من استنهاض وحض على التبرع ، ويختم المقطع بسؤال تحريضى "أين المساوم فى الثواب المشترى" .

جبريلُ هلّلْ فى السّماءِ وكبِّرِ
واكتبْ ثوابَ المحسنينَ وسطِّرِ

سلْ للفقيرِ على تكرّمِهِ الغنى
واطلبْ مزيداً فى الرّخاءِ لمُوسِرِ

وادعُ الذى جعلَ الهلالَ شِعَارَه
يفتحْ على أُممِ الهلالِ ويُنصرِ

....

يامِهرجانَ البرِّ ، أنتَ تحيةٌ
للّهِ من ملإٍ كريمٍ خيِّرِ

همْ زيّنوكَ بكلِّ أزْهرَ فى الدُّجى
واللّهُ زانكَ بالقَبولِ الأنَورِ

حَسُنَتْ وجوهك فىالعيونِ وأشرقت
من كلِّ أبْلَجَ فى الأكارمِ أزْهَر
كثُرَتْ عليك أكفّهم فى صَوْبِها
فكأنّها قِطَعُ الغمامِ المُمْطِر
لو يعلمونَ السّوقَ ماحسناتُها
بِيعَ الحصىفىالسُّوق بَيْعُ الجَوْهر
جبريلَ يَعْرِضُ والملائكُ باعةٌ
أين المساوِمُ فىالثّوابِ المشترى (١)

ويلقى "شوقى" فى ذلك المهرجان قصيدة أخرى ، يوضح فيها أن البر أعلى شعب الإيمان ، ولاإيمان بلا بر ، ثم يستعطف المسلمين ببيان حال المجاهدين الذين انبروا للدفاع عن بلادهم ، وماهم فيه من ضنك ومشقة .

البِرُّ من شُعبِ الإيمانِ أفضلُها
لايقبلُ اللّهُ دون البِرِّ إيمانا
هلْ ترحمون لعل اللّهُ يرحمُكم
بالبيد أَهلاً وبالصحراءِ جيرانا
فى ذمةِ اللّه أوْ فى ذمّةٍ نفرٌ
على "طرابلسٍ" يقضون شجعانا
إن سالَ جرحاهُمُ من غُربةٍ ووغىً
باتوا على الجمْرِ أرواحاً وأبدانا

استهل المقطع بالإشادة بالبر ، وجعله شعبة من شعب الإيمان ، وانّه لكذلك ، لأن الله ـ كما يرى الشاعر ـ لايقبل إيمانا بلا بر ، ثم ثنى صراحة بطلب الرحمة للأهل والجيرة

---

(١) ديوانه : الشوقيات ١/١٤٩-١٥٠ .

سكان الصحراء ، فمنهم الشهداء الذين استشهدوا فى سبيل "طرابلس" وباتوا يتقلبون أرواحا وأبدانا على الجمر .

والشاعر عمد إلى استثارة العاطفة بأسلوب نافذ "هل ترحمون" ، واستخدم الجمل المعترضة "لعل الله يرحمكم" ، "أوفى ذمة" ، ومثل هذا الصنيع فى هذه المواضع وبذلك الأسلوب أدعى للإشارة لما تحمله الأولى خاصة من دعاء بالرحمة .

ثم يصف وقوف المصريين بجانب اخوانهم المجاهدين ، كرما وإغداقا دون ضن أو من ، وهم ينهضون للإغاثة متعاونين ويقومون شيبا وشبانا لصالح الاعمال ، ثم يضفى عليهم مزيدا من الثناء ، فهم الروح من الإنسان ، ويجمعون بين الشجاعة والسخاء ، وهم بمثابة العنوان من الكتاب لايعرف إلا بعنوانه ... ، ويختم هذا المقطع بتاكيد قيمة البذل .

قَوْمي وجلّت وجوهُ القوم مصرُ بكم
ألقت على كرماءِ الدّهرِ نسيانا

لاتسألون عن الأعوانِ إن قعَدوا
وتنهضُون إلى الملّهوفِ أعوانا

أكلّما هزّكم داعٍ لصالحةٍ
قمّتم كُهولا إلى الداعي وفتيانا

لو صُوّرَ الشّرقُ إنسانا أخا كَرَمٍ
لكنّتم الروحَ والأقوامُ جثمانا

إذا هززتُم تلاقى السيفَ منصلتاً
والريحُ مُرسلةً ، والغيثُ هتّانا

إذا المكارمُ فى الدّنيا أُشيدَ بها
كانت كتاباً وكنّا نحن عُنوانا

إنَّ الحيـــاةَ نهـــارٌ أو سحابتُـــه
فعشْ نهارَك مـــن دنياك إنّسانـــا

أرى الكريـــمَ بوجـــدانٍ وعاطفـــةٍ
ولا أرى لبخيلِ القـــومِ وجدانـــا (١)

وهـذا المقطـع يحوى عددا من التشبيهات ، وماتحمله من تصويـر وتجسـيد ، ثـم إن التشـبيه فـى البيت الثالث وربطه بالشرق يعطى أبعادا لتخيل ذلك الإنسان .

وأورد المطابقـة فـى مـوضعين بقصد إظهار مكانة البذل والعطـاء فـى الحياة الإنسانية عموما ، ولذا جرد البخيل من تلك الروح ، "قعدوا وتنهضون" ، "كهولا وفتيانا" ، وقوله فى آخـر بيـت "... وجدانـا وعاطفـة" ... إشارة إلى أن الإنسان البار هو الذى لايتجرد من الوجدان والعواطف ، ولايكون جامدا أصم كالصخر ، ولاكالأرض تمسك ماء ولاتنبت ، ويؤيد هذه القيمة الآيات الكثيرة التى تحض على الإنفاق ، وتندد بالشح وأهله .

ونقـرأ هـذا الشـعر مع الرحلة الطويلة فى ظلال الحروب التـى خاضتها جيوش الخلافة ، فنجد أن الزمن والأحداث الجسام أحدثا تطورا كبيرا فى الشعر وفى الشاعر معا .

فقـد نضـج وجـدان الشاعر ، واتسع محيط ثقافته ، وزاد اطلاعـه وممارسته للتجارب ، وتغيرت مشاعره ونظرته ، وصارتا أكـثر جـدة وحيويـة فتخلص شعره من الركة ، والسقم ، وأضحى أكـثر إشـراقا وتـاثيرا فـى جملـه العامـة ، وبقـدر مابين الشعراء من تفاوت .

وكـان صـوت "أحمد محرم" من أكثر الأصوات ظهورا فى هذه الحـرب ، فـأضحى يبتهـل كـل مناسبة حاضا الناس على الإسراع

---

(١) السابق ٢٤٥/١-٢٤٦ .

والتسابق في دروب الخير بما يحمله من عاطفة إسلامية جياشة فلقد سطر مجموعة من القصائد والمقطوعات خص بعضا منها بالحث على العطاء والبذل بمناسبة حرب "طرابلس" .

في إحدى قصائده يثني على المتبرعين الذين انهمر عطاؤهم لإخوانهم بمجرد أن سمعوا الصيحات تنادي أن أدركوا جرحى الوغى ، ويذيل هذا المقطع بحكمة أنبتتها التجربة .

لِلّهِ دَرُّ المُنْعِمِينَ بمالِهِم
في اللّهِ لا نَزراً ولا بُمصَرَّد
ظَلّتْ أكُفُّهُم تَسُحُّ قديمةً
من فضةٍ وغمامةٍ من عَسْجَدِ
صاحَ "المؤيَّدُ" أدركوا جَرْحى الوغى
فإذا بهم مثلُ العطاشِ الوُرَّدِ
يَتَنازعونَ مدى الفَخارِ وغَايةً
من يَحْوِها يَعظُمْ بها ويُسَوَّدِ
والمرءُ مالَمْ يُنْتَدَبْ لِعظيمةٍ
شَنعاءَ يكشِفُ هَوْلَها لم يُحْمَدِ (١)

والصورة في الأبيات الثلاثة جميلة ، الكف تسح عطاء ، وعطاء لا كالعطاء ــ فهو ديمة ــ وديمة لا كالديم بل من فضة وعسجد ، فهذا الاستخدام أضفى على الصورة جمالا .

في قوله "صاح المؤيد" إيماء إلى الدور العظيم الذي اضطلعت به صحف ذلك العهد ، في معاضدة الشعب الليبي ، ومؤازرته بالكلمة وبالمال والنفس .

(١) ديوانه : السياسيات ١٨٧/١ .

وفي قوله : "والمرء مالم ينتدب" حض على عمل الخير ، وأن قيمة المرء بما يعمل ، وعظمته تقاس بعظمة مايؤديه .

ثم يثني على المصريين ، وإغاثتهم للملتجيء إليهم ، ويطري دور والدة الخديوي في ذلك ، وكونها أصبحت قدوة للناس ، في الجود والعطاء ، ويذيل هذا المقطع أيضا بحكمة مؤكدا أن العمل الخير هو الخالد على مر الأزمان .

إيهٍ بني مصرٍ وتلك إهابةٌ
من عائذٍ بنوالكم مستنجدِ
كونوا كأمِّ المحسنينَ سماحةً
إنَّ الموفقَ بالموفَّقِ يقتدي
رَفَعتْ منارَ الجودِ فيكم عالياً
تعشو الكرامُ إلى سناه فتهتدي
تلك المروءةُ خالداً مأثورُها
والمنعُ محتقرٌ إذا لمْ يَخلُدِ (١)

والشاعر استخدم اسم الفعل "إيهٍ" لما يحمله من زيادة في الطلب ، لأن المنكوب يصيح ويستغيث طالبا النجدة ، فالأمر يتطلب السرعة في الإنقاذ .

ورسم صورة جيدة لأم المحسنين فهي رافعة منار الجود حتى أضحى الجود شيئا محسوسا وله سناء يبصر من بعيد يهتدي الناس به .

وفي قصيدة أخرى (٢) نجده يستجيش عواطف الناس بوصف حال المحاربين وماهم فيه من مشقة ، من غزاة ذادوا عن حمى

---

(١) السابق ١٨٨/١ .
(٢) ألقيت في حفل الهلال الأحمر بدمنهور لمعاونة أهل "طرابلس" ، وحضر الحفل الأميران "عمر طوسون" ، و"محمد علي" .

بلادهم ، وشهداء باركتهم الملائكة والرسل ، وجريح افترش دمه والنيران من حوله ، وأرامل وأيتام يتضورون جوعا ويفرعون فى الليل البهيم من سوء حالهم .

ويستحث المصريين نادبا إياهم للبذل والاستباق فى ميدان المكرمات ، ويثنى على المتبرعين ، وأنهم لم يبخلوا بما يملكون فداء للملك والوطن ، إيقانا منهم أن المال مخلوف من عند الله ، ويمدح الأميرين "عمر طوسون" (١) ، و"محمد على" (٢) لما قاما به من جهود مخلصة فى الإشراف على عملية التبرعات .

يا للغُزاةِ قياماً دون بَيْضَتِهم
إذا هوى بطلٌ منهمْ سَمَا بطلُ
يا للشهيدِ بدارِ الحرب تَكْنُفُهُ
فيها الملائكةُ الأبرارُ والرُّسُلُ
يا للجريح صريعاً لامِهَادَ لَهُ
إلا النجيعُ ، وإلا النّارُ تشتعلُ
يا للأرامل والأيتامِ باكيةً
تشكو الطَّوى وتقومُ اللّيلَ تبتهلُ
يا للحمى فَزِعَ الأرجاءِ مُضطرباً
يخافُ عاديةَ القوم الأُولى جهلوا

---

(١) ستأتى ترجمته .

(٢) محمد على بن محمد توفيق ، ولد سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م ، من أمراء مصر أخو الخديوى عباس الثانى ولى العهد مرتين أجاد عدة لغات ، له عدد من المؤلفات منها "رحلة إلى أميركا الشمالية" ، رحلة الصيف إلى البوسنة والهرسك وغيرهما ، رحل إلى سويسرا بعد الثورة الناصرية وتوفى بها سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٢م .
انظر : الأعلام ٦/

بني البحيرةِ هذا يومُكم فخذوا
أعلى المواقفِ كيما يصدُقُ الأملُ
تدفّقوا بالنّوالِ الجمِّ واستبِقُوا
في المكرماتِ فأنتم غيثُها الهطِل
....
حاشا لِقوميَ أن تُرْجَى معونتُهم
فيبخلوا أو يُعابوا بالذي بَذَلوا
إنّي أرى المالَ جمّاً في خزائنهم
وما عهِدْتُ بهمْ بُخْلاً إذا سُئلوا
ياقومُ إنّ لكم من مالِكم بَدَلاً
ومالَكم أبداً من مُلكِكم بَدَلُ
حيُّوا الأميرين حيّا اللّهُ ركبَهما
أنّى استقرَّ ، وأنّى سارَ ينتقلُ
قاما بمصرَ مقام النّيّرين فما
تَضِلُّ سُبْلَ الهدى ، إنْ رابتِ السُّبُلُ
ركنا الخلافةِ إنْ هزّت دعائمَها
هوجُ الخطوبِ ، وخِيفَ الحادثُ الجللُ
بمثلِ مامنعا تنجو الشّعوبُ إذا
حُمَّ القضاءُ ، وتَحْمي حوضَها الدُّول
نعم المقامُ يبينُ العاملون به
وحبّذا اليومُ فيه يُعرَف الرجلُ (١)

والشاعر في هذا المقطع موفق في الإشادة بالأميرين ، لأنهما قدوة وجمهور الناس تبع ، يتشبهون بهم ، ويفعلون فعلهم .

---

(١) السابق ١٩٤/١-١٩٥ .

وقوله عن الأميرين "ركنا الخلافة" يدل على إيمان الشاعر وكثير من المصريين بانتماء مصر للخلافة وتعلقهم بها فى تلك الفترة الأخيرة من عمرها برغم وجود الإنجليز .

ويخص "عبد الحليم المصرى" فى قصيدة له مسلمى مصر ، فيدعوهم إلى التبرع والتدليل على كرمهم فى تلك الأزمة التى يمر بها المسلمون ، وأن المال مال الله فليخرج من الخزائن .

ويتمنى أن لو كان له مال "قارون" إذا لأنفقه فى سبيل الله ، وفى سبيل أمته الإسلامية ، وأن لو كانت له قوة "هارون" و"ذى الأكتاف" إذا لجعلها فى خدمة الأتراك ونصرة قضاياهم .

يامسلمى مصرَ هلْ برهنْتُم كَرَمَا
فى أزمةِ الدّينِ والدُّنيا على الكَرَمِ

فأخْرِجُوا المالَ من أقصا خزائِنِكم
المالُ للّهِ ليس المالُ للنَّسَمِ

لو كان لى مالُ قارونٍ وماشَمِلَتْ
ديارُ كِسْرى من الإكبارِ والعِظَم

أو كان لى ملكُ هارونٍ ومنعتُه
أو كان أجيادُ ذى الأكتاف من حشمى

لكنْتُ قدَّمْتُ للأتراكِ ماملَكَتْ
يداى مُعتذراً إنْ قَصَّرتْ نَعمِى (١)

وأما "أحمد الكاشف" فتزلزل وجدانه أنات "طرابلس" وجراحها بعد أن نكل بها "الإيطاليون" تنكيلا ، ويلبى

---

(١) ديوانه ص ٨٥ .

استغاثاتها أن يجرى مثل النيل بيننا وبينكم فى التدفق حنينا ومودة .

يا أختَ مصرَ وفى حشاها جمْرةٌ	لبيّك حتّى يكْتفى الدّاعونا
بعثَتْ إليك بزادِها وتَوَدُّدٍ	بعثَتْ إليك الجنْدَ مُبْتدرينا
والنيلُ لو مَلَكَتْ أعنّتَه جَرَى	خَلَفَ القلوبِ مودّةً وحنينا

وكان الشاعر موفقا فى التعبير عن إحساس الأمة الإسلامية فى مصر تجاه ذلك الحدث ، فمناداة "طرابلس" ب "ياأخت" فيه دلالة على مدى الإلتحام بين البلدين .

ثم إن "لو" هنا تعطينا صورة عن حب الشاعر وحماسه لمدافعة الطليان ، ولكن الأمر ليس على مايريد ، وأما قوله "والنيل لو ملكت أعنته" فهو ذروة فى صفاء الشعور ورقيه ونبله ، وقد وفق فى اختيار كلماته فى هذا البيت أتم توفيق .

ثم يثنى على "عمر طوسون"(1) وأمه لما بذلاه من مال وحث للناس على التبرع :

ياحبذا عمرُ الجليلُ موفَّقاً	للصّابرين الثابتين مُعِينا
وحنانُ أمِّ المؤمنين تُفيضُهُ	بسماحِها ونوالِها مَقْرونا(2)

ويحث "عبد المحسن الكاظمى" المسلمين على المساعدة والجهاد بالمال والنفس والإسراع فى ذلك ، إذ طرابلس تطلب النجدة ، فجودوا لإنقاذها من أساها .

---

(1) عمر طوسون بن سعيد بن محمد على ، ولد فى سنة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م من كبار المؤرخين والباحثين ، أتقن عدة لغات ، آزر الحركة الوطنية ، وكان له جهد مشكور فى مؤازرة المجاهدين فى طرابلس ، له عدد من المؤلفات بالعربية والفرنسية ، توفى سنة ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م .
انظر : الأعلام ٥/

(2) ديوانه ١/١٨-١٩ .

ويعرج على المثبطين والمتواكلين ، محذرا الأمة منهم ، مجدا فى طلب التبكير إلى التبرع .

ويصف حال أهل "طرابلس" وماهم فيه من مشقة وخوف ، لامأوى لهم ، أسراهم بيد العدو لاناصر لهم إلا الحسرات والدموع الجسام .

أهلَ العزيمة ليس اليومُ يومَ ونًى
وليس يُحمَد بعد اليوم معتزمْ

هذى طرابلسُ تدعوكُمْ لنجْدتِها
فشاطرُوها الأسى أو تُفرجُ الأزُم

اموالُكم لمْ تكنْ تُغلَو وانفسُكم
جُودُوابها فى سبيلِ اللّه واغْتنموا

لايقعدنَّ بكم قولُ المريبِ ألاَ
لاتنصروا اللّهَ إنَّ اللّهَ مُنْتقِم

فتلك وسوسةُ الشيطانِ زيَّنها
من مسّهُ هوسٌ أو مسّه لَمَمْ

هُبَّوا سِراعا فأنْتم فى النَّدى دُفَعٌ
من الغَمَامِ وأنّتم فى الوغى عُصُم

اخوانُكم فى العرا مَرْعى ونسوتُهم
مروَّعاتٌ ، ولامَأْوَى ولاحَرَم

أسرى القيودِ سبايا لانصيرَ لها
الا الزفيرُ وإلا الادمعُ السُّجم (١)

والشاعر عمد إلى أفعال الأمر ومافى معناها ، وماتضمنته من تنبيه الغافل ، شاطروها ، جودوا ، هبوا ،

---

(١) ديوانه ، المجموعة الأولى ص ١٠١-١٠٢ .

وقوله "إخوانكم" ، ووصفه لحالهم فيه حفز على المبادرة للتبرع والإغاثة .

ويلقى "شكيب أرسلان" فى حفل جمعية الهلال "بالقاهرة" قصيدة يحث فيها الناس على الإنفاق ، ويشير إلى أن ذاك سوق البر والرحمة ، من ابتاع فيه نال الباقيات الصالحات ، كيف لا وفيه إغاثة للمظلوم ، واستجابة لصرخاته ، وتضميد لجراحه وإطعام لصائم صبر فى ساحة الجهاد لأنه لايجد مايأكل .

ثم يشيد بالهلال رمز الخلافة العثمانية وشعارها ، فهو الهادى وسط الخطوب التى داهمت الأمة .

ويثنى على المتبرعين ويخص والدة "عمر طوسون" بإطراء دورها الفعال فى المساهمة والتشجيع لصالح المجاهدين .

ويشير إلى فرح أهل البلاد المجاهدة ، واستبشارهم بنصرة إخوانهم حتى خالها تصافح المتبرعين بقلبها لابيدها .

أخلّايَ سُوقٌ للمَنَايا مُقامةٌ
تُباعُ حُفًا فيها غَوالى الجَمَاجم

فهلْ لكمْ فى سوْق بِرٍّ ورحمةٍ
تنالون فيها باقياتِ المغانم

غياثاً لمظلومٍ ونصراً لصارخٍ
وضمداً لمجروحٍ وقوتاً لصائم

كَفَى بالهلالِ الأحْمرِ اليومَ هاديا
لمن حارَ فى ليلٍ من الشكّ داهم

وأكرمْ بأمّ المُحسنين الذى طَمَى
جَدَاها كَكُجِّ العَيْلمِ المُتلاطِم

سلنيلةُ إلهامي فمن كلّ جانبٍ
لها نسبٌ نحو البحور الخَضَارم

واجدرٌ بقومٍ أمطرتْهم هِباتُها
بأنْ يأملوا قُربَ انفراجِ المآزم
وحاشا بلاداً أنتمُ عن يمينها
يفتّ بأعضادٍ لها ومعاصم
تخيّلتها شَوقاً على بُعْدِ دارها
تصافحُكم بالقلبِ لابالبَراجم (١)

ويبدأ "الخزنة دار" إحدى قصائده بوصف أوضاع المجاهدين ، إذ يستفهم عن حال الثكلى والجرحى والأيتام الذين سحقتهم الحرب ، فأعينهم مشرئبة لإخوانهم مسترحمين ، ويزيد الأمر توضيحا بقوله : إنهم مابين نائحة ونادب ، ومكلوم يئن من وطأة جراحه فمن ذا يواسيهم ويضمد جراحهم ؟ ويتفق مع "شوقي" في أن البذل وتخفيف مأساة الإخوة منتهى البر والإحسان .

وبعد عدة أبيات يعود إلى موضوع البذل والعطاء ، مستنفرا الجمهور مقارنا بين حالهم وحال المجاهدين ، مبينا الصلة بينهم من رحم ودين ، ويدعوهم إلى الجود بالمال كما جاد أولئك بالأنفس .

مَنْ للثَّكالى وللجَرّحى وأيْتامِ
أوْدى بهم حربُ طغيانٍ وإسلام
ألقى الجميعُ إلى إخوانهم رَمَقاً
مُسترحِماً لمواساةٍ وإكرام
هذى تنوحُ وهذا نادبٌ أبَهُ
وذا يئنّ لوجعِ جُرْحُه دام

(١) ديوانه ص ١٠٧ .

من ذا يُواسي بتضميدٍ معاطبَهم
فمُنتهى البرّ تخفيفٌ لآلام

....

أولئك القومُ صَرعى في معاطِنِهم
مُسَيَّجون بآلامٍ وأسْقام

وأنتمُ في ظِلالِ الأَمنِ مَرْتعُكم
ألم تكنْ بينكمْ وَصَلاتُ أرْحام

أيضاً وجامعةُ الإسلامِ تَربطُنا
بهم وتُحكِمُ ربطاً أيَّ إحكام

جودوا عليهم كماجادوا بأنفسِهم
فمَبْلغُ العلمِ إنعامٌ بإنعام

إنّ الشّجاعَ سخيُّ الكفِ يُشبِهُه
هما الشقيقان مِقدامٌ لمِقدام

كلاهما أبداً إنْ أزمةٌ عرضت
تجده للوطن المستبسل الحامي (١)

والشاعر وإن لم يصل إلى مصاف الشعراء المتقدمين ـ كشوقي وحافظ والرّصافي ـ إلا أنه ممن خطا بالشعر خطوة نحو الأمام في المغرب العربي .

فالصورة في البيتّ الثاني تعتبر ذات قيمة مناسبة في الحديث عن الجرحى "ألقى الجميع إلى اخوانهم رمقا" .

والفاظه تفيض بالعطف مما يساعد على استجاشة القارىء ، "مسترحما لمواساة واكرام" ، تنوح ، نادب ، يئن ، يواسي ، "مسيجون بآلام وأسقام" وتركيزه على أنواع الصلة بين المجاهدين وإخوانهم في بقية البلاد الإسلامية كالرحم والدين

(١) ديوانه ١/١٣٧ .

وهما أشد الأنواع إثارة فى حس الإنسان المسلم . إلا أنه فى بعض أساليبه ركاكة نحو "أودى بهم حرب طغيان وإسلام" فلفظة "إسلام" هنا حكمتها القافية ، وقوله "أيضا" فى هذا المكان ليست مناسبة .

ويقول "سالم بن حميدة" [1] من تونس فى إحدى قصائده :

أيُّها المسلمون للّهِ جاهِدُوا
فقد جاءكم فى النّص فرضاً مُؤكّدا

وجودوا ببذلِ المالِ والنَّفس
فلاخيرَ فى عيشٍ يكونُ مُنكّدا [2]

والبيتان ركيكان ومتهافتان أسلوبا ، إلى جانب اختلال الوزن فيهما ولكنهما تعطينا هى ومثيلاتها صورة عن مدى التجاوب العام الذى ساد عند شعراء الأقطار الإسلامية .

ويثنى "صالح السويسى" [3] على المتبرعين على لسان أحد الجرحى ، ويحث الناس على اغتنام تلك الفرصة ، لتثقيل موازينهم من الصالحات .

أهلاً بكم ياكرامُ المسلمين ويا
مَنْ قَدْ أشَادُوا إلى الإسلام أركانا

لاتَبْخلوا فى اكتتابٍ للهلالِ بدا
فسوفَ يَصْلَى بخيلُ القومِ نيرانا

إنّ اليتامى وجَرْحى الحربِ كلّهم
يدعو لباذلِكم سِرّاً وإعلانا

---

(١) سالم بن محمد بن حميده الأكودى ، حفظ القرآن ، ودرس بالزيتونة ، كتب فى عدد من الصحف ، كان مشهورا بالخطابة .
انظر : تاريخ الشعر العربى الحديث .

(٢) جريدة الاقبال عدد ٤٣١ فى ١٩١٢/١٢م بيروت .

(٣) صالح السويسى القيروانى ، ولد سنة ١٢٩٦هـ/١٨٧٨م ، بالقيروان ، تعلم بالزيتونة ، من رواد النهضة الشعرية بتونس ، له عدد من المؤلفات منها ديوان شعر توفى سنة ١٣٦٠هـ/١٩٤١م .
انظر : مقدمة ديوانه ، الأعلام ٣/

إنْ كنْتم تطلبونَ الحقَّ فاغْتنموا
حَجّاً يُثقِّل فى الأعمالِ ميزانا
هيّا ابذلوا فى علاجي المالَ واغْتَنِمُوا
كَيْما أعود إلى الهيجاء جذلانا (١)

ولم يقتصر "احمد محرم" بما أوتى من حس تجاه قضية "طرابلس" على الثناء على الرجال وأم المحسنين لما قاموا به من دور فى الإغاثة ، بل أثنى على النساء الأخريات ، فخصهن بقصيدة بيّن الجهد الذى قمن به ، ويمكن أن نقسم هذه القصيدة إلى أربعة مقاطع :

(أ) حركة النساء وسرعتهن فى حضور الدعوة التى أقيمت فى سوق الإحسان "بدمنهور" ، ومحاولة الشاعر اعتراضهن فى الطريق وبث مايكنه فؤاده لهن من حب ، ولكنهن لم يعرنه أى اهتمام ، ويصف حالهن أنهن من ربات النعيم "ورحن يضاحكهن النعم" .

(ب) وبعد أن يحلف لهن مابلغ به الوجد نحوهن ، ويتبين طهر حبه ، وأنه نابع من إعجاب بالدور الإسلامى الذى يقمن به ، أقبلن نحوه وعطفن عليه .

(ج) ذهب النساء يدرن على المحسنين ، لاليجمعن المال لهن "ولاهن ممن حرمن الغنى" ، ولكن لإصلاح الفساد الذى لحق بالمجاهدين من كيد العدو ودماره .

(د) الدعاء العام لكل من بذل للمجاهدين ، ليشد قواهم ، ويشبه تدافع النساء فى السماح والعطاء بتدافع الجنود على العدو فى ساحة الجهاد .

---

(١) ديوانه ص ٢٤٢ ، ط/الدار التونسية للنشر ، تحقيق نجوى الكافى .

نفرنَ أصيلاً كسرب المها ... يثرنَ الهوى ويهجنَ الجوى

أعارضهنَّ فيلوينني ... ويمضينَ مبتدراتِ الخطى

أناشدهنَّ ذمامَ الهوى ... ولو ذقنَه لشفينَ الصدى

توزعنَ أشطارَ هذا الفؤاد ... فشطرٌ هناك وشطرٌ هنا

ورحنَ يضاحكهنَّ النعيمُ ... ويقتلني إثرهنَّ البكا

حلفتُ لهنَّ بأمِّ الكتاب ... لقد بلغَ الوجدُ أقصى الحشا

وناشدتهنَّ ذمام "الهلال" ... وما فيه من رحمةٍ أو هدى

فأقبلنَ من جنبات الرياض ... رياحينَ مخضلةً بالندى

فصافحنني فلثمتُ الأكف ... فلما انطلقنَ لثمتُ الثرى

ذهبنَ يطفنَ على المحسنين ... فحركنَ كلَّ يدٍ للندى

وما كان ذلك من همهنَّ ... ولاهنَّ ممن حُرِمنَ الغنى

ولكنهنَّ مددنَ الأكف ... لرأبِ الثأى ولكشفِ الأذى

رثينَ لجرحى كساها الحفاظ ... سوابغَ من علقٍ يُمترى

جزى الله قوماً دعوا للنوا ... ل ففاضتْ أكفهمو باللهى

ذوائبُ تأسو كلومَ الغزاةِ ... وتشعبُ منها صديعَ القوى

تدافعنَ في غمراتِ السماح ... تدافعَهم في غمارِ الوغى

جزى اللهُ كل فتى ماجد ... يصون الذمار ويحمي الحمى (١)

والشاعر اتخذ من الفعل المضارع أداة لبيان سرعة استجابة لأولئك النسوة ، وكذا البوح بعاطفته نحوهن ، وقوله "وناشدتهن ذمام الهلال" أبان عن عفاف حبه وطهره .

ويقودني هذا المبحث الذي عالجت فيه الدعوة إلى التضحية بالمال لإمداد المجاهدين إلى استنتاج مايلي :

---

(١) ديوانه : السياسيات ١/١٩٦-١٩٧ .

أن توالى الحروب ، وتعاقب الأحداث على بلاد المسلمين فجر فى النفوس ينبوع الرحمة ، والميل إلى التضحية بالمال فى سبيل نصرة الحق ، وإغاثة الجريح والمنكوب ... ومن ثم انبثق هذا الينبوع بعينه على صفحة الأدب الحديث شعره ونثره .

اخرجت هذا الأحداث المرأة المسلمة المثقفة من صمتها ، ومن عزلتها عن متابعة الأحداث فشاركت بجهدها فى جمع الأموال .

ومن هنا يزعم الباحث أن شعر الجهاد انعكس أثره على الحياة العامة ، وعلى أغراض الأدب يمنحها قوة ، ويخلصها من أنات السقم ، ويفجر فيها مشاعر وأغراضا جديدة .

(٣) الجهاد بالنفس :

مثلما دعا الشعراء إلى الجهاد بالمال لمساعدة إخوانهم ، دعوا أيضا إلى الجهاد بالنفس وبذل كل جهد لصد العدوان ، ومناداة جميع المسلمين إلى الوقوف في صف إخوانهم ، لئلا تذهب تلك البلاد نهبا بأيدى الطامعين .

فيهيب "سالم بن حميدة" بالمسلمين الالتحاق بجموع المجاهدين لنصرة خادم البيت الحرام ، فهذى "برقة" أحاط بها العدو .

تُنادِي المسلمين بكلِّ أرضٍ — هَلمُّوا مذعنين إلى الأمامِ
هلموا يابنى الإسلام جمعا — لنصرة خادمِ البيتِ الحرام
هلموا برقة حُفّت بغَمٍّ — يُرى من دونه هولُ الزّحام (١)

ويهيب بجميع المسلمين أن يجاهدوا فى سبيل الله نصرة للدين والوطن .

أيّها المسلمون لله جاهدوا
فقد جاء فيه النصُّ فرضا مؤكدًا
هلمُّوا لِنَصرِ الدين والوطن الذى
يَحق علينا نصرُه مدى المدى
فإن من الإيمان حُبُّ ديارِنا
وأوطانِنا والروحُ دونها الفدى (٢)

ويبدو أن الصحف إبانئذ كانت ترحب بنشر كل مايرد إليها تشجيعا وتدريبا حتى ولو كان ضعيفا .

ويدعو "محمد الباسومى الرملى" (٣) المسلمين أن يهبّوا

---

(١)،(٢) جريدة الاقبال عدد ٤٣١ فى ١٩١٢/١٢م بيروت .
(٣) لم أعثر على ترجمته .

لحماية البلاد ، ولدفع العدوان الإيطالي ، والتنبه لما يبيته الغرب لهم .

هلموا بني الإسلامِ واحموا بلادَكم
فليس لنا شأنٌ ونحن قعودُ

واملوا على الطليان واخلوا ديارَهم
فليس لِمَن خان العهود عهود

وشُنّوا عليهم تارة بخيولِكم
وشدّوا عليهم حملة لتسودوا

أفيقوا بني الإسلام في الغرب فجة
تناوشُكم أيدي العِدى وتعود

فمن مات منا في الجهاد فإنّه
شهيدٌ ومن يبقى فذاك سعيد

ولايكتفي الشاعر بحث عامة المسلمين بل يوجه الخطاب إلى الخليفة ويطلب منه أن يأخذ بيد الجنود إلى أرض المعركة ، ويرد كيد الغرب الحاقد ، ويصف الخليفة بالمهابة والرشاد والحمية .

خليفتَنا ياذا المهابةِ خذ بنا
فهذي جنودٌ جُمِّعتْ ونقودُ

خليفتَنا ياذا الرشاد أعدْلنا
شئوناً لها بعدَ الهبوط صُعُود

خليفتَنا ياذا الحميّةِ لاتدعْ
لزيدٍ بدا في الغربِ فهو حقود

لنا الشرفُ الأعلى إذا كنتَ قائدا
لحملتِنا فانهض فأنت عميد (١)

---

(١) السابق عدد ٤٤٢ سنة ١٩١١م بيروت .

وتكرار نداء الخليفة على النحو الذى ساقه الشاعر فيه إشعار بانه هو معقد الرجاء ، ولا أمل فى النصر إلا أن يؤازر المجاهدين بجند من عنده ، لاسيما وقد جمعت الأموال من ذوى النخوة .

ونداؤه "ياذا الرشاد" فيه تورية باسمه ، إذ كان "محمد رشاد" هو الخليفة أيامها .

وفى الأبيات على ضعفها وتهافتها شعور يسود عامة المسلمين ببغى الغرب وعدوانه ، واغتنامه فرصة فرقة المسلمين وضعفهم .

ومع أول هجوم إيطالى على "طرابلس" كان "شكيب أرسلان" فى ساحة المعركة فى "الجبل الأخضر" يرسل صيحة مدوية يستنفر فيها المسلمين إلى المضى لساحة الجهاد ، ويؤكد أن السبب فى تطاول العدو هو سكوننا عن مناجزته ، ويوضح أن من أراد العلا فعليه بالقوة والصبر على كرات الليالى والأيام .

سراعاً بنى أمى بِحَتٍّ ظُعُونِهـا
فما حرّك الآلامَ غيرُ سكونِهـا

....

لعمرو المَعالى ماعدوّنَ ديارَنـا
ولاخَرِبَتْ إلا بطُول هدونِهـا

....

يَعافون موروَدَ الصّعابِ إلى العُلا
ولامجدَ إلا بارتقاءِ حَزونِهـا
فمَن يُردِ الأيامَ بيضاً فلايَكُن
جزوعاً لكراتِ الليالى بجُونها

ويقول : إن الطليان مصممون على الإجهاز على الأمة ، ويؤكد تأكيد من مقلته التجربة ، أنهم حاقدون ولايمكن أن يزول حقدهم علينا ، وأن عدوانهم لأظهر دليل على ذلك .

تَعدّوا حدودَ الصبر حيفاً بأمّة
غدَوا لِبَدَاً في عزمِ قطعِ وتينِها

وقد طالما بتنا نُغَالطُ أنفساً
ونَبغى من الأعلاج سلَّ ضُغونها

إلى أن تجلّى العزمُ لاحجبَ دونه
وقصّر بالأعذار نصٌّ مبينها

ويستحث العرب خاصة أن يستبسلوا فى الذود عن البلاد ، ويظهر حزنه وأساه على اخوته الطرابلسيين ومايلقونه من عنت وماهم فيه من بؤس ، ويستنهض الهمم ببيان أن الأمة إن رضيت بذلك الضيم الذى حاق بالأهل ، فإن المذلة ستحيق بها من جراء نكوصها عن الجهاد ، لذا يعلن أن وقوف المسلمين مع إخوانهم واجب تحتمه صلة الرحم والقرابة ، قضاءً لبعض الواجب ، ويقسم أنه لن يقبل الضيم ، ولن يلتذ بالمنام ، مادام الإخوة يكابدون المشاق .

فدونكموا ياأيها العرب حملةٌ
نزاريةٌ فاستَبْسِلوا لزَبونها

وصونوا ذِمارَ المُلك شدّاً فلم يَمِلْ
سروجَ المطايا غيرُ رَخوٍ وَضينها

هُناك لنا فى جانب الغرب إخوةٌ
تسومُهمُ البؤسَ العِدى بفنونها

بكينا لها نحنُ الأُولى ماتَعوّدَت
مدامِعُهم فى الخطبِ بذلَ مَصُونها

فإن نحنُ قارَرْنا على ضيمِ أهلِنا
فهيهاتَ نرجو العزَّ مِن بعدِهونِها

ترى النفسُ دِينا وقفةً فى صفوفها
قضاءً عن الأرحامِ بعضَ ديونها

فما الشامُ والنيلُ السعيد ودجلةٌ
سواها لدى أفراحِها وشجونها

ووالله لا أعطى المَقادَ لظالمٍ
ولمّا أرِدْ بالنّفس حوض منونها

إذا باتَ إخوانى ببرقةَ شُهَّدًا
فكيف تنامُ العينُ ملءَ جفونها (١)

والشاعر فى هذه القصيدة كان أقرب إلى المفكر منه إلى الشاعر ، فهو يفلسف القضية ليبين الخطر المحدق ، وفى بعض ألفاظه جزالة تذكرنا بالشعر العربى القديم كالظعون والسروج والوضين ، وماذلك إلا لأنه يطلب الجهاد وتلك من عدته .

ومن صدق الشاعر فى جهاده ودعوته أنه عد أهل طرابلس وبرقة تارة أهلا وأخرى إخوة .

ويستنفر "ولى الدين يكن" (٢) مخاطبيه للتقدم لميدان

---

(١) ديوانه ص ١٠٤ ومابعدها .

(٢) ولى الدين بن حسن سرى بن إبراهيم باشا يكن ، ولد سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣ بالاستانة ، وأتى إلى القاهرة طفلا فتوفى أبوه وعمره ست سنوات فكفله عمه ، تعلم عددا من اللغات كالفرنسية واليونانية والإنجليزية إلى جانب التركية والعربية ، عين عضوا فى مجلس المعارف الكبير فى عهد السلطان عبد الحميد ، له ميولات طورانية لذا نفى إلى سيواس ، فحمل على السلطان فى بعض كتاباته ، رجع إلى مصر عند قيام الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨م ، له عدد من المؤلفات ذات أسلوب رفيع منها "المعلوم والمجهول" ، و"الصحائف السود" ، وديوان شعر . توفى سنة ١٣٣٩هـ/١٩٢١م .
انظر : الأعلام .

القتـال ، ويقسـم أنهـم لن يتركوا "طرابلس" تداس وتدنس من قبـل الطليـان إلاّ أن تـروى أرضهـا بـالدماء ، وتحول بحارها حـمرة ، وآفاقهـا ظلمة ، عندئذ فاللوم على المعتدى فى تلك الكوارث .

ياعلمُ اخفق ياطبولُ ارعدى	ويا أسودُ استقدمى للأمَـامْ
والله لانترُكهـا للعِـدَى	تدوسُ بالأرجل تلك العظـام
حتى تُروَّى أرضُهـا مـن دمٍ	وتختفى بطاحُها فى الزِّمام
وتصبح الدأماءُ فى حُمـرةٍ	وتغتدى آفاقُهـا فى ظـلام
فلا يلمنـا بعدهـا لائـمٌ	من أيقظَ الشّرَّ عليه الملام (١)

والأبيـات قويـة كأنمـا أعـدت لتكـون حـداء الـذاهبين للمعركـة ، وألفـاظ الأمر تلمس فى الدعوة للحرب ، فالعلم والطبول من علامات الاستنفار للمعركة .

وفى تهديده يدعو إلى التضييق على العدو فى كل الجهات ويلحظ الصور الخيالية للمعركة في ذهنه ، فالأرض ستسيل دما والبطاح ستملأ من أشلاء القتلى ، والبحور سينقلب لونها حمرة والسماء يعمها الظلام من الغبار والدخان .

علـى أن القصيـدة كمـا ذكر الدكتور "محمد محمد حسين" "تخلـو مـن كـل إشـارة للإسلام فهو لايستنهض الهمم فيها باسم الدين ، ولكنه يستنهضها باسم الحمية لأرض الوطن ..." (٢) .

ولايـرى الباحث بأسا فى ذلك ، فالدفاع عنها باسم الأرض دفاع عنها باسم الدين .

وينظـم "الكـاظمى" مطولـة رائعـة تفيض حماسة وجدية ، يبدأها بمطلع حماسى يبين من خلاله دور القوة ، وكونها أساس

---

(١) ديوانه ص ٤٩ ، ط/المقتطف ، مصر .
(٢) الاتجاهات الوطنية ١/٥٥ .

المجد ، حاثا الناس على الدفاع عن "برقة وطرابلس" ، متسائلا كيف يطيب العيش وهما يعانيان من ظلم العدو ، الذى دمر كل شىء ، مما حتم نصرتها بالنفس والمال (١) ، ويؤكد أن العدو إن تسلّط على دار الإسلام فسيستاصل كل شىء .

لايَصدق السيفُ مالم تَصدق الهِمَمُ
بالساعدِ الفَتْلِ يمضى الصارمُ الخَذِمُ

إذا العُمامَةُ هبّتْ من مكامنِها
تمزّق الخَطْبُ وانجابت بها الغُمَم

الدهر يَخفِض من غُلَوائه رَهَبا
إن جالَ ذو هِمّة أو صال معتزمُ

....

لامجدَ أرفعُ من مجدٍ قواعدُه
عواملُ السمْر والمَأثورَةُ الخَذم

ولاعُلاَ كَعُلاً يغدو بساحتها
الموتُ يحكمُ والأرواحُ تختصم

عَمّ البلاءُ ألا حَشْداءُ واقيةٌ
جَقّ الزّواء ألا وطفاءُ تنسجم

....

من ذا يَقِرّ له جنبٌ ومضطجَعُ
والبيتُ مضطربُ الأركانِ والحرم

ببرقةٍ وبنى غازى وأختهما
أغنِي طرابُلسَ عاث الأزْلَمُ الغَشِم

خَبا سناها وأقوت دورُها وخَوَت
رِباعُها وعَفت آثارُها القدم

---

(١) كما مر بنا .

أَخْنَت عليها الأعادى فى مآمنها
فاقفرت وعَدَاها الوابلُ الـرَّذِمُ

أهل العزيمةليس اليوم يوم ونى
وليس يُحمَدُ بعد اليوم مُعتَزِم

هذى طرابُلْس تدعوكمْ لنجدتها
فشاطِرُوها الأسى أو تُفْرَجُ الأَزَم

وبتلك الروح الحماسية يمضى فى كل القصيدة ، وبين مقطع وآخر يعاود التأكيد على دور القوة ، ووجوب الرد على المعتدى ، وعدم اليأس من النصر ، وأن لابد أن نثخن فى العدو ان أردنا أن نحمى حوزة الإسلام .

ويستجيش عواطف المجاهدين الإسلامية ، ببيان ما أعد لهم مستلهما قول الله تعالى {قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين}(١) النصر أو الشهادة ، إذ يخلد ذكره فى صفحات الشهداء ، أو يعيش مرفوع الرأس بما قدم .

ويابنى الشرق لاتخمدْ عزائمُكم
إن الفضيلةَ للقومِ الأُولى عزموا

قوائدُ الغيدِ قاموا يعبثون بكم
كِيلُوالهم كَيلَهم فالمُعْتَدون همُ

شيموا العزائم وانضوا من مضاربها
فللعزائم يعْنُو السيفُ والقلم

لاتشتكوا لِسوى الصمْصَامِ مَظلُمَةً
الفاصلُ الموتُ والصمصامةُ الحَكَم

ولاتَرجُّوا معيناً غيرَ أنفُسِكم
بغير انفسِكم لايُشتفى الألم

(١) سورة التوبة : ٥٢

لانَمصفَ يحفظُ للإسلام منعتَه
مالم تُر البيضُ بالهامات تنثلِمُ

جِدُّوا ولاتجعلوا لليأس عندَكمُ
نهجا يسيرُ عليه الأهيبُ البَرِم

اليأسُ خطٌ متى تُرسمْ دوائرُهُ
فالجبنُ في كل حرف منه مُرْتَسِم

وياحماةَ طرابُلْس وذادتَها
الحمدُ يعلو بكم والذكرُ يَحتَشِم

هذى مخارمُ (1) صرح المجد فامتلكوا
وذى مقالدُ بابِ الفخر فاستلِموا

من مات منكم شهيدا مات عن شرفٍ
تُمحي الدهور ولاتمحى له رقم (2)

ونقرا مطلع القصيدة فيتداعى إلى أذهاننا قصيدة "أبى تمام"، فى فتح "عمورية" فنجدها على نفس الوزن ، وفيها الكثير من الألفاظ الغريبة نحو الخذم ، الأزلم الغشم ، الرذم ، وكذا وجود بعض الألفاظ التى يكثر دورانها فى البيئة البدوية "خبت ، واقوت ، رباعها ، عفت ، أخنت" .

والشاعر طويل النفس فى معظم قصائده ومنها هذه القصيدة وكلها قوة وحماسة .

ويحفل هذا المقطع بعدد من الصور البديعة كقوله :

إذا الغُمامةُ هبّت من مكامِنِها
تمزّق الخطب وانجابت بها الغُمَمُ

---

(1) مخارم : الطريق فى الجبل .
(2) ديوانه ١/٩٩-١٠٨ .

لامجدَ أرفعُ من مجدٍ قواعدُه   عواملُ السمر والمأثورةُ الخَذِمُ

وقوله :

اليأسَ خطٌ متى تُرسم دوائرُه   فالجبنُ فى كلِّ حرف منه مُرتَسِمُ

وتركيزه على الأخذ بالقوة دلالة على إحساس الشاعر بأن الأمة افتقدت ذلك مما جعله يكرر هذا الأمر للتنبيه إلى خطورته .

ويدعو "الرصافى" - فى إحدى قصائده - المسلمين إلى حمل السيف ، والنهوض إلى ساحة المعركة ، لنجدة تلك البلاد .

ألا انهض وشمّر أيّها الشرقُ للحربِ

وقبّل غِرارَ السيف وارسل هوى الكُتبِ

بلادٌ غدت فى الحرب تَندُبُ أهلَها

فتَبكى وتَستبكى بنى التُرك والعُرب

قدِ اغتالها الطُليان وهى بمَضجَعٍ

من الأمن لم يُقْضَضْ برُعب على الجنبِ (١)

ويخاطب "محمد حسن أبى المحاسن" المسلمين وينذرهم ذلك الخطر المليبى الداهم ووجوب مواجهته نصرة للإسلام ، ووقوفا فى وجه المطامع الأوربية .

خَطرٌ مامثلُه من خَطَر   طُرِقَ الإسلامُ من كلِّ حَدَبْ

إنّها حربُ المليب انبعثتْ   فابعثوها وهى تَرمى باللهب

ماوراء الدين تُرجى غايةٌ   وإذا لم ننصر الدين ذَهَب

أيها الشرق انتبه من نومةٍ   ضَجّتِ الأعصرُ منها والحِقَب

ما أراك اليوم إلاّ مغنماً   عاد مقسوما ونهباً يُنتهب

فاضرب التقسيمَ بالسيفِ تَكُن   حاسماً فيه أمانىَ مَن حَسب (٢)

---

(١) ديوانه ١/٤٧٨ .
(٢) مجلة كلية الآداب جامعة بغداد عدد ٧ ، ص ٢٢١ ابراهيم الوائلى .

وجلى أن الشاعر واضح العبارة ، مستجيشا للعاطفة الإسلامية تجاه المطامع الصليبية التي تريد ابتلاع البلاد الإسلامية .

وظاهر أن أكثر شعراء العصر ومنهم هذا الشاعر ، جعلوا قصيدة "أبي تمام" نبراسا لهم ، ومنهلا يردونه ، مما يعد عاملا من عوامل الإحياء .

وأما "عبد الحليم المصرى" فبروح الجندية التي تسرى في دمه يحادث السلطان "محمد رشاد" مستحثا إياه أن يحمى الملك من الغزاة ، الذين يدنسون أرض المسلمين ، وأن يستنفر المسلمين الذين هم طوع بنانه لمقارعة العدو .

بالسيفِ بالرمحِ بالقرطاسِ بالقلمِ
صونُوا حمى المُلك واحموا حَوزةَ العلمِ

ياصاحب التاج هذى أمةٌ بدأتْ
تدنّس الأرضَ فاغسلْ أرضَها بِدَمِ

في الشرق جند إذا ناديت عن كثب
عدا إليك على جنٍّ بلا لُجُمِ

ويدعو المسلمين إلى أن يراقبوا الله ويتقوه في المحافظة على دينهم وأوطانهم ، ويبرز مكانة طرابلس ، وأنها إن ضاعت فستضيع مصر والحرمان ويذكّرهم أن يستنصروا الله ويطلبوا منه العون والنصر .

ثم يعود إلى الخليفة ويطلب منه الإذن للجيش بالمشاركة - مما يوحى بأن الجيش الرسمى العثماني وبخاصة الموجود في المشرق لم يشارك إلا متأخرا - ثم يظهر الشاعر حزنه وأساه على الشرق إذ أضحى بلاقادة يذودون عنه .

أتصبرونَ على قومٍ نمـاردةٍ
حتى تُباعوا بسوقِ الشّاءِ والنَّعمِ

اللهَ في الدين إن الدين صارَ على
صحيفةِ الموت متلوّاً بكلِّ فَمِ

إذا طرابُلْسُ ضاعت فالسلامُ على
من في الكنانة والبيتينِ والحرم

فاستصرخوا الله ينصرْكم على نفرٍ
طغى عليكم وأرْبى غير مُحتَشِم

مُلْكَ الرّشاد أتغدو العربُ قاطبةً
تجارةً فيك مُزجاةً إلى العجم

فاقذف بجيشك لاتحذر عليه أذىً
في كلِّ مضطرب الأذىّ مضطرم

وَيّحيى على الشرق غِيلٌ لاأُسُودَ له
وكم أسودٍ بلا غِيلٍ ولاأَجَمِ (١)

والشاعر مثله مثل غيره من شُعراء العصر يستحضر جدة القصائد العربية ألفاظا ووزنا ومعنى ، ناهيك (٢) بحضور بيت المتنبي المشهور :

فالخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني
والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ (٣)

وصورة التشبيه والكناية في قوله :

وَيحيى على الشرق غيل لاأسودَ له
وكَمْ أسود بلا غِيلٍ ولاأَجَمِ

---

(١) ديوانه ١/٨١-٨٤ .
(٢) كما يقول الدكتور عبده بدوى عن بائية أبى تمام .
(٣) ديوانه ٣٦٩/٣ .

أبانت عن رؤية الشاعر لمكانة الشرق من الناحية العسكرية ، وكذا رؤيته للطاقات المهدرة من العقول الشرقية مما يمكن توظيفه فى خدمة المعركة .

"اللهَ فى الدين" أى خافوا الله وحافظوا على الدين ، فكل مايهدد وجودكم وكرامتكم، ويكشف من جهة عن روح الشاعر الدينية .

وفى قصيدة أخرى يثير حمية المسلمين ويحرضهم على الجهاد ، ويطلبهم أن يأخذوا بأسباب القوة فى تساؤل مشفوع بالتحريض والإثارة ، ويدعوهم إلى أن يحموا إخوانهم ، ويخاطب الجيش ويأمر بمشاركته وتسييره إلى ساحة القتال .

تَطوّع يافتى الهَيْجا تطوّعْ ... لأنتَ بمنبرِ الْهَيْجاء مُصْقِع

فصفها إن سلمت وقل وأَسْمِع ... "فانّ القولَ ماقالتْ حَذامِ"

....

بَني الإسلام من عَرب وترك ... أيُصبحُ عرشُكم مِن غيرِ مُلكٍ

ويُجْرى بحركم من غير فُلكٍ ... ويُرعى بركم من غير حامِ

بني عثمان بالجيش المغازى ... بشوكتكم بأنورَ بل نيازى

بمكةَ بالمدينةِ بالحجاز ... ببيت القُدس بالبيتِ الحرامِ

....

أَجيروا ذلك الشعبَ الحزينا ... لأنتم جاهُهُ دنيا ودينا

فداوُّوا ذلك الداء الدفينا ... وحُلّوا عُقدةَ الخَطب الجسام

أطيروا فى الوغى هذا النسورا ... أسيروا ذلك الجيش الوقورا

أثيروا ذلك الأسدَ الهصُورا ... وأَوْرُوا زنده تحت القَتامِ (١)

والقصيدة تحمل روحا حماسية عالية ، وكأنَّ الشاعر قالها لينطلق المجاهدون لترديدها فى ساحة القتال ،

---

(١) ديوانه ١/٨٧-٩٠ .

وماتحمله من لغة سهلة يتعانق مع بحر القصيدة وقافيتها وماتثيره من انفعال ومشاركة .

ويقام فى "الآستانة" حفلة للنادى العربى ، ألقى فيها الشاعر العراقى "محمد حبيب العبيدى"(١) قصيدة تربو على خمسمائة بيت ، "يجول الشاعر فيها جولة طويلة فى التاريخ الإسلامى والعربى مذكرا الشعوب الإسلامية والعربية بماكانت عليه من عزة وكرامة ... ويقف متسائلا كيف يرضى هؤلاء الأحرار ان يكونوا أذلة ، وكيف يرضون للاستعمار أن يستعبدهم ، وهم الذين ماعرفوا الاستعمار الذى هو مرادف للموت"(٢) ، ويشحذ الهمم ويدعو إلى الاخذ بأسباب القوة والتقدم ، ويسأل عن اسباب النقمة على المسلمين .

سَهِرَتْ كُلُّ أمةٍ وَرَقَدْنا
فلها الذكرُ دوننا والثناءُ
كيفَ ترضى ياشرق أن يكسب الغر
بُ فَخارا من دونِك العلياء
كيف ترضى ياشرق أن يمشى الغر
ب أماما وأنت تمشى وراء

---

(١) محمد حبيب بن سليمان بن عبد الله العبيدى ، ولد سنة ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م ، من أهل الإفتاء ، اتقن الفارسية والتركية ، كان مواليا للعثمانيين حتى آخر لحظة وكتب الكتابات المؤيدة لهم داعيا إلى الجهاد معهم إبان الحرب العالمية الأولى ، هرب إلى الهند واعتقله الانجليز بها ، ناصر ثورة العراق ، وانتخب مفتيا للموصل ونائبا عنها ، له عدد من المؤلفات منها "حبل الاعتصام ووجوب الخلافة فى دين الإسلام" ، "الفتوى الشرعية فى جهاد الصهيونية" ، وديوان شعر ، توفى سنة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .
انظر : الأعلام ٦/

(٢) الشعر العراقى الحديث ص ٤٦-٤٧ .

أَنُسَامُ الهوانَ دون المنايا
إنّما الموتُ والهوانُ سواءُ

ليس دارُ الهوان للحرِّ داراً
إنّما الحرُّ دارُه الجوزاء

يابنى الضادِ إنّ للضاد حقاً
ناطحت دون هضمِهِ الآباء

إن رضينا غير الكرامة وِرْداً
غَصّ منا بشارِبيهِ الماء

ليتَ شعرى ماينقمُ الغربُ منّا
ام على أبصارٍ هناك غِشاء

ليت شعرى ماينقمُ العُمْىُ منّا
رب قوم أرضٌ ونحن سماء (١)

والقصيدة بطولها تدل على مقدرة فى النظم وطول نفس لم نالفه إلا عند الشعراء الرواد "كشوقى ومحرم" ، ويلحظ فى هذا المقطع كثرة أدوات الاستفهام ، وماتحدثه من إشارة ، كما أن قوله "سهرت ..." يدل على اقتناع تام بتاخر الأمة عن ركب الحضارة .

ويهيب "محمد سعيد العباسى" (٢) بالأمة أن تصبر على الحرب وأن تاخذ بأسباب القوة لرد العدو ، ويستنفر المسلمين

---

(١) ديوانه "ذكرى حبيب" ديوان السيد محمد حبيب العبيدى ص ٨ ، ط/الجمهورية ، تحقيق أحمد الفنجرى .

(٢) محمد سعيد العباسى ، ولد سنة ١٩٢٩هـ/١٨٨١م سافر إلى مصر للدراسة بالمدرسة الحربية ثم استقال ورجع إلى السودان ليلازم اباه ، من طليعة الشعراء فى السودان إبان النهضة ، أحب كل ماهو عربى وإسلامى ، مع كره للغرب المستعمر ولحضارته ، لأنها أذلت بنى قومه ، يمتاز شعره بالجزالة شأنه شأن شعراء العصر الناهضين. انظر : الشعر والشعراء فى السودان ص ٤٤ ، ط/دار المعارف بيروت ، أحمد أبو الأسعد .

للذود عن بلادهم ، ولايتركوها لكل طامع ، كيف لا وقد أبيح الحمى ، وامتهنت الأعراض ، ويدعو إلى الجهاد والظفر بإحدى الحسنيين .

مكانكمو إنّ الفخارَ هو الصبرُ
إذا اشتبكتْ بيضُ الظُّبَا والقَنَا السُّمْرُ

إذا ضاقَ ذرعُ المرءِ ممّا ينوبُه
فليس له إلاّ المهندةُ البُتْر

فما رَجُلُ الدنيا سوى من يُعِدّها
لنجدته إن مسّهُ حادثٌ نُكْر

الا يابنى الإسلام هذا حِمَاكُم
وهذاك نورُ الحق فى ضوئهِ فاسروا

فإنى أرى الأيامَ تبدو كأنما
لها فيكم فى كل شَارِقَةٍ وَتْر

أُبيحَ حِمَاكُم واستُهينَ حريمُكم
واقوت ديارُ الحق واستُبدل البِشْر

ولابدّ إن لم تجعلوا السيف حاكماً
تفورُ بكم فى كل آونةٍ قِدْر

. . . .

الا يابنى عثمان والعرب الألى
مَضَوْا وهُمُو فى الكَوْن أَنجُمُه الزُّهْر

عليكم بإحدى الحسنيين فإنّما
هى الظفرُ المُبقى علاكُم أو القبر (١)

والشاعر يعارض أبا تمام فى رائيته المشهورة كما سيأتى ، والتى مطلعها :

---

(١) ديوان العباسى ١٠٥/٢ ومابعدها .

كذا فليَجلّ الخطبُ وليَفدح الأمر
فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عذر [1]

ويستحث "فؤاد الخطيب" [2] الناس أن يجابهوا العدو ويمدوا العون لاخوانهم ويلبي كل مجاهد نداء الأعظم من تحت الثرى تصرخ طالبة الثأر .

هل تُحْجِمُون وحبلُ الدين منصرم
أم تجزعون وفيكم ذلك الشمَمُ

إخوانُكم يابني الإنسانِ تسألُكمْ
عطفا وإن تبخلوا فاللهُ مُنتَقِم

لاتجعلوا القولَ عَونا في الخطوب بكم
أين الفعالُ وماذا تنفَعُ الكَلِم

ياصاحبَ السيفِ والآجالُ واحدةٌ
أسرعْ إلى السَّيف لازلّتْ بك القدم

ياآل عثمان من تُركٍ ومن عربٍ
هُبُّوا فقد صرخت تحت الثرى الرِّمَم

ياللخلافة قد ضاقت محاربُها
ياللمروءةِ والمظلومِ مُتَّهَم

أجدادكم يارجال الشرق ترقُبُكم
لا الغيبُ يحجبُكم عنها ولا العدم

---

(١) ديوانه ٧٩/٤ ومابعدها .

(٢) فؤاد بن حسن الخطيب ، ولد سنة ١٢٩٦هـ/١٨٨٠م بلبنان ، درس في الجامعة الأمريكية ، بدأ نشاطه السري سنة ١٩٠٤م ، درس في الكلية الأرثوذكسية ، فر إلى مصر بعد أن حكم عليه بالإعدام ، انضم للثورة العربية ، وعين في مناصب كثيرة إبان حكم فيصل على العراق ، ثم في حكم عبد الله بالأردن ، ثم عقد صلته بعبد العزيز آل سعود ، وعينه أخيرا سفيرا له بأفغانستان ، استمر بذلك إلى أن توفي سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م ، له ديوان شعر مطبوع .
انظر : مقدمة ديوانه ، الأعلام ٥/

لاتطلبوا من بنى الطليان صالحةً
إن الرزيّةَ فى أرجائهم عَمَمُ (١)

استخدم الشاعر أسلوب الانشاء كالاستفهام والأمر والنهى لذا كانت ألفاظه حماسية ، مما يناسب الاستثارة ، وأدعى لافاقة الغافل .

ويحذر "نسيب أرسلان" (٢) من قبول الهدنة ، وعدم الانخداع بأمانى العدو ، بعد أن اشتبك المجاهدون معهم ، ويؤكد الانتماء للخلافة ، ومناصرتها .

علامَ نرومُ الصلحَ والصلحُ شائنٌ
إذا كان منّانَا العدوُّ بما مَنّى
وأىُّ خسارٍ قد حملنا ببَرْقةٍ
وأىُّ خميسٍ فى مدارِجِها سُقنا
فللحرب أهلوها ونحن بنَجْوَةٍ
فما ندّعى فضلاً عليهم ولامنّا

....

ولو لم يكونوا للخليفةِ شيْعةً
لما شمّروا ذيلا ولارفعوا رُدْنا
فلاصلح إلاّ أن نصونَ ديارَنا
وإلاّ تقلّدْنَا الغفاضةَ ماعشنا (٣)

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الشعر الليبى الحديث ٢٦٠/١ ، د. محمد عفيفى ، دار الكشاف ، بيروت ، ولم أجدها فى ديوانه .

(٢) نسيب بن حمود حسن بن يونس أرسلان ، ولد سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م ، تعلم فى بيروت ، والشويفات ، أحب الشعر الجاهلى وحفظ كثيرا منه ، عين مديرا للشويفات ثم أعفى ، عين عضوا فى نادى الاتحاد والترقى ثم تركه ، وآثر العزلة فى أخريات حياته ، له مسرحية شعرية "واقعة سيف بن ذى يزن مع الحبشة" ، وديوان شعر ، مات سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م .
انظر : مقدمة ديوانه ، الأعلام ٨/

(٣) ديوانه : روض الشقيق فى الجزل الرقيق ص ٥٣ ، ط/ابن زيدون ، تحقيق شكيب أرسلان .

ويستثير "محمد بن محمود" "آل عثمان" لحماية طرابلس ويبين أن العدو يريد القضاء على الإسلام ، ويستفهم مقررا أنه لاسند للإسلام بعد آل عثمان لذا فالواجب الوقوف إلى جانبهم لأنه نصر لدين الله :

يا آلَ عثمان وليس سواكم — حام لنا أنتم حُماةُ ذِمَارِ
ليستْ طرابلساً سوى أُحبولةً — نُصِبَتْ لكم من طامعٍ غدّار
كيما يزال الدينُ دينَ محمدٍ — والدينُ جمٌّ الحولِ والأنصار
ويُرَى الهلالُ ولاراوه مُنَكّساً — خزيانَ يرجو عنه كشفَ العار
هل بَعْدَكم للمسلمين ودينهم — من عاصمٍ في ذلك الزَّخّار
حقٌّ علينا نصرُكم إذ أنّه — نصرٌ لدينِ الواحدِ القهّار (١)

وكأني بالشاعر وقد خص الأسرة الحاكمة بالخطاب يرد على الأصوات التي تنادي بتخلي العثمانيين عن حكم المسلمين ، وقيام الطورانيين والعرب كل في مكانه بحكم بلاده ، فهي دعوة إلى الالتفاف حول الخلافة ونصرتها ممثلة في آل عثمان .

ويخاطب "الكاشف" الخليفة العثماني في مطلع قصيدته ، ويؤكد وقوف المسلمين إلى جانب الخليفة ، فما عليه إلا المضي في رد العدوان ، وأخذ العدة لمجابهته بالقوة ، فهي الحكم والفيصل إذ لاشيء يجدي غيرها ، بعد أن كشَر العدو عن أنيابه ، وأخذ يحوك الدسائس .

المؤمنون إليك مُشْتَبِقونَا
لذمارهم وديارهم قَاذُونا
فاحشُد كتائبَك التي أعددْتَها
للحقِّ أبلجَ والرجاءِ متينا

---

(١) ديوانه ٩٤/٢ ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة .

وخذِ الوفاءَ من الصَّوارم والقَنا
إنْ لم تَجدْ من دهرِك الموفونا
واتركْ لقوتِك الرّهيبةِ حكمَها
تجدِ العُداةَ إليك يحتكمونا
فإذا امتلكْتَ البأسَ فيهم غالباً
فقد امتلكْتَ العَدْلَ والقانونا
عظْ يا أميرَ المؤمنين ممالكاً
ذَهَبَتْ شِمالاً بالأذى ويمينا
خافت جميلَك أن ينالَ من الورى
مالاً تنالُ شراسةُ الباغينا
باتَتْ تَمُدُّ لك المصايدَ عُنوةً
حيناً وتختلِسُ المكايدَ حينا (١)

فالشاعر يلتقي مع كثير من شعراء العصر إلى وجوب امتلاك القوة إذ أن العدو لايفهم غير ذلك المنطق .

وأسلوب الشاعر سهل وألفاظه لاغرابة فيها ، كما أنه حشد في هذا الجزء مجموعة من أفعال الأمر ، ومايقتضيه من سرعة فعل المطلوب وقوله "المؤمنين" ، وأمير المؤمنين ، من باب تأكيد أحقية "محمد رشاد" لأمارة المسلمين .

وأما "محمد عبد المطلب" فيتخذ في سبيل الحث على مواجهة العدو فكرة استلهام ماضي المسلمين الأول ، ومافيه من عبر يجب على الأمة معرفتها لتسلك ذلك السبيل الذي قاد الأولين إلى مواطن العزة والكرامة .

ويورد تساؤلا مشفوعا بالحسرة من أول القصيدة عن القوة

---

(١) ديوانه ٢/١٧ .

ونكوص المسلمين عن الأخذ بها ، فأين الجيش الإسلامي المستجيب لداعي الجهاد .

ويعرض صورا مشرقة لبطولة المسلمين الأوائل ممثلين في الرسول القدوة - صلى الله عليه وسلم - وكذا بعض من تربى على يده رضوان الله عليهم . واصفا شجاعتهم وحلمهم وكرمهم ليصل بذلك إلى حال المسلمين عامة ومسلمي طرابلس خاصة وماهم فيه من مشقة ، ثم يعبر عن حزنه وألمه تجاههم ، نادبا المسلمين إلى الجهاد ورد كيد المعتدين .

بني أُمِّنا أين الخَميسُ المُدَرَّبُ
وأين العوالي والحُسام المُذَرَّبُ

إذا اهتزَّ في نصرِ الحنيفِ تساقطت
نفوسُ العِدَى من حدِّه تتحلَّبُ

وأين النفوسُ اللاءِ كُنَّ إذا دعا
إلى الله داعي الموت في الموت ترغبُ

وأين الجيادُ اللاءِ كانت إذا دعا
مثوِّب خيلَ اللهِ للهِ تركبُ

وأين الليوثُ الغُلْبُ في كلِّ مرقبٍ
يهولُ العِدَى منها رُبوض ووُثَّبُ

وأين قلوبٌ يشهدُ الصخرُ أنها
غداةَ الوغى منهُ أشدُّ وأصلبُ

وأين الحُلومُ الراجحاتُ إذا عرا
سنى الرُّشد من ليلِ الحوادثِ غيهبُ

وأين الوجوهُ الصُّبحُ والدَّهرُ ساهمٌ
وبيضُ الظُّبى بالهامِ تَلهو وتَلعبُ

وأين العطاءُ الجمُّ في كلِّ عُسْرةٍ
يمرُّ بها عامٌ من المَحلِ أشهبُ

جزى اللهُ بالرّضوان والخيرِ عُصبةً
لخيرِ بنى الدّنيا جميعاً تَعصّبوا
جزى اللهُ فرداً قامَ بالأمرِ وحْدَه
وما النّاسُ إلّا كافرٌ ومكذِّبُ

....

فلم يُفلحوا كيداً وضلّوا طريقَةً
كذلك كيدُ الخائنين مُخَيَّبُ
فللّهِ يومُ الغار والغارُ جُنّةٌ
وجندُ العدى يغدوا إليه ويَذهبُ
ونعم رفيقُ الغار يَلْقى برجلِهِ
سِمَامَ الأفاعى دونَه حين يلسبُ
جزى اللهُ خيراً شيخَ تَيْمٍ وجندَهُ
وراياتُه فى الشّرقِ والغربِ تَضربُ

....

كذلك سيفُ اللّهِ أمّا نُفيتَهُ
على الكفرِ لاينبو لحدّيه مَضربُ
وللدّين بالفاروقِ من بعدُ مُولَةٌ
تَثُلُّ عروشَ الدولتين وتقلِبُ

....

فلله سعدٌ يومَ يَزحفُ جيشُهُ
على الفرس لايلوى ولايَتهيّبُ

....

هنالك يهوى عرشُ كسرى وبعدَه
عن الرّوم سلطانُ القياصر يَذهبُ
يمزّقهم عثمانُ كلَّ ممزّقٍ
فيعلو منارُ الحقِّ والحقُّ أغلبُ

خليليَّ مالى إذْ تذكَّرْت برقةً
بجنبيَّ نيرانُ الأسى تتلهَّبُ
نعمْ راعنى من نحوِ بُرقةَ صارخٌ
يُهيبُ بأنصار الهلال ألا اركبوا
دعا صارخُ الإسلامِ يابنى الهُدى
أغارَ العدى أين الحُسامُ المُشطبُ
كأنّى به يدعو الخلافةَ مُسمِعاً
كأنّى به فى المسلمين يُثوِّبُ (١)

وكرر الشاعر الاستفهام ليزيد من انفعال المتلقى ، ونوع الاستفهام ، وأوغل فى الاستقصاء ، والاسترجاع التاريخى وإنعاش المتلقى بذلك الشعور والدور الذى نمت فيه الأمة ، ومايحمله من شحذ للهمم فى أن تسلك نفس الطريق .

ونجد هذه الروح ذاتها عند "أحمد محرم" فى إحدى قصائده ، فيعبر عن حزنه ، وحزن الأمة معه لهول تلك الحرب ، فيهجم على موضوعه متسائلا ، كيف يطيب القرار ، وتلتذ الأعين بالنوم والنار تستعر .

ويجسد الهلال - راية العثمانيين - إنسانا يحذر ويخاف ويراقب ماتأتى به الأقدار .

ويرتاع الحطيم ويثرب ، والبيت ومن حوله من هول المصاب ، ويدلف من ذلك إلى السؤال عن أبطال المسلمين الأوائل الذين رفعوا الإسلام "كعمر وعلى وعثمان" ، بل أين الملائكة يقدمهم "جبريل" عليه السلام ، وأين المعامع والوقائع مع القياصرة ، ولايخفى مافى ذلك من حفز لهمم المعاصرين ، لاستجلاء تلك الصورة الرائعة ، واستعادة ذلك

---

(١) ديوانه ص ٢٦-٢٩ .

التاريخ ، إذ يستثير الهمةَ بعد ذلك بصريح العبارة ، فالمحارم ضاعت فأين الحياة إذاً .

أين النفوس الشجاعة ، والعزائم الصلبة ، وأين من اذا دعوا للبذل اجابوا ، وإذا استنفروا للجهاد نفروا .

كيف القرارُ ونارُ الحرب تَسْتَعِرُ
والهولُ مضطرمُ البركان منفجرُ

ويحَ العيون أيَغشاها النُّعاسُ وقد
شفَّ الهلالُ عليها الحزنُ والسَّهَرُ

يَبيتُ يُخفِقُ من خوفٍ ومن حَذَرٍ
حرّانَ يرقبُ مايأتى به القَدَرُ

رِيعَ الحطيمُ فأمسى وهو مُنْتَفِضٌ
واقْلَقَتْ يثربَ الأحزانُ والذِّكَرُ

ويحَ الحجيجِ إذا حانَتْ مناسكُهم
ماذا يَرى طائفٌ منهم ومُعتمرُ

ايطربُ البيتُ أم تبكى جوانبُه
حُزناً ويُعولُ فيه الركنُ والحجر

أين ابنُ عمِّ رسولِ اللهِ يطفئها
حَرْباً على كبدى من نارها شَرَر

أين اللِّواءُ وخيلُ اللهِ يبعثها
عمروٌ ويصرخُ فى آثارها عُمَرُ

أين المقاديمُ من فِهْرٍ ومن مُضَرٍ
ومن قريشٍ وأين السادةُ الغُرَرُ

أين الملائكةُ الأبرارُ يَقدُمُهم
جبريلُ يستبقُ الهيجا ويَبْتَدِر

أين المعامعُ ترفضُّ النفوسُ بها
هَلْكى ويستنُّ فيها النَّصر والظَّفر

أين الوقائعُ تهتزُّ العروشُ لهـا
رُعْباً ، وتنتفض التِّيجانُ والسُّرر
أين القياصرُ مقهورين لاصلفٌ
ينأى بجانبهم عنّا ولاصَعَر
أين الحماةُ وقد ضاعتْ محارمُنا
أين الكفاةُ وأين الذادةُ الغُيُر
أين النفوس ترامى غيرَ هائبةٍ
أين العزائمُ تمضى مابها خَوَر
منْ لي بهمْ معشراً صِيداً غطارفةً
ماضيّعوا ذِمّةً يوما ولاغدروا
إنْ أدْعُهم لجلاءِ الغُمْرةِ ابتدروا
وإنْ أصحْ فيهمُ مُستنفِراً نفروا (١)

والشاعر صادق في كل ماقال ، ففي المقطع الأول من القصيدة يتحدث عن عاطفته وموقفه من تلك الحرب ، مصورا أن حال المسلمين كحاله ، وأنه لاقرار لهم ، ولاحياة إلا بمجابهة العدو .

لذا نجده في البيت السابع يوضح أن نار الحرب أصلت كبده فمن يطفئها ؟

أين ابن عم رسول الله يطفئها
حربا على كبدى من نارها شرر

وفي صوره جعل من الأشياء الجامدة أشياء تحس كالهلال والبيت والحطيم، ولايخفى مافي ذلك من براعة فنية .

وكثرة الاستفهام "بأين" وإتيانه بما ينقذه من الرتابة والآلية دليل آخر على المقدرة والذخيرة الشعرية ، وإلى

(١) ديوانه : السياسيات ١/١٧٩-١٨٠ .

جانب ذلك استلهام التاريخ الناصع للمسلمين وتوظيفه فى استجاشة همم المعاصرين ، وشحذهم لتضحية والفداء .

والشبه واضح بينه وبين "محمد عبد المطلب" فى اعتماد أسلوب الاستفهام والنهل من التاريخ ، مع ملاحظة الفرق فى المعجم اللغوى بينهما .

ولم يملك "عبد المطلب الحلي"(١) نفسه حتى نادى جموع المسلمين بكل كيانه ، اذ آلمه هجودهم وتقاعسهم عن نصرة إخوانهم ، كما أنه يرفض الصلح الذى قبله الخليفة ، فيسأله بجراة دافعها الإخلاص عن حقيقة ذلك ، وهل الخضوع للعدو شأن إمرة المسلمين .(٢)

يارسولي للمسلمين تحمَّلْ ... صرخةً تملأُ الوجودَ رنينا
وتعمَّدْ بطحاءَ مكةَ واهتفْ ... ببني فاطمٍ وكُنْ رَكينا
فالحِراكَ الحِراك يافئةَ اللّهِ ... إلى الحرب لا السكونَ السكونا

....

أبلغا عنّي الخليفةَ قولاً ... غثّه في المقال كان سمينا
أبجِدٍ بالصّلح تَرضى اقتسارا ... هل كذا شأنُ إمرةِ المسلمينا
كيف ترضى بالصّلح والصلحُ عارٌ(٣)
ذاك يأباه سيدُ المرسلينا(٤)

وهذه القصيدة نشرت فى جريدة "الإقبال" مع اختلاف فى بعض أبياتها نحو قوله فى مخاطبة الخليفة وإنكاره عليه :

أبجدٍّ بالصّلح ترضى فنمضي
ننزعُ السِّنَّ بعده نادمينا

---

(١) لم أعثر على ترجمته .
(٢)،(٣) الشعر العراقى الحديث ص ٥٧ .

كيف ترضى بالصلحِ والصلحُ أمرٌ
مسخطٌ للإسلام والمسلمينا
فارفضِ الصلحَ يابنَ مَنْ دوَّخوها
بشبا المُرْهفات روماً وصينا (١)

وآلى "سليمان الباروني" (٢) على نفسه ــ في أثناء الحرب الايطالية ــ ألا يحلق شعره حتى يطهر الوطن من رجس الاستعمار أو يلقى ربه .

هذا هو الشَّعرُ الذي ... شَهِدَ الحروبَ الهائلات
وعليه أُمْطِرت القنا ... بلُ كالصَّواعقِ نازلات
خاضَ المعامعَ لايها ... بُ على الجيادِ الصّافنات
حُبّاً بتطهيرِ الموا ... طنِ من بني الإيطاليات
آليتُ أن يبقى إلى ... أن يَعبرَ الجُندُ القناة
لنرى الغزاةَ على ضفا ... فِ النّيل تفتكُ بالبُغاة
ونرى طرابلسَ العزيـ ... ـزةَ في ليالٍ باهرات
تختالُ في بَرِّ الهنا ... بالإنتصار على الطغاة
وتسودُ أعلامُ الخليفةِ ... في بلادِ الفاتحات
ونرى الهلالَ مُتوِّجاً ... جزرَ المحيطِ الخالدات
إنْ ذاك يُحلق بين أفـ ... ـواجِ الأعاظمِ والغزاة
مابين تهليلٍ وتكبـ ... ـيرٍ وتقديمِ الصّلات (٣)

---

(١) جريدة الاقبال عدد ٤٦٥ في أيلول ١٩١٢م .
(٢) سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني ، ولد سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م ، تعلم في مصر وتونس والجزائر ، كان عضوا في مجلس المبعوثين ، جاهد الطليان ورفض صلح الأتراك معهم ، استقر به المقام في عُمان وأصبح مستشارا لسلطانها لموافقته إياه في المذهب ، ثم مرض وسافر إلى بومباي للاستشفاء فمات بها سنة ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م .
انظر : الأعلام ٣/
(٣) الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي ص ٢٢٥ .

والشاعر لاينسى بهمومه هموم جيرته ، بل يذكر المصريين أيضا ومصابهم بالاحتلال الإنجليزى ، ويتطلع إلى أن يسود حكم العثمانيين جميع البلاد المسلوبة .

ويدعو "محمد بن يحيى الإريانى"(١) اليمنيين بل والعالم الإسلامى إلى النهوض لمقارعة العدو ، بعد أن زحف بخيله ورجله على بلاد المسلمين ، ويأمرهم بالصبر والثبات فى وجهه ويحذرهم من التغافى عن أطماعه فى البلاد الإسلامية .

أَمَعَ العجزِ انت ترجو حُصولا
للمعالى وتبْلُغَ المأمولا

....

فانهضْ مسرعاً بغيرِ توانٍ
وانجد السَّيرَ بُكرةً وأصيلا
واقطع الخافقين برّاً وبحْرا
فرْسخا فرسخًا وميلا فميلا
واقصُدِ السادةَ الكرامَ جميعا
تلقَ عِزّاً سما ومجدا أثيلا
وجميعَ الكُماة فى اليمن الميمو
ن أعنى شبابَها والكهولا
ثم سرْ بالمطيّ شاما وروما
وبلادَ الإسلام عرضا وطولا
قلْ لهم مُعلِناً بأنّ عِداكم
شمَّرت نحوكم تجرُّ الذيولا
أصبحتْ تشتهى التطاولَ اذ سا
قتْ إليكم جيوشَها والخيولا

(١) كان قاضيا وحاكما لميدى ولم أعثر على ترجمته .

فانهضوا نحوهم بجيشٍ خميسٍ
ورعيلٍ في الحرب يتلو رعيلا
واصدقوهم عند اللقاء بطعنٍ
وبضربٍ يروى الجزار المقيلا
واصبروا عند شدة البأس فالله
له تعالى يقول صبرا جميلا
لاتهابوهم وإن كثر الجمـ
ـع فقد يرجع العزيز ذليلا
إن تغاضيتم فعما قليل
يهدمون البنا قليلا قليلا (١)

والقصيدة مليئة بالطباق مما يعكس ولع الشاعر به ، شأنه شأن لداته من الشعراء القليلي الموهبة نحو قوله "بكرة وأصيلا" ، "شبابها والكهولا" ، "برا وبحرا" ، "عرضا وطولا" وعلى ذلك فهي ليست من الشعر العالي إلا أنها تعطينا مدى التجاوب الإسلامي تجاه هذا الغزو برغم تجرع اليمن غصصا جمة من الأتراك .

---

(١) أئمة اليمن بالقرن الرابع عشر ٢١٧/١ ، ط/المطبعة السلفية ، تأليف محمد بن محمد الصنعاني .

شوق بعض الشعراء للجهاد :

شارك بعض الشعراء في الجهاد بنفسه "كشكيب أرسلان" ، و"نسيب أرسلان" ، وعبر من لم يشارك عن شوقه للمشاركة ، مما ينبىء عن عاطفة وأُخوة صادقة ، تجاه إخوانهم في ميدان الجهاد .

فتمنى "محمد بن محمود" أن يكون مع المجاهدين ليشارك بسنانه ولسانه ، حتى يحشر في صفوف الشهداء الأبرار .

ياليتني بين الصّفوفِ مجاهدٌ   للّهِ بالأسيافِ والأشعارِ
حتّى إذا استشهدتُ رُدّتْ معزةً   وإذا حُشِرْتُ حُشِرْتُ في الأبرارِ (١)

وتمنى "الكاشف" أن يكون ضمن البعثة المصرية التي ذهبت لنجدة المجاهدين ، ليواسي الجرحى ويغيثهم ، ويؤبن الشهداء ، ويرى أرواحهم وهي تصعد لمستقرها في عليين ، وكذا رؤية الأبطال المدافعين ، وهزيمة المعتدين .

ياليتني سايَرْتُ بعثتَها عسى
آسو جريحاً أو أُغيثَ طعينا
وأطُوفُ بالشهداء في ميدانهم
فأهزّ شمَّ جباله تأبينا
وأرى النّفوسَ الحائماتِ على الوغى
من بعدِ مالَحِقَت بعلّيينا
وعزائمَ الأبطالِ حولَ حِماهم
مشدودةً وهزائمُ الطاغينا (٢)

---

(١) ديوانه ٩٤/٢ .
(٢) ديوانه ١٩/٢ .

ويعبر "الكاظمى" عن حزنه لما حل بالمجاهدين من مشقة وعنت لدرجة أنه لم يستطع النهوض لما أصابه من الأسى والضنى ، ولكن إن فاته الجهاد بالسيف فلم يفته بلسانه .

قلبى وطرفى على ما حلَّ مقتسما
دمعٌ وحزنٌ فمنثورٌ ومُنتظِم

أبغى النّهوضَ فأهْوِى من أسىً وضنى
وكيف يَنْهضُ عانٍ شفَّه السَّقَم

إنْ فاتنى نصرُ فرسانِ الوغَى بيدى
فكم أفادَ لسانى فى الوغى وفمُ (١)

ويعتذر "عبد الحليم المصرى" – وهو شاعر جندى – عن المشاركة لأنه غير مقتدر على ذلك ، بعد أن عبر عن حزنه وأساه لما أصاب برقة وطرابلس .

يا أرضَ برقةَ من دارٍ ومُزدرعٍ
تُسْقَيْنَ بالدّمِ أم تُسْقين بالمطر

مروعةُ الأهلِ حَسْرى عن كوارثِها
يجتازُها الدّهرُ بين الخوفِ والحَذر

بنى طرابلسٍ عن مُجتازِ ساحتِكم
حتّى يبالغَ فى تَحنانِ مُعتذرِ

لكنتُ أولَ من شقَّ الغُبارَ لكم
لولا أرانى عليه غيرُ مُقتدر (٢)

ويشتاق "الرصافى" للمشاركة فى المعركة ، ويعز عليه أن يصطلى إخوانه بلظى الحرب ، ولكن كيف السبيل للوصول إليهم كما يقول فالمسافة شاسعة ، والبحر حائل بيننا ،

---

(١) ديوانه – المجموعة الثانية ص ١٠٩ .
(٢) ديوانه ١/١٠٦ .

والخيل لاتستطيع اجتيازه ، لذا فيدعو البحر إلى أن يجمد ، والسحاب أن يهطل ليحمل الجيش ، وكذا يأمل من الرياح أن تهبّ لتوصله إلى تلك البلاد التي دنسها العدو ليدفعه عنها .

يَعزُّ علينا أهلَ برقةَ أنَّكم
تدورُ عليكم بالدَّمارِ رحى الحَرْبِ

وإنّا إذا ماتَستَغيثُون لم نَجِدْ
إليكم على بُعدِ المسافةِ من دَرْبِ

وقد عَلِمَ الأعداءُ أنَّ سيوفَنا
تَمَلْمَلُ في الأغمادِ شوقاً إلى الضَّرْبِ

ولولاهُ فاجأنا العدوَّ بفَيْلقٍ
يُبينُ ضُحى من هولِه مَطْلَعَ الشُهْبِ

فيابحرُ فاجْمُدْ أو فَغُرْ إنّ جيشَنا
عليك غدا كالبحرِ يَزْخرُ بالعَتْبِ

وياسحبُ هلّا تنزليْنَ فتحملي
إلى الحربِ جيشاً ينشرُ النَّقْعَ كالسُّحُبْ

ويا ريحُ قد ضِقْنا فهلْ لك طاقةٌ
بحملِ مُنايانا إلى المعرك الرَّحبِ

إلى خيرِ أرضٍ داسها شرُّ معشرٍ
بأرجلِهم قُطِّعْنَ من أرجلِ جُرْبِ (١)

---

(١) ديوانه ٢/٤٧٩ .

نصرانية المعركة :

كما مر بنا في كل حروب الدولة فإن الشعراء ينظرون إلى الصراع بين أوربا والعثمانيين على أنه صراع بين الإسلام والنصرانية ، ولايفتأون يذكرون ذلك في كل غارة تشن على المسلمين ، وفي الحرب العثمانية الإيطالية أشار بعض الشعراء إلى النزعة الصليبية لها .

قال "أبو المحاسن" إن هذا الخطر على الإسلام منشؤه الحقد الصليبي .

خطرٌ مامثلُه من خطر   طَرَقَ الإسلامَ من كلِّ حَدَبْ
إنّها حربُ الصليبِ انبعَثَتْ   فابعثوها وهي ترمي باللّهبْ (١)

ويخاطب "أحمد الكاشف" الطليان ساخرا منهم متسائلا عن دوافع العدوان على المسلمين وأسبابه .

يا آلَ عيسى مالعيسى لمْ يَقُم   مُستنكراً ما أنتم جانُونا
أوصاكمُ بالمعتدينَ فمالَكم   بالأمنِ المأمون فتّاكينا
ماذا جناهُ المسلمون عليكم   وهمُ على الأمصار غلّابونا (٢)

ويؤكد "الرصافي" أن ايطاليا ماكانت لتغزو "طرابلس" لولا مؤازرة أوربا لها ، إذ هم أباحوا حمى الإسلام مابين مصر وتونس ، وأن البابا دعا وبارك تلك الهجمة الصليبية .

الشتَ تراهم بين مصرَ وتونسٍ
أباحُوا حمى الإسلامِ بالقتْلِ والنّهب
ومايؤخذُ الطّليانُ بالذنبِ وحدَهم
ولكنْ جميعُ الغربِ يُؤخذُ بالذّنب

---

(١) مجلة كلية الآداب جامعة بغداد عدد ٧ ص ٢٢١ .
(٢) ديوانه ١٧/٢ .

فإنّى أرى الطليانَ منهم بمنزلٍ
يعدُّوهم يُغْرونَه منزلَ الكلب

فلولاهمُ لم يَنْقضِ العهدَ ناقضٌ
ولاضاعَ حقٌّ فى طرابلسِ الغرب

....

ومادعوةُ البابا لكمْ مستجابةٌ
فقد أغْضَبَتْ طَغْواكم غيرةَ الرَّب

أجلْ إنّكم أغضبْتمْ اللهَ فاتّقوا
وإن رَضِيَتْ تلك الحكوماتُ والغرب (١)

وهذا "الكاظمى" يؤكد أن أعمال الطليان ارتكبوها باسم الدين وهو منهم براء .

رحماك يادينَ عيسى لاتؤاخذْهم
إذا جنوا باسمِك الفيّاحُ أو ظلموا

أهلوك قد جَهِلُوا الدّينَ الذى اتّبعوا
فحمّلوك خطاياهم وماعَمِلوا

حاشاك أنت برىءٌ من خلائقِهم
وربَّ ذي كرمٍ أتباعُه لُؤُمُوا (٢)

ويؤكد "محمد عبد المطلب" مباركة البابا لجند الطليان وأن ذلك ليس من النصرانية كما يسخر من وعود البابا لهم بالجنة .

إذا وَقَفَ البابا يُبارِكُ جندكم
فما كلّ باباً للمسيحِ مُقَرَّبُ

---

(١) ديوانه ٢/٤٧٨ .
(٢) ديوانه ـ المجموعة الثالثة ص ١٠٥ .

سلوه أفى الإنجيلِ للحربِ آيةٌ
إذا كان فى إنجيلِهِ ليس يكذِبُ

لكمْ جنّةُ البابا مآبٌ وإنّما
مفاتحُها من أرضِ برقةَ تُطلبُ

وإنّ لدى أسيافِنا ورماحِنا
بأبوابِها عِلماً فلمّوا فَجَرِّبوا

سلوا جنّةَ البابا بماذا تزيّنت
لتَلقى الألى فى لُجّةِ البحرِ غُيّبوا (١)

ويسخر "الخزنة دار" من جبن الطليان ، وعدم نزولهم من سفنهم فليأخذوا الإذن من "البابا" أولا ، وفى هذا تعريض بالنزعة الصليبية لهذه الحرب .

مالِلجنودِ تعلّقتْ بسفينِها
وتمسّكتْ مِسْكَ النّسا لبعولِ

فاستفسروا "البابا" "بروما هل يرى
حكمَ الطّلاق بِشِرْعةِ الإنجيل (٢) .

ويأخذ "عبد الحليم المصرى" على الطليان أنهم شنوا هجومهم باسم المسيحية وذلك من سوء تجريفهم لها ، إذ هى دعوة محبة وتسامح ، ويرى أن الخليفة "محمد رشاد" لو نادى المسلمين باسم الدين كما فعلت إيطاليا لما وسعهم مكان .

ماللمسيحيةِ السمحاءِ شوّهها
قومٌ كأنّهمُ فى جَوْفِها سَقَمُ

نادوا بها وأباحوا السّهمَ مُنْزِعةً
ولمْ يُرِيّشوه لكنْ راشه النّدَمُ

---

(١) ديوانه ص ٣٠ .
(٢) ١٤٧/١ .

لو كان نادى "رشادٌ" بالهلالِ كما
نادوا لما وسعتْنا فى الوغى أكم (١)

وهكذا كانت رؤية شعراء الجيل لهذه الحرب أنها حرب صليبية والمسيح منها براء ، كما يبرأ الإسلام من كل حروب العدوان ، لأن الأديان كلها من عند الله ، وهى لخير الإنسان لالشره ، وهى مبادىء وقيم تحمى الإنسان من الإنسان ، كما تحميه من هواه ، وتضعه على الطريق المستقيم .

---

(١) جريدة العدل أساس الملك عدد ٢٦٥ فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩١٢م ولم أجدها فى ديوانه .

وصف المعركة والجيش :

وصف بعض الشعراء المعركة كما تخيلها أو عايشها ، وكان بعضهم يصور الجيش الإسلامي وقوته ومنعته وشجاعته بمنظوره فيقول "محمد عبد المطلب" إنهم ليوث الاسلام ، أباة للضيم ، إذا غضبوا ظل الكون من حولهم فزعا مرتجفا من غضبتهم ، لايرضخون لجبار مهما كان طاغيا .

وأما عدتهم فهي : الخيل تميل على حصون العدو ومعاقله وتبدي براعة في الإغارة والنجدة .

والرماح إذا ما اهتزت طارت قلوب العدو فرقا ، وكلما تعطشت للدماء ، واشتبكت مع بعضها في ساحة المعركة خلتها شجرا ملتفا تسكنه الآساد ، وأما السيوف فقد خلقت حادة ، ومن صفاتها انها تقطع هام العدو تارة ، وتفري وتينه أخرى وإذا امتشقها الجنود أضاءت الظلام ، والغيوم الشديدة ، وتحترق غيظا إذا ماردت إلى أغمادها ، فتضطر إلى تقطيع الحمائل والجفون .

ويصف البنادق المسماة "بالموزر" ويفصل في ذلك ، فهن زرق طويلات لاعوج فيها ، تصب هدفها بإحكام ، وأما رصاصها فهو حدق المنايا ، تصيب المقتل ، بل ومن صفاتها انها تحمل خنجرا بجانب فوهتها ، ومهمتها "تفري الخواصر والمتونا" .

وتسلح المجاهدون بالمدافع القوية التي تدك كل شيء أمامها .

ليوثٌ من بني الإسلام شوسٌ
بهم نسطو ونمنعُ ماولينا

إذا غَضِبوا تفزَّعت الليالي
وولّى النجمُ يرجفُ مستكينا

فلا نرعى لجبّارٍ حقوقاً
ولانقضي لذي وتَرٍ ديونا
وخيلُ كلّما جالتْ أمالت
بجُذْرِ البغي مَعقِلَه الحصينا
يخِلْنَ دبيبَ أنفسِنا مُغيراً
فيكسِرْن الشكيمَ ويَنْبرِيَنا
صَبرْناها على الغاراتِ حيناً
ورُضْناها على النّجداتِ حينا
وسمرُ كلّما خَطَرَتْ أطارت
مخافتُها قلوبَ الدّارعينا
نواهلُ كلّما اشتجرتْ علينا
وقمْنا تحتها مُستلئمينا
رأيتَ الغِيلَ مشتبكَ النّواحي
على الآساد تَسكنه عَرينا
وبيضٌ قد خُلقْنَ مذرَّبات
لوامعُ ماشُحِذْنَ ولاجُلينا
بواتكُ مانصوِّبهنّ إلا
تقطُّ الهامَ أو تفري الوَتينا
إذا نحن انتضيناها أضاءت
من النّقعِ الحنادسَ والدّجونا
يَشِطْن إذا غمدْناهنّ غيظاً
فيأكلْنَ الحمائلَ والجفونا
وزرقٌ موزَرِيّاتٌ كرامٌ
صوائبُ لايَشِطْنَ ولايَنينا
طويلاتُ المُتون بلا اعوجاجٍ
عن العُوجِ القِسيّ بها غُنينا

إذا انبعث الزّنادُ بها أصابَتْ
ولم تسمعْ لمرماها رنينا
كأنّ رصاصَها حَدَقُ المنايا
تُصيبُ به ضمائرَ مَنْ لَقِينا
على أفواهها زرقٌ جِدادٌ
بها تُفرى الخواصرُ والمُتونا
فتلك وإنّ نشأ فمدمّرات
ندكّ بها الصّياصي والحُصونا
أجادَتْها يدا "مكسيم" صقلاً
وأبدعْنا مَضارِبَها فنونا
تراها في المعاقلِ والرّوابي
جواثمُ للرّدى سُفعاً وجُونا (١)

ولقد أبدع الشاعر في تخيله بدءا من وصفه للجند وانتهاء بوصفه للأسلحة ودورها في المعركة .

فانظر إلى قوله عن الخيل "يخلن دبيب أنفسنا مغيرا" كيف بلغت إلى هذه الدرجة من الإحساس والترقب .

وكذلك "السمر" اهتزازها يرعب العدو فكيف برميها ، ناهيك عن الصورة المتخيلة في قوله :

نواهل كلما اشتجرت علينا
وقمنا تحتها مستلثمينا
رأيت الغيل مشتبك النواحي
على الآساد تسكنه عرينا

وأما "البيض" فلقد جعلها تحس بدلا من كونها جامدة ، إذ اغتاظت من إغمادها ولذلك أكلت "الحمائل والجفونا" ،

(١) ديوانه ص ٢٨٦-٢٨٧ .

ويقول عنها "خلقن مذربات لوامع لاشحذن ولاجلينا" ، وأدخل البنادق والمدافع في هذه القصيدة وسمى الأولى "موزريات" ، ووصف الثانية بأنها "مدمرات" ، وذكر الاسم والصفة ، دلالة على عدم استقرار اسم شائع متعارف عليه ، ويدل من جهة أخرى على مواكبة الشعر للآلات الحديثة مما يزيد من قاموس اللغة .

ثم إن القصيدة ترجع بالذاكرة إلى قصيدة "عمرو ابن كلثوم" الشهيرة – كما سيأتي – قافية ووزنا ودلالة في بعض جوانبها ، مما يدل على امتياح شعراء هذه الحقبة من عيون الشعر العربي القديم ، مما يعد بعثا له وإحياء .

ويصف "الرصافي" بعضا من مشاهد تلك الحرب كما تخيلها "فطرابلس" كانت آمنة مطمئنة ، فراعها دوي المدافع ، وأفواهها مصوبة نحوها ترسل وابل نيرانها ، وتدك بصواعقها كل مالاقت كأنها زلازل ، أتت على الأخضر واليابس .

قد اغتالَها الطّليانُ وهي بمَضْجَعٍ
من الأمنِ لمْ يُقضضْ بِرُعْبٍ على الجَنْبِ

فأمْسَتْ وأفواهُ المدافعِ دونها
تمجُّ عليها النّارَ كالوابلِ السّكْبِ

صواعقُ من سُحْبِ الدُّخَانِ تدكُّها
وتَنْسِفُها نسفَ الزِّلازلِ للهَضْبِ

غَدَتْ ترْتمي فيها عشيّاً وبُكْرةً
فلايابساً أبقتْ ولمْ تُبقِ من رَطبِ

وما إنْ شكا من عَضّةِ الحربِ أهلُها
ولكنّهم شاكون من عضّةِ الجَدْبِ (١)

---

(١) ديوانه ٢/٤٧٩ .

ويبين في قصيدة اخرى كيف أن خدود الإيطاليين المصعرة قد قومت بالسيوف ، وولوا هاربين ونحن نطاردهم ،حتى كأنهم حمر فرت من قسورة ، ونثرنا جماجمهم بالسيوف ، حتى أضحت كأنها مفردات وكل مجموعة تشكل بيتا من الشعر .

ويشير إلى بعض فظائع الطليان ، إذ أزهقوا أرواحا كثيرة لاحول لها ولاطول ، وغدروا بهم ، ولم يتركوا بيتا سليما بل حولوه على أهله مقبرة ، فما ان أحاط المسلمون بجيشهم حتى ذعروا لدرجة أن ضاق به الفضاء على رحابته .

ويعود إلى أعمالهم الوحشية بالأهالي من قتل وتنكيل ، إذ ضربوا الرقاب وجدعوا الانوف وبقروا البطون ، ويتساءل ساخرا من جيش العدو لماذا لم يثبت لجيشنا في المعركة واحجم عن ملاقاته ؟

فسلْ جيشَ "كَانِيْفا" كيف قوَّمَتْ
شِفَارُ مواضينا خدودَهم الصُّعْرا

وكيف هَزَمْناهمْ فولَّوْا كأنّنا
وإياهم أُسْدُ الشَّرى تَطْرُدُ الحُمُرا

وكمْ قد نَثَرْنا بالسّيوف جماجماً
نَظَمْنا بها فوق الثّرى للعِدى شعرا

وماجَزَعي للحربِ يحمى وَطِيسها
ولكنْ لأرواحٍ بها أُزْهِقَتْ صَبْرا

لكَ اللّهُ ياقَتْلى طرابلسٍ التي
بها حَكَّمَ الطليانُ أسيافَهم غَدْرا

اقاموا بها قتلى النّفوسِ نِكايةً
إلى أنْ أصاروا كلَّ بيتٍ بها قَبْرا

ولمَّا أحاطَ المسلمونَ بجيشِهم
فعادَ الفضاءُ الرَّحبُ في عينه شِبْرا

تقهقرَ يبغي في الدّيارِ تحصُّناً
فقرَّ بها من خشيةِ الموتِ واستذرى

وأصبحَ يُنكي أهلَها من تغيظٍ
فيقتلُهم صَبْرا ويرهقُهم عُسْرا

فأوسعَهم بالسّيف ضربا رقابَهم
وآنافَهم جدْعا وأجوافَهم بقْرا

وماضرَّ "كانيفا" اللعينَ لو انّه
تقحمَ في الهيجاءِ عَسْكرَنا المجرا

أيحجمُ عنّا هاربا بعلوجِه
ويبغي بقتلِ الأبرياءِ له فخرا

وهل حسبوا قَتْلَ النِّساء شجاعةً
وقد تركوْا عند الرِّجال لهم ثأرا (١)

ورسم "سالم بن حميدة" – من تونس – صورة الجيش الإسلامي في المعركة ، إذ سمع دويا هائلا ترددت أصداؤه بين الناس فأحب أن يعرف حقيقته ، فصوب نظره إلى السماء فإذا صفوف تذود عن حمى الهلال ، وإذا طرابلس محفوفة بملائكة كرام كالطود ، وتابع الخطى عله يحظى بملاقاة الملائكة ، فوصل إلى ذرى فاذا به يواجه أتراكا وعربا رابضين متجهين صوب العدو ويخال النار تشتعل في وجههم من شدة المعركة .

سمعتُ به دويّاً مُستديما
يردّدُه الصّدى بين الأنام

رميتُ بناظريَّ إلى ذراه
أسيرُ إلى الحقيقةِ والسلام

فألفيْتُ السّماءَ بها صفوفٌ
تذودُ عن الهلالِ أو الزِّمام

وقد حُفّت طرابلسُ بطَوْدٍ
به زمر الملائكةِ الكرامِ

---

(١) السابق ٢/٤٨٢-٤٨٣ .

فتابعْتُ الخُطى أبغي مُعُودا   إلى الملأ العلى وإلى المقام
وصلْت إلى ذرى فلقيتُ تركا   وعربا رابضين إلى الأمام
نظرتْ وجوهَهم فنظرْت نارا   مسعَّرةً بفُرْطِ الاحتدام (١)

وهذه القصيدة تنبىء عن عمق التجاوب الإسلامي لأحداث طرابلس ، وكان الشاعر موفقا في التعبير عن عاطفته ، لأنه تتبع ذلك الصوت حتى وصل إليه ، والصوت كناية عن جهاد المسلمين ، وكذا في رسم صورة الجيش في المعركة والتفافه حول راية العثمانيين .

وذكرُه للملائكة هنا دلالة على إسلامية المعركة ، وسهولة أسلوبه ووضوح ألفاظه مع مقدرة على رسم الصورة مما يعطي دليلا على أن الشاعر وإن كان مغمورا إلا أنه يرقى هنا إلى مصاف بعض شعراء المشرق المعاصرين له ، وأنه ممن خطا بالشعر العربي نحو الانبعاث على الأقل على مستوى بلده .

ويصف "محمد سعيد العباسي" نية الطليان من إثارة تلك الحرب بأنهم أرادوا بها الفخر بين الأمم وأعدوا العدة لذلك ولكنهم باءوا بالخسران ، و"حزب الله" قدموا لهم القرى إذ فلقوا هاماتهم ، وطعنوا نحورهم وأجلوهم عن ميدان المعركة ، ويسألهم ساخرا هل درى قائدكم عما حل بكم ؟ إذ اختفى عن ميدان الحرب .

ويعود إلى وصف الجنود الإسلامية كما تمليه عاطفته ومخيلته ، وذاكرته التاريخية .

فهم لايرون الموت حاجزا دون بلوغ المنى ، ولم يفت في عضدهم كثرة عدوهم ويشبههم في شوقهم للمعركة بالإبل المهرية

---

(١) الحركة الأدبية والفكرية في تونس ص ٨٢ من الملحق ، ط/دار الهناء ، محمد فاضل عاشور .

حجزت عن الماء أياما ، وهم جند الله وجند نبيه .

أثاروا وغىً دارتْ رُحَاها عليهم
وراموا بها فخراً ففاتهم الفخرُ

أعدُّوا لها من عُدَّةِ الحربِ كلما
يَضيقُ به التّعدادُ والبَرُّ والبحْر

ألا إنَّ حزبَ اللّهِ قد قدَّم القِرى
لديكم فإنْ شئتُمْ فَمن مثلِهِ فاقْرُوا

....

فقد فلقوا بالمشرفيةِ هامَكم
وحلّى بعقدِ الموْتِ نَحْرَكم النَّحر

وأجلَوْكم عن ساحة الحرب غُدوةً
بطعنٍ دَراك ضاق مِنْ هولِه الصَّدر

نُسائِلُكم مُصْعَبَ الاعاجِمِ هل دَرَى
دُمُسْتُقُكمْ كيف انْطَوى دُوْنَه السّترُ

....

تَحجَّبَ لايبدُوا لها خَلْفَ مضربٍ
من الرّمل لايُبْدِيه لومٌ ولازَجْرُ

ولم يدْرِ أنَّ المجدَ والفخرَ كلُّه
معاطاةُ كاسٍ خَمْرُها الكَرُّ والفَرُّ

....

وفرسانُ حربٍ لاتَرَى الموتَ حاجزا
ولمْ يَثْنِها عن عَزمِها أنّكم كُثْرُ

يَهيمون شوقاً للطِّعانِ كأنَّهم
عِطَاشُ المَهَارِى قدْ أضرَّ بها العِشْرُ

يذوقون طَعْمَ الموتِ حُلواً وسَائِغاً
على قدْرِ مايبدو لَكُمْ طَعمُهُ المُرُّ

أولئك حزبُ اللّهِ جندُ نبيِّه الكـــ
رامُ إذا استَوْلَى علَى الأنْفسِ الذعر (١)

والشاعر تأثر "بأبى تمام" كما سبق أن أشرت ، وكذلك المتنبى إذ استلهم بعض معانيه وصوره الساخرة كما فى قوله :

نسائلُكم صهب الأعاجم هل درى
دمستقكم كيف انطوى دونه الستر

وفى الخمسة الأبيات التى بعده .

و "المتنبى" يقول :

لعلّك يوماً يادمستقُ عائدٌ فَكَم هاربٍ مما إليه يـــؤول

....

أتُسلِمُ للخطيّةِ ابنَك هاربا ويَسْكنُ فى الدنيا إليك خليلُ (٢)

ويصف "شكيب أرسلان" جيش الطليان وكثرته ، وكيف ألقيت تلك الجحافل بسيف البحر "تخالها من الذعر ورْقا عُكفا فى وكناتها" ، وكيف أضحت السفن تمدها بالمؤن ، وبرغم ذلك فقد ضاقت الأرض من أشلاء قتلاهم .

جحافلُ فى سِيفِ البحار تخالُها
من الذُّعر وُرْقا عُكَّفاً فى وكونِها

ولَوْلا الجَوَارِى المنشآتُ تمدُّها
من اللُّجِ زُجَّت فى مغافرِ نونهـــا

لئن جَرَّدتْها رُومةٌ لِحِصارِنـــا
لقد أودَعتْها عِنْدنَا بسجونِهـــا

وفى كلِّ يومٍ وقعــةٌ لجيوشِهـــا
تضيقُ بها بطحاؤُهـــا بدفينِهـــا (٣)

---

(١) ديوانه ص ١٠٦-١٠٧ .
(٢) ديوانه شرح العكبرى ١٠٦/٣ .
(٣) ديوانه ص ١٠٦ .

وبرغم أن الشاعر شارك بسيفه فى تلك المعارك الدائرة وكتب هذه القصيدة من ساحة الجهاد على الجبل الأخضر ـ كما مر بنا ـ إلا أنه لم يعط صورة أجلى عن تلك الحرب ووقائعها ربما لأن القصيدة بنت لحظتها ، على أن شعره عامة لم يكن بمستوى نثره من الجودة الفنية والرؤية الفكرية .

ويصف "الكاظمى" الجيش المجاهد ويدعو أن يصلى الاله على من قبره حواصل الطير كناية عن استشهادهم فى ميدان الجهاد ، ومن صفاتهم "فى ابرادهم عَبَقٌ من الفخار وفى آنافِهم شَمَمٌ" .

ويعود إلى صفاتهم قبل استشهادهم :

هم الصناديدُ إمّا استصرخوا لوغى
خاضوا عُبابَ المنايا وهو مُلتطِم

وانهم ابطال حروب أخذهم العدو على غرة فشتتهم ، ولكنهم سرعان ما التأموا فكروا عليه كرة أخرى .

ويضفى على الكون حزنا وفرحا : حزنا لتشتتهم ، وفرحا لنصرهم على العدو ، إذ أصلوه لظى فالقى السلاح فزعا .

صلى الإلهُ علــى قومٍ قُبورُهــم
حواصلُ الطّيرِ فى الهيجاءِ لا الرُّجُمُ

ماتوا كِراماً وفى أبْرادِهم عَبَقٌ
من الفخار وفى آنافِهم شَمَمُ

هم الصناديدُ إمّا استُصرِخوا لِوَغًى
خاضوا عُباب الْمَنَايا وهو مُلْتَطِم

ابطالُ هيجاءَ جيشُ الغدر باغتَهم
تشتّتوا ثم كَرّوا الكَرَّ فالتأموا

قدْ ادبروا وعيونُ الفجرِ باكيةٌ
واقبلوا وثغورُ النَّصرِ تَبْتسم

أضلت ظباهم صفوف الغادرين لظى
يوري زناد الردى فيها فتضطرم
ألقى السلاح لهم أعداؤهم فزعا
مسلمين ولولا ذاك ماسلموا (١)

ويقول "الكاشف" ساخرا من الطليان إن الأماني خدعتهم فوجدوا الموت حيث ظنوا الظفر والنجاة .

ثم يتحدث عن الوقائع التى جرت بين المتقاتلين ، وأن المسلمين غنموا الأسلحة والزاد فصاروا أغنياء من جراء ذلك وأطارت تلك الشجاعة صواب المعتدين فاندفعوا ينتقمون من الأطفال والنساء والشيوخ العزل ويقتلون الأسرى فكانوا بذلك مثلا للوحشية الغادرة - ديدن أوربا على مر العصور والأزمان اذ تستهين بكل القيم الانسانية فى سبيل غايتها الدنيئة من العدوان والبغى .

يا آل رومة تطلبون أمانيا
ختالة أم تطلبون منونا
جئتم تجرون الحديد ورحتم
بحديدكم فى اليم مغلولينا
ورقصتم فيه سكارى فارقصوا
فى الليلة السوداء مذبوحينا
تهتم على نصحائكم وأبيتم
فالآن تنصحكم لظى الراميننا
هاتوا الذئاب إلى الليوث فخمسة
منهم أبادوا منكم خمسينا

(١) ديوانه - المجموعة الثالثة ص ١٠٢ .

واستجمعوا حيتانكم ونسوركم
فالصائدون هناك مرتقبونا
واستكثروا الزاد الشهي فإنكم
وسلاحكم والزاد مأخوذونا
لم يبق منهم معسر او أعزل
بعد الذى غنموه منتصرينا
فكلوا من الزقوم إن جاوزتم
حد الأسارى واشربوا الغسلينا
أحسبتموا بطحاء مكة حانة
لكم وغزو القيروان مجونا
أعياكم بأس الحياة فرحتم
تشفون غلتكم من الثاوينا
مثلتم بشيوخهم ونسائهم
وذبحتم الأطفال جبارينا
وخشيتم شمم الأسير وكبره
فقتلتم المأسور والمسجونا
حطمت عظامهم سيوفكم فهل
جرحت مواثيقا لهم ويقينا (١)

ويصور "حافظ إبراهيم" ما ارتكبه الطليان من جرائم ضد المسلمين المدافعين عن ثرى أوطانهم فى "ليبيا" فيذكر أن الأرض "مادت حين انتشت من دم القتلى حلالا وحراما" ، حلالا من دماء المعتدين الظالمين ، وحراما من دماء الشهداء المدافعين ، ثم يبدأ فى ذكر جرائم الطليان ، فإنهم لما عجزوا عن الوقوف أمام الأبطال ، صوبوا الحسام تجاه من لاحول

(١) ديوانه ٢/٢٠-٢٢ .

له ولاقوة من الذرارى ، ثم ماذا عملوا بهم ؟ "كبّلوهم قتلوهم " ، و"مثلوا بذوات الخدر صاحوا باليتامى ووصلت بهم الوحشية الى أن طالوا الاشياخ والمرضى ، بل لم يبقوا طفلا ولاغلاما ، وذهبوا فى الاجرام غايته ، فأحرقوا الدور لئلا يبقى شيء دالا على الحياة .

مادَتِ الأرضُ بنا حين انتَشَتْ
من دمِ القتلى حلالاً وحراما
عَجَزَ الطّليانُ عن أبْطالِنا
فأعَلّوا من ذرارينا الحُساما
كبّلُوهم قتّلُوهم مثّلُوا
بذواتِ الخِدرِ طاحُوا باليتامى
ذَبَحوا الاشياخَ والزّمْنى ولم
يَرْحموا طفلاً ولم يُبْقُوا غُلاما
أحْرقوا الدّورَ استحلوا كلّ ما
حرّمت "لاهاىُ" فى العَهدِ احتراما

ويبين كيف أن الطليان ظنوا ألا يجدوا مقاومة فأطلقوا أسطولهم كما يطلق الزاجل حمامه ، ولكنه باء بالهوان والخسران ، إذ امتلأ البر من أشلائهم ، والموت يواجههم فى كل مكان ، ثم يسخر منهم ويتهكم بهم وانهزامهم أمام الجيش الإسلامى .

ويوجه سخريته إلى قائد الطليان "فكتور" ويقارن بين مالقيه الطليان من حتف عندما ثار "فيزوف" وماحصل لهم من هلاك من جنود العثمانيين .

أطلقوا الأسطولَ فى البحر كما
يُطلِقُ الزّاجلُ فى الجوّ الحماما

فمضى غيــرَ بعيــدٍ وانْثنــى
يحملُ الانباءَ شُؤْماً وانهزامــا
قد ملأنا البرَّ مــن أشلائهــم
فَدعُوهم يمْلَئُوا الدُّنيا كَلامــا
أعْلَنُوا الحربَ وأضْمَرنا لَهُــمْ
أيْنما حَلُّوا هَلاَكـاً واخْتِرامــا
خَبِّــروا (فِكْتورَ) عنّــا انّــه
أدْهَشَ العالمَ حَرْبــا ونِظامــا
ادهش العالــمَ لمّــا أن رَأَوْا
جيشَهُ يسبقُ فى الجَرى النَّعامــا
لم يقفْ فى البــرِّ إلا ريْثمــا
يُسلِمُ الارواحَ او يُلْقى الزِّماما
حاتِمُ الطُّليــانِ قــدْ قلّدْتَنــا
منــةً تذْكرُهــا عاما فعامــا

....

أكثروا النُّزْهةَ فى أحيائنــا
ورُبانا إنَّهــا تَشفى السَّقامــا
وأقيْمُــوا كلَّ عــامٍ مُوسِمــاً
يُشْبِعُ الايتامَ مِنّــا والأيَامَــى
لســتُ أدْرى بتَّ تــرعى أمــةً
من بنى الطّليانِ ام تَرْعى سَوَاما
مالُهم ـ والنّصرُ من عاداتِهم
لَزموا السّاحلَ خَوْفا واعْتصامــا
أفلتوا من نارِ "فيزوفَ" إلــى
نارِ حربٍ لم تكُنْ أدنى ضِرامــا

لم يكنْ "فيزوفُ" أدْهى حِمَمـــا
من كُراتٍ تنفُثُ الموتَ الزُّؤامــا
إيهِ يا "فيزوفُ" نَمّ عنهم فقدْ
نَفَضَت افريقيا عنها المَنَامـــا
فهـــي بركـــانٌ لهـــم سخْـــرَه
مالكُ الملكِ جزاءً وانتقامـــا
لو دَرَوْا ماخَبَّأَ الشَّرقُ لهـم
آثَرُوا "فيزوفَ"واختارُوا المُقاما (١)

وواضح أن الشاعر جمع فى هذه القصيدة بين وصف جرائم الطليان والمعركة والسخرية وكان موفقا أيما توفيق فى ذلك، انظر إلى الصورة فى قوله :

مادت الأرض بناحيث انتشت   من دم القتلى حلالا وحراما

وكيف اهتزت الأرض وانتشت فرحا ، وكيف أن قوله "حلالا وحراما" كانت خاتمة للبيت جميلة ، برغم أنهما كلمتان دارجتان ، إلا أنهما هنا كانتا مناسبتين لمعنى البيت .

كما أن قوله :

أطلقوا الأسطول فى البحر كما
يطلق الزاجل فى الجو الحماما

ينبىء عن سخريته من عشوائية القائد الإيطالى ، وانه زاجل لاقائد ، وفى قوله : "الحماما" تدل على جبن وخوف الطليان ، وتبلغ السخرية مبلغها من "فكتور" فى قوله :

حاتم الطليان قد قلدتنا   منة تذكرها عاما فعاما

فهو يشبه بحاتم الذى يضرب به المثل فى الكرم زيادة فى التهكم .

---

(١) ديوانه ٢/٦٥-٦٩ .

والشاعر كان متفاعلا مع هذه الحرب إذ عبر بضمير الجماعة "نا" في عدة مواضع دلالة على التحامه النفسي والعاطفي مع المجاهدين .

والقصيدة مليئة باللفتات الفنية والفكرية مما يجعلها معلما من معالم شعر الحرب في هذه الحقبة عامة وشعر حافظ خاصة .

ويتحدى "احمد محرم" الغزاة ، ويفخر بالخلافة وأبطالها ويضفي عليهم أفضل الأوصاف ، فهم لايرهبون الردى في سبيلها ، عريقون في أنسابهم ، شجعان في الحروب ، لم يثنهم عن الإغارة على عدوهم أي أمر ، أبطال الخلافة يمنعونها من أن تستباح من العدو ، فهم لها بمثابة الحصون والأبنية المنيعة .

رويداً "بني روما" فللحربِ فتيةٌ
تَهيجُ الظُّبَى أطرابَهم واللّهاذِمُ

بنوها الأُولى لايرهبون بها الرَّدى
إذا اهتزَمَتْ في حافَتَيْها الزّمازِمُ

مُعَمَّون فيها مُخوِلون إذا اعتَزَوا
نَمَتْهم قريشٌ في الحفاظِ وهاشمُ

وشُوسٌ شِدادُ البأسِ من آل يافِثٍ
تخوضُ دمَ الأبطالِ والبأسِ جاحمُ

لهم كلّ يومٍ غارةٌ تُصبحُ العِدى
وأخرى تُضيءُ اللّيلَ والليلُ فاحِم

إذا أقْدَمُوا لم يَثْنِهم عن مَغارِهم
غداةَ الوغى أهوالُها والمآزِم

أولئك أبطالُ الخلافةِ تَحْتمي
بأسيافِهم إنْ داهمَتْها العظائمُ

هُمُ المانعوها أن يُقَسَّمَ فيئُهـا
وأن تُسْتَبى بَيْضاتُهـا والمحـارمُ
دعائمُها الطُّولى وآطامُها العُلى
إذا أسْلَمَتْ آطامُ أخرى الدَّعائم

ثم يهزأ بالطليان وبأسطولهم ، وأنه لم يثنهم عن الهزيمة ، وأن نصره لهم نصر ضعيف لاقيمة له ، ويصف حركته داخل البحر ولعب الأمواج به ، وجنودهم مابين مذعور وهالك .

لقد خابَ من ظَنَّ الأساطيلَ عُدَّةً
تقيهِ الرَّدىإنْ قامَ لِلحربِ قائمُ
ألستَ تَرَى ذُؤبانَ رُوما ومالَهم
من الحتْفِ في بطحاءِ برقةَ عاصمُ
إذا استَصرخوا أُسطولَهم لم يكنْ لهم
من النَّصر إلّا أنْ تثورَ الدَّمادم
تَناءَى بهِ الأمواجُ آنًا وتدَّني
ويجرى جِفافيه الرَّدى المُتلاطِم
ففى البحرِ مذعورٌ وفى البرِّ طائحٌ
ومامنهما إلّا على الحَرْبِ ناقم (١)

---

(١) ديوانه : السياسيات ١/١٩٨-١٩٩ .

أنين الجريح :

ومن مشاركات "محرم" الفذة فى هذه الحرب قصيدة بعنوان "أنين الجريح فى طرابلس" .

بدأ فى الموضوع مباشرة ، وصور الوجود من حوله حزينا فزعا لأنينه ثم وصف حاله وبطولته وحميته دفاعا عن الحقيقة التى آمن بها .

لذا شق صفوف العدو بلا رهبة ولاخوف ،"كأنه صاد تعلله السيوف بموردو» لأنه يحس أن الجنان منصوبة على حافته ، ثم يضفى على المشهد عظمة ومكانة إعظاما لقدر المقاتل الشهيد بقوله :

ودنا فحيّاهُ النّبيُّ وكَبَّرت   شهداءُ بدرٍ حولَ ذاك المشهد

ثم يصوره وقد نفذت إليه قذيفة ، خر من أثرها جريحا ، والزفرات القوية تترى من فؤاده ، ونالت الطير من لحمه دون دراية عن مكانته ، إذ أخذت تمزق لحمه بمناسرها حيا ، وهو ينادى هل من مغيث ؟

أين فوارس بنى قومى يحمون بقيتى ويذودون عنى العدو ؟

ولم ينس فى تلك اللحظة من حياته أن يسأل عن صاحبته وبنيه ، هل نالهم العدو بظلمه وغيه ؟ أم أنهم فى رغد من العيش ؟

ثم يجيب من تلقاء نفسه أن تلك الزوجة المصونة شغلت نفسها بأخبار الفرسان فى المعركة .

ويتمنى من صميم فؤاده أن لو كان قويا ليجاهد مرة أخرى ، ويذب عن بلاده ، ويسأل مرة ثانية "أين الطبيب ليعالج جراحه لأن نفسه مازالت تشرئب إلى لقاء العدو :

فَزِعَ الدُّجى لأنينِهِ المُتَرَدِّدِ
وبدا الصَّباحُ له بوجهٍ أربَدِ

مُلقىً على عادِي الصَّعيدِ مُلَحَّبٌ
في الحربِ يَلْتحِفُ النَّجيعَ ويَرْتدي

هاجَتْه يومَ الرَّوعِ حِمْيةُ باسِلٍ
خوّاضِ أهوالِ الكريهةِ أنجدِ

يَحمي الحقيقةَ يومَ تَلْمَعُ في الطُّلى
بيضُ الظُّبى تحتَ العَجاجِ الأسْوَدِ

شق الصُّفوفَ إلى الحُتوفِ مُغامِراً
في الحرب يُوقِدُها ولمَّا تَخْمَدِ

لايرهبُ الموتَ الوحِيَّ إذا دنا
ويخافُ قولَ اللائمينَ ألا ابْعِدِ

مستبسلٌ تَحتَ العَجاجِ كأنَّهُ
صادٍ تُعلّلُه السُّيوفُ بمَوْردِ

نُصِبَتْ له الجنّاتُ تحتَ ظِلالِها
فهفَا إليها كَرَّةَ المُستشْهِدِ

ودنا فحيّاهُ النَّبيُّ وكَبَّرتْ
شهداءُ بدرٍ حوْلَ ذاك المَشْهدِ

نَفَذَت عليه الفَيْلَقيْنِ قَذيفةٌ
مالَتْ بمَنْكِبِه وطارَتْ باليدِ

فهوَى يهُزُّ العرشَ رجعُ أنينِهِ
ويُثيرُ من حَرَدِ المسيحِ وأحمدِ

عَكَفَتْ عليه الطّيرُ تَحْسَبُ أنّما
طاحتْ به أيدي الرّدَى وكأن قد

باتَتْ بمَنْسِرها تُمزِّقُ لحمَهُ
حيّاً وباتَ يقولُ هل من مُنْجِدِ

أين الفوارسُ يَمْنعونَ بقيّتي
مالي جُفيتُ وكيفَ لي بالعَوْد

أين البنونَ وكيف أمْسَتْ أمُّهم
ماذا أحلَّ بها المُغيرُ المُعتدي

هل مِنْ عِرضٌ بالعفافِ مُطَهَّرٌ
مُوني له أيّامَ لَمْ نَتبدَّد

هيهاتَ قدْ شَغَلَ الفوارسُ همَّها
ونأى بها طَرْدُ النَّعامِ الشُّرَّد

ياليتني معهم أُغيرُ مغارَهم
وأذبُّ عنْ وَطَني بحدِّ مُهنَّدي

أين الأُساةُ فقد ظَمِئتُ إلى الوَغَى
وهي الشفاءُ لِغُلَّةِ القَلْبِ الصَّدِي

أأموتُ أو يَبْقى الحُسامُ مُضاجِعي
والحربُ عاصِفَةُ الرَّدَى لم تَرْكُدِ (١)

جمع الشاعر هنا بين مجموعة من الأفكار في قصيدة ذات موضوع واحد .

* صوّر المجاهد ودوره وشجاعته ، وشوقه للعودة إلى مقاتلة العدو .

* أن عمله ذاك طلب للجنة التي هي رجاء كل مسلم .

* اختلاط العاطفة الدينية والوطنية .

نَهَضَتْ له الجنّاتُ تحت ظلالِها فهفا إليها كرةُ المُستشهد

....

ياليتني معهم أُغير مغارهم وأذبُّ عن وطني بحدّ مهنّدي

* عرض لمشاهد من المعركة كما تخيلها في صورة ذلك الجريح .

---

(١) السابق ١/١٨٢-١٨٤ .

* تأكيده على أن العدو لايرعى للمسلمين حرمة بدليل أن الجريح سأل أول ماسأل عن زوجه وبنيه .

* شوق الجريح للعودة للجهاد .

* الحث على المعونة والمساعدة على لسان ذلك الجريح.

وكان عرض الشاعر لكل ذلك عرضا فنيا رائعا ، والموضوع في حد ذاته يعتبر فتحا في شعر الحرب في تلك الحقبة التاريخية ، كيف وقد تلبس الشاعر مشاعر الجريح وهو لم يشهد الحرب ، فالموضوع مستمد من خياله مما يدل على التحام عواطفه بعواطف المجاهدين وصدق انفعاله بالحرب وأخبارها .

وحفلت القصيدة بمجموعة من الصور البديعة لمشهد الجريح وعواطفه نحو قوله :

مُلقى على عادى الصّعيدِ مُلَحَّبٌ
في الحربِ يَلْتحفُ النَّجيعَ ويَرْتدي

....

يحمي الحقيقةَ يومَ تَلْمعُ في الطُّلى
بيضُ الظُّبى تحت العَجاجِ الأسْودِ

....

مستبسلٌ تَحْتَ العَجاجِ كأنّه
صادٍ تُعلِّلُهُ السُّيوفُ بمَوْرِدِ

....

عَكَفَتْ عليه الطيرُ تَحْسبُ أنَّما
طاحَتْ به أيدي الرَّدى وكانَّ قد

باتَتْ مناسرُها تُمَزِّقُ لحمَهُ
حياً وباتَ يقولُ هل من مُنْجِدِ

وتضمنت مجموعة من الأساليب الإنشائية الطلبية كالاستفهام والنداء ، مما يبعد أسلوب النص عن التقريرية

والرتابة ، ويجعل أجزاءه متماسكة ، وماتحمله كذلك من حث وحض .

أين الفوارسُ يمنعون بقيتي
مالي جُفيت وكيف لي بالعُوَّد
أين البنون وكيفَ أمْسَتْ أمُهم
ماذا أحلّ بها المُغيرُ المُعتدي

....

ياليتني معهم أُغيرُ مغارَهم
وأذبُّ عن وطني بحدّ مهندي

ويصف "صالح السويسي" أحد جرحى الحرب ، ويثني على جهاده في سبيل الله إذ هو في غمرة دفاعه عن دينه ووطنه ، أتته رصاصة أسالت دمه الذي يفوح منه الطهر ، ولكنه كان صابرا ، موقنا أن ذلك وسام شرف كل يرومه ولم يفت في عزمه ذلك الجرح ، بل رجا أن يحمل نحو راية العثمانيين "الهلال" ليذود العدو عنها .

شهمُ حوى في سبيلِ اللّهِ رضوانا
قد خاضَ من بأسِهِ في الحرب مَيْدانا
بالحزمِ مُرتفعٌ بالعزمِ مُنْدفعٌ
يَحْمي بصارمِهِ ديناً وأَوْطَانا
أبْدى العجائبَ في الحربِ التي شُهِرَتْ
على بني وطنه ظُلْماً وعُدوانا (١)
طارَتْ لهُ من رصاص البغي أربعةٌ
فصادَفَتْ منه أعضاءً وجُثْمانا

---

(١) هكذا في الديوان ، ولعلها "على بني وطني" [illegible] "

فسالَ منهُ دمٌ بالطهرِ مُمتزجٌ
قد فاقَ من حسْنِهِ في العَينِ ألْوانا
فخاطَبَ الجندَ في الهيجاءِ مُبتَسِماً
لاتجزعوا وَثِقوا قدْ كان ماكانا
هذا الوِسامُ الذى تَصبو القلوبُ له
دعْ عنك أوسمةً صِيغَتْ وتِيجَانا
هيَّا احملوني إلى نحو "الهلالِ" فما
أبغي عن الحرْبِ إحجاماً وسُلوانا
ولا أُبالي إذا ماصرْتُ مُنْجرِحا
فإنّ لي من رضا الرّحمن غُفرانا (١)

(١) ديوان صالح السويسى القيروانى ص ١٤١-١٤٢ ، ط/الدار التونسية للنشر ، تحقيق نجوى الكافى .

البعثات الطبية عند أحمد محرم :

كان من ضمن المساعدات التى أسداها الشعب المصرى الى المجاهدين تعبيرا عن تضامنه معهم "البعثات الطبية" ، إذ كان وضع المجاهدين يتطلب تلك المعونة لندرتها ، فيسجل "محرم" تلك الوقفة الأخوية مبينا أن أوامر الدين والنسب توجب ذلك ، وأن الغاية المرجوة ثواب الله .

لنا ذِمّةٌ فيكم ، ولله ذِمّةٌ
فَسيروا وإنْ أدْمَى جوانِحَنا الوَجْد
أخَذْتم سبيلَ الله تَسْتَبِقُونَهُ
إلى غايةٍ فيها المثوبةُ والحَمْدُ

ويوضح ثمرة تعاون أفراد الأمة ، إذ الفرد بمثابة حبة العقد ، فإذا انضمت الحبة إلى مثيلاتها صارت عقدا ، ويشير إلى الداء المدمر للأمم الجهل والحقد ، فمامن أمة أصيبت به إلا آل أمرها إلى البوار .

هو البرُّ حتّى يَقْتدى المرءُ قَومَهُ
وحتّى يُداوِي جُرْحَ أُمّتِهِ الفَرْدُ
وما العِقدُ إلا حَبّةٌ عند حَبّةٍ
فإن لم يكنْ سلكٌ يَضُمُّ فلا عِقد
وأضْيَعُ مافوقَ البَسيطةِ أُمّةٌ
يُمَزِّقُها جَهلٌ ويأكُلُها حِقْدُ
إذا أُمّةٌ كانت فِضاضاً قُلوبُها
تَهدَّمَ عالي مَجدِها وكبا المَجْدُ

ثم يثنى على من آزروا إخوانهم الذين افترشوا الثرى ، فلم يلذ للمتبرعين عيش لمّا سمعوا أنينهم ، ويدعو الله أن يحوطهم بعنايته ، ويعودوا بعد أن أدوا واجبهم .

سَمِعْتُم أَنِينَ الآخذينَ على الثَّرى
مضاجعهم والذِّئبُ من حولهم يعدو
فما مَلك الفَرشُ الوَثيرُ جنوبَكم
ولاراعكم عيشٌ لذيذٌ الجَنَى رَغْدُ
فَسيروا على نُورِ الهلال يَحوطكم
من اللّهِ جُندٌ مايُغالِبُه جُنْدُ
وعودوا إلى أوطانِكم في غَضَارةٍ
من العيشِ مَقرونٍ بها العزّ والمجدُ (١)

ويتبرع طبيبان لمعالجة جرحى الحرب ، ويذهبان إلى أرض المعركة ، فيهز "أحمد محرم" ذلك الجهاد المبارك فينظم قصيدة ثناء على صنيعهما إذ هو في نظره بلاء عن المحارم ، جهاد خالد ، فيمد البيت الحرام كفه إعظاما .

ثم يمضي في تلك القصيدة ليعيد الثناء والإطراء لهما لتجشمهما الصعاب ، رجاء ثواب الله .

جزى اللّهُ ماأدَّيتُما من حقوقِه
وأبليتُما من دونِ تلك المحارمِ
جِهادٌ له في ساحةِ المجدِ والعُلا
مَواقفُ تَبْقَى واضحاتِ المعالمِ
يمدّ إليها البيتُ كفَّ مُسلِّم
ويُبْدِي لها المختارُ صفحةَ باسم
....
عنايةُ ربّ لايُغَادِرُ حِزبَهُ
غنيمةَ باغٍ أو فريسةَ ظالم

---

(١) ديوانه : السياسيات ١/١٩٠-١٩١ .

ولبَّيتُماه إذ دعا ، واستبقتُما
سَبيْلَيهِ ، لايَثْنيكما لومُ لائـم

وجشَّمتُما نَفْسَيْكما كـلَّ فـادحٍ
من الامرِ يُودِي هَوْلَه بالعزائِمِ

فما نَعَمَتْ نفسُ امرىءٍ مانعمتما
ولاغَنِمَتْ مانِلْتُما من مَغانـم

تزَوَّدتُما حُسْنَ الثّوابِ وفزتُما
بحمدٍ على مرِّ العَشِيَّات دائـمِ

فهُنِّئتُما ذُخرَيْكما وبقِيتُما
لدفعِ العَوادِي واقتحامِ العظائمِ (١)

وقد أحسن الشاعر فى ربط ذلك العمل بالجهاد ، وابتغاء الأجر من عند الله اذ لايخفى مافى ذلك من مباركة لصنيع الطبيبين ورفع لمعنوياتهما .

(١) السابق ١٩٢/١ .

المعدات القتالية :

كانت هذه الحرب في آخر معقل للعثمانيين في أفريقيا ، ومع عدو يريد أن يكون له نصيبه من الغنيمة مثل بقية الأعداء الآخرين – روسيا ، بريطانيا ، فرنسا – واستخدمت في تلك المعارك أنواع من الأسلحة ، ولكن معظم الشعراء الذين اطلعت عليهم هنا يضعون الأسلحة القديمة – الرماح والسيوف – في مقدمة مايشاد بدورها وينوه بذكرها .

فينوه "الكاظمي" بذكر السيف على اختلاف مسمياته كثيرا نحو قوله :

لايَصْدُقُ السّيفُ مالـمْ تَصْـدُقِ الهِمَمُ
بالسّاعدِ الفَتْلِ يمضي الصارمُ الخَذِم

إذا الهُمامـةُ هبَّتْ مـن مَكامِنِها
تَمَـزّقَ الخـطبُ وانجـابَتْ بها الغُمَمُ

لامجـدَ أرفـعُ مـن مجدٍ قواعـدُه
عـواملُ السّمرِ والمـأثورةُ الخَـذِم

شِيموا العزائمَ وانْضُوا من مَضاربها
فللعـزائمِ يعنـو السّيفُ والقلـم

لاتَشْتَكُوا لِسوَى الصَّمْصَامِ مَظْلمـةً
الفَـاصِلُ المـوتَ والصَّمصامة الحكم (١)

وينـوه "عبـد الحليم المصري" بدور الرمح والسيف ، في الحفاظ على الحق من الظالمين .

---

(١) ديوانه ١/٩٩-١٠٨ .

بالسيفِ بالرمحِ بالقرطاسِ بالقلم
صونوا حمى الملكِ واحموا حوزةَ العلم (١)

وكذا الحال عند "محمد سعيد العباسي" في قوله :

مكانكموا إنَّ الفخار هو الصبر
إذا اشتبكت بيضُ الظبا والقنا السمرُ
فقد فلّقوا بالمشرفيةِ هامكم
وحلّى بعقد الموتِ نحركم النحرُ (٢)

ونحوه قول "أحمد الكاشف" :

وخذِ الوفاءَ من الصوارم والقنا
إنْ لم تجد من دهرك الموفونا (٣)

ونجد "محمد عبد المطلب" يصف الرماح والسيوف والخيل إلى جانب البنادق حين قال :

وخيلٌ كلما جالت أمالت	بجُندِ البغي معقله الحصينا
يخِلْن دبيبَ أنفسنا مُغيرا	فيكسرْنَ الشكيمَ وينبرينا
صبرْناها على الغارات حيناً	ورُضْناها على النجدات حينا
وسمرٌ كلما خطرت أطارت	مخافتُها قلوبَ الدارعينا
نواهلُ كلما اشتجرت علينا	وقمْنا تحتها مُستلئمينا
رأيتَ الغيلَ مشتبك النواحي	على الآساد تسكنه عرينا
وبيضٌ قد خُلِقْنَ مذرّبات	لوامعُ ماشُحِذْن ولاجُلينا
بواتكُ مانموّبهنَّ إلا	تقطُّ الهام أو تفرى الوتينا
....	
وزرقٌ موزرياتٌ كرامٌ	صوائبُ لايشطن ولايَنِيْنا
طويلاتُ المتونِ بلا اعوجاجٍ	عن العَوج القِسيّ بها غنينا (٤)

---
(١) ديوانه ص ٨٣ .
(٢) ديوانه ص ١٠٥ .
(٣) ديوانه ٢/١٧ .
(٤) ديوانه ص ٢٨٦-٢٨٧ .

ويذكر "الرصافي" السيوف في قصيدة ، والمدافع في قصيدة أخرى ، واصفا قوة فعلها وتدميرها حين قال :

فَسَلْ جيشَ "كانيفا" كيف قَوَّمت
شِفارُ مواضينا خدودَهم الصعرا
وكمْ قد نَثَرْنا بالسيوفِ جماجماً
نظمْنا بها فوقَ الثَّرى للعدى شعرا (١)

ويقول في الأخرى :

فما انتبهت إلا لصرخةِ مِدْفعٍ
وما نَهَضَتْ إلاّ إلى موقفٍ صَعْبِ
فأمستْ وأفواهُ المدافعِ دونها
تمجُّ عليها النارَ كالوابلِ السَّكْبِ (٢)

ويبين "حافظ" مشاركة "إيطاليا" بأسطولها وإطلاقها لجنودها على "طرابلس" وانهم تكبدوا الخسائر الجسام من قذائف المدافع .

أطلقوا الأسطولَ في البحرِ كما
يُطلقُ الزّاجلُ في الجوِّ الحماما
....
لم يكنْ "فِيزوفُ" أدهى حِمماً
من كُراتٍ تنفثُ الموتَ الزُّؤاما (٣)

إلى غير ذلك من الأمثلة التي تشير إلى ذكر أنواع من الأسلحة في شعر حرب طرابلس . ولا أستبعد أن تكون كلها كناية عن القوة .

---

(١) ديوانه ٤٨٢/٢ .
(٢) نفسه ٤٧٨/٢ .
(٣) ديوانه ٦٥/٢ .

تفنيد دعوة السلم الأوربية :

كان مما أذاعته أوربا ـ ولازالت ـ لتضليل شعوب الشرق الإسلامى أنها داعية للعدل والسلم والإخاء العالمى ، ولكنها ما إن قامت تشن الغارات على الدولة العثمانية حتى رأينا بعض الشعراء يتساءل عن معنى العدل والإخاء عند الأوربيين ، ويبين أن ذلك زيف وخداع .

وما إن شنت "إيطاليا" حربها هذه على الدولة ، حتى انبرى الشعراء لبيان حقيقة تلك الدعوى عند بقية أوربا ، لمباركتها ذلك العدوان وسكوتها عن جرائمه .

فيبين "محمد عبد المطلب" موقف أوربا ، وأنها أوهمت المسلمين بأنها طالبة عدل ومساواة ، فلم نسمع إنكارا للاعتداء الإيطالى ، وعندما نرد كيد المعتدى "إذا هم يسخطونا" .

وأهلُ الغرب فى لعبٍ ولهْوٍ
على مابيْنهم يتغامزونا
دَعَوْنا المقْسِطِينَ فَمَا وَجَدْنا
وأشهدْنا الملوكَ فأنْكَرونا
وَهِمْنا حين خِلْناهم عُدولاً
بما شاءَ الهَوَى لايحكمونا
بَغَت "روما" فلم نسمعْ نكيراً
ولو شاءوا سمعْنا المُنكرينا
وإنْ نغضبْ ذياداً عن حِيَاضٍ
لنا هُدِمَتْ إذا هم يَسْخطونا

ملوكَ الغربِ ماهذا التَّعامى
ومالِلحقِّ بينكمُ مَهينا (١)

ويهزأ "الرصافى" بالحضارة الغربية ، وبخداع الغرب وكذبهم ودعواهم أن العصر عصر تمدن وسلام ، ويسألهم ساخرا ، أمن الحضارة قتل الناس بلاذنب ؟ والإغارة والغصب ، أم أن تلك العلوم التى توصلتم إليها قد جعلت قلوبكم غُلفا لاتعى ولاترق ، ويؤكد أن حقيقة العصر أنه عصر مطامع وتنافس .

أيا زعماءَ الغربِ هلْ من دَلالةٍ
لديكم على غيرِ الخديعةِ والكذْب
تقولون إنَّ العصْرَ عصرُ تمدّنٍ
أمِنْ ذلكم قتلُ النّفوسِ بلا ذَنْب
ألمْ تبصروا القَتْلى تمجُّ دماءَها
على الأرضِ والجَرْحَى يئِنّونَ فىالحرب
أفى الحقِّ أم فى العلمِ ألا يسوءَكم
ويخجلكم شنُّ الإغارة للغَصْب
وهل أغلَفَتْ هذى العلومُ قلوبَكم
بأغطيةٍ قُدَّت من الحَجَرِ الصُّلْب
كذبتم فإنَّ العصرَ عصرُ مطامعٍ
تُقَدُّ لها الأوداجُ بالصارم العَضْب (٢)

ويشكو فى قصيدة أخرى إلى الله من تلك الجاهلية العصرية التى لبست ثوب العلم ، وتحمل فى طياتها الخراب والدمار .

---

(١) ديوانه ص ٢٩٠ .
(٢) ديوانه ٤٨١/٢ .

يقولون إنَّ العصرَ عصرُ تمدنٍ
فما بالُه أمسى عن الحقِّ مُزْوَرَّا

إلى اللهِ أشكو في الورى جاهليةً
يعدُّون فيها من تمدُّنِهم عَصْرا

أتتْنا بثوبِ العلمِ تمشي تَبَخْتُراً
إلى الخيرِ لكنْ قد تأبَّطتِ الشَّرا

....

أهذا هو العصرُ الذي يدَّعونَهُ
فسُحقاً له سُحقاً ودَفراً له دَفرا (١)

ويبين "الكاظمي" أن الأوربيين «دعاة حرب لا دعاة سلام ، وإلا لما هاجموا قطرا آمنا واحتلوا أراضيه بالحديد والنار والدماء» (٢)، ويعرض بدور بريطانيا ومطالبتها بالحياد في الحرب .

أين السّلامُ الذي شادوا جوانبَهُ
زعماً خُلوباً فلا شادوا ولا زعموا

قالوا السّلامَ فنمّنا واتقينُ به
أين السّلامُ وأركانُ السّلامِ دمُ

أبعدَ ماشنّت الطُّليانُ غارتَها
وقامَ مخدوعُنا بالسِّلم يَعْتصم

قالوا الحيادَ فقلْنا ليس ذا عَجَباً
عن نصرةِ الحقِّ كم حادوا وكم وجموا

ويؤكد مفهوم السلام في عرف الأوربيين ، وأخلاقهم من نكث

---

(١) السابق ص ٤٨٤ .
(٢) الشعر العراقي الحديث ص ٤٨ .

للعهود والمواثيق ، وحنث للأيمان ، وهضم لحقوق الشعوب الضعيفة .

حربٌ يقالُ لها فى عُرْف موقدِها
سلْمٌ قواعدُه النيرانُ والحِمَمُ
أين السلامُ وقَذَافُ المنون له
صوتٌ عَنَا لصَدَاه المرعدُ الهَزِمُ
....
إن عاهدوا نَكَثُوا أو أقسموا حَنَثوا
أو عاملوا عَبَثوا بالحقِّ واهْتضموا (١)

ويتفق "ولى الدين يكن" مع الشعراء السابقين حول ذلك المفهوم للسلم وكيف أن أهل الشرق ينادون بالسلام ، بينما الأوربيون يضمرون الشر والحرب ، ولذلك فلن ننخدع بعد هذا بدعواهم الكاذبة .

أريْتَنا فى الودِّ معنى الجَفَا | وجئتَنَا بالحربِ تحت السَّلام
اختلَفَ التّسليمُ مابيننا | يدٌ تُحيى ويدٌ فى الحُسام
لاتَبْسُمى من بعدِ هذا لنا | قَدْ غرَّنا فيما مضى الابتسام (٢)

ويهزأ "أحمد محرم" بالمدنية الغربية التى تتشدق بالسلام وتزعم أن من مبادئه الإنصاف والعدل ، وكيف استحالا إلى خذلان للحق ونصر للظلم ، ويؤكد أن الأمة لن تنخدع بشعارات الزيف .

ياموقدَ الحربِ بغياً فى طرابلسٍ
بأىِّ عذرٍ إلى التاريخ نُعْتَذِرُ

---

(١) ديوانه ١/١٠٤ .
(٢) ديوانه ص ٤٩ .

أذاك والعمرُ عُمَرُ النّورِ عندكـم
فما يكونُ إذا ما اسودَّت العُمُر
أين الأولى زعموا الإنصافَ شِرْعَتَهم
وقامَ قائمُهم بالعدلِ يَفتخِـرُ
يا أكثرَ النّاسِ إنصافا ومعدلـةً
العدلُ يُمحَقُ والإنصافُ يُحتضرُ
نعم الشّريعةُ ماسنَّت حضارتُكم
الحقّ يُخذَلُ والعدوان يَنتصِرُ
لسنا وإنْ عَزَبتْ أحلامُنا وخَوتْ
منّا الرؤوسُ بقولِ الزّورِ نَنبهِرُ (١)

والذى يلفت النظر فيما عرض الباحث من نصوص فى هذا المبحث :

(أ) تجاوب الشعراء فى أنحاء الوطن العربى ، وشعورهم المشترك وشعورهم بالغمة التى حاقت بالأمة بعد ماكشرت أوربا عن أنيابها .

(ب) غزارة الشعر الذى قيل فى هذه الحرب ، ربما لأنها كانت بعد احتلال بقية البلدان العربية : «الجزائر» ، تونس ، المغرب ، مصر ، فشبت هذه الأحداث نار الوعى ، وهاجت المشاعر ، فكان الشعر أكثر نضجا ، ورقيا بالقياس على شعر الجيل الأسبق ، وهو مايشير إلى أن الحروب عامل مهم فى تطور الآداب بعامة ، والشعر بخاصة .

---

(١) ديوانه : السياسيات ١٨١/١ .

الفصل الثالث

الحرب العالمية الأولى داخل الوطن العربي

* الثناء على الدولة وولاتها .
* الدعوة لمساعدتها .
* الثورة العربية .
* تأييد الثورة والتعريض بالأتراك .
* الوقوف ضد الثورة .
* المعارك داخل البلاد العربية :
  الشام ـ العراق
* شعراء وقفوا مع الدولة في تلك الحروب .

كان الوطن العربي من الميادين التي دارت رحى الحرب فيه ، ومر بنا ان الشريف «حسين» والي مكة من قبل العثمانيين انخدع بوعود الإنجليز فانضم للحلفاء ، وانبرى يقاتل العثمانيين لاخراجهم من البلاد العربية (الحجاز – الشام – العراق) وساند كوكبة من الشعراء تلك الثورة على الأتراك وعاضدوا الشريف في حروبه ضدهم ، بينما وقف آخرون مع الدولة وناصروها في بعض معاركها ، ومدحوا ولاتها في البلاد العربية ، وبناء على ذلك فساشير إلى بعض ماقيل من شعر في ذلك مما يمت في نظري للبحث بصلة .

الثناء على الدولة وولاتها :

كان «خليل باشا» والياً على العراق ابانئذ ، لذا أثنى عليه بعض الشعراء .

فهذا «كاظم آل نوح» يخاطبه بقوله :

يا أيُّها القائدُ المحفوفُ في أُسُدٍ
تغدو لها الأُسْدُ إما تَلْقَها بَهَما

لاتهدأُ العينُ منّا او نراكَ بــه
قد رُحتَ من جاحِدِي الإسلام مُنتقما

شدِّدْ عليهم ولاترعى لهم ذِممـا
فهمُّ لنا لم يراعوا في الوَغَى ذِمما (١)

ويثني عليه في قصيدة أخرى بقوله : إن العدو لن ينجو منه إذ هو في الحروب صاحب عزم وحزم .

إن نجا من جيوشِنا كيف ينْجو
من شَبَا عزمِ فحلِها الهدّارُ

(١) الشعر العراقي الحديث ص ٩٣ .ج٢و لا ترعى: صوابها و لا ترعَ ،

صاحبُ العزمِ والثّباتِ خليلٌ
يومَ حربٍ والفارسُ المِغْوار (١)

ويمدح "عبد المطلب الحلي" "خليل باشا" ودوره في معارك العراق ، وأنه الأسد العادي في المعارك :

خليلُ العلا تربُ الظُّبى أخو الحِجى
وحليفُ الوغى إنْ أحجمَ البطلُ النَّدبُ
له راحةٌ يوم الوغى تُمْطِرُ الدِّما
ويومُ لقاءِ الرَّكبِ نائلُها سُكْبُ
هو الأسدُ العادي إذا مرَّت الْوَغَى
بأنْيَابِها والضَّرْبُ يتبعُهُ الضَّرْبُ (٢)

ويخاطب "الزهاوي" (٣) الجيش العثماني ويثني على "أنور باشا" عندما قدم لزيارة بغداد ويصفه بدرع الأمة وسيف الله .

أأنورُ أنْتَ اليومَ درعٌ لأمّةٍ
يحاربُها ثلثا الأنامِ وأكثرُ
وإنَّك سيفُ اللهِ يمحو به العِدَى
ويَخذلُهُم حتّى يموتَ التَّجبرُ
قدِمْتَ على رُحبٍ لبغدادَ إنَّها
لفضلِك في هذه الزيارةِ تشكرُ (٤)

ويمتدح "محمد مهدي البصير" "أنور باشا" بأنه "أشرق بقدومه النصر الذي يرافقه ، أنى ارتحل فأصاب الانجليز الخزي

---

(١) السابق ص ٩٣ .
(٢) نفسه ص ٩٦ .
(٣) جميل صدقي الزهاوي بن محمد فيضي ، ولد سنة ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٣م ، تقلب في عدة وظائف إدارية وتعليمية ، ينحو منحى الفلاسفة في أفكاره ، من كبار شعراء العراق ، له مؤلفات أهمها : رباعيات الخيام ، وديوان شعر ، مات سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م .
انظر : الأعلام ٢/ ، الشعر العربي الحديث ، أحمد قبش
(٤) نفسه ص ٩٩ ، وانظر بعض هذه القصيدة في ديوانه ص ١٢٠ ، ط/دار العودة .

وأضر بهم الحصار والأسر ، وغدت وجوه المسلمين مشرقة ..." .

أنارَ حمى بغداد مذْ جاءَ أنورُ بوجهٍ عن الاقمارِ أبْهى وأنْورُ

أتى وهلالُ النّصرِ وسْطَ لوائِه يهلّلُ بالبُشرى له ويُكبِّر

أتيْتَ وعيشُ الإنجليز مكدّرٌ وعيشُ بني الإسلامِ ريّانُ أخضر (١)

ويصف "محمد رضا الشبيبي" القائد العثماني "سليمان العسكري باشا" وقد شارك في احدى المعارك برغم جراحه ، وقد أخذ على محفة ويثني على ذلك العمل ، ولكن الجيش يهزم ، وينتحر القائد ألما وحسرة (٢) .

وقائد حمَلُوه في محفّتِه
إلى الشُّعيبةِ من زوراءِ بغدادِ

أفاتكَ بالعدى جيشٌ مدبّره
مُعطّلُ الجسمِ مُلقىً فوق أعْوادِ

جرى سليمانُ في استعجالِ مَصرعِهِ
مجرى كفاةٍ بأمرِ الحرب قُوّادِ

قادَ الألوفَ فأرْدَاها وأتبعَها
في الحالِ نفسَ أبيٍّ غيرُ مُنْقادِ

مخاطراً عاشَ أعماراً لأنَّ له
في إثرِ كلّ نجاةٍ يومَ ميلادِ (٣)

ومثلما حظي والي "العراق" وقواده بالثناء كذلك حظي والي الشام "أحمد جمال باشا" بالإطراء من قبل بعض شعراء الشام .

فيثني "علي الريماوي" على دار الخلافة ، وعلى "جمال باشا" لآرائه الصائبة .

---

(١) الشعر العراقي الحديث ص ٩٨ .
(٢) لايجوز للمسلم قتل نفسه لضر أصابه ، بل يصبر ويحتسب .
(٣) ديوانه ص ٤٨-٤٩ ، وانظر : الشعر العراقي ص ٨٢ .

سرى وفدُك الغازى ومثلُك يُوفَدُ
وعادَ بملءِ البِشرِ والعَوْدُ أحمد

وجاء إلى دارِ الخلافةِ والتى
لها العَلَمُ العالى هِلالٌ وفَرْقَدُ

رايت جمالَ الملكِ رأيك والذى
تراهُ هو الرأىُ الصوابُ المُسَدَّدُ (١)

ويمجد «حسين أفندى الحبال» أعضاء حكومة الاتحاد والترقى «أنور ، طلعت ، جمال» ، وأنهم حموا بيضة الإسلام فى السلم والحرب ، وذلك بعد سلامه الحار الذى أسداه إلى دار الخلافة محط رجال الاسلام وملاذه .

سلامٌ على دارِ الخلافةِ إنهـا
محطُّ رجـالِ المسلمين ومَوْئِلُ

سلامٌ على دارِ الخلافةِ إنّهـا
مـلاذٌ إلـى الإسـلام بلْ هى مَعْقِلُ

....

بها وزراءٌ فيهم كـلُّ أنـورٍ
يُحيلُ الدُّجى نوراً إذا عمَّ مُشكل

وكم طلعةٍ فيهم له طلعةٌ بها
يُكشَّفُ ليلُ الشكِ والليلُ أليلُ

وكلُّ جمالٍ نورُ لآلاءِ وجههِ
من الصُّبحِ بلْ من طلعةِ البدرِ أجمل (٢)

ويصفه «بدر الدين النّعسانى» بقوله : إنه مهما أكثر المادحون له فإنهم لم يوفوه حقه ، وهو بصير وفى ، كريم ينجز وعده .

---

(١) البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية ص ٢٦٠ .
(٢) نفسه ص ٢٢٠-٢٢٢ .

لئنْ أكثرَ المدّاحُ فيك القصائدا
فما بلغوا فى الألْف من ذاك واحدا

وليس يُطيقُ المادحون مديحكم
وإنّ نظموا فيك السُّهى والفراقدا

بصيراً بأعقابِ الأمورِ إذا التوتْ
فليسْ عن الأمرِ المُغيّب ناشدا

يُعلّم اربابَ الوفاءِ طريقه
ويفتحُ فى وجهِ الكرامِ المحامدا

وينجزُ فى الخيراتِ صادقَ وعده
ويأتى من الخيرِ الذى ليس واعدا (١)

ويشيد «محمد العمرى» (٢) بوالى المدينة «فخرى باشا» ويذكر شجاعته ، وأنه حامى الخلافة ، ذو حنكة ودراية .

ابو الفتوحاتِ فخرُ الدّينِ ناصرُه
حامى الخلافةِ إنّ حقُ لها احتفما

مدربٌ عارفٌ بالجرح ذو خُدعٍ
تخْفَى على الوَهمِ لايألُوا بها نِقما

من لايهابُ الرّدى والموتُ مكتسحٌ
ولاينامُ على جورٍ إذا ظلما (٣)

وجلى أن هذا الشعر لايحمل قيمة فنية ، إذ هو عبارة عن رصف مجموعة من ألفاظ الإشادة المختزنة فى الذاكرة ، والتراكيب المحفوظة مثل قوله : صاحب حزم ، وثبات ، ترب

---

(١) السابق ص ٢٢٥ .
(٢) محمد العمرى الواسطى ، ولد سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م فى الجزائر ، نزح إلى المدينة ، وظل مجاورا لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان صاحب مزاج عصبى ، له ديوان شعر مفقود ، توفى سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣١م .
انظر : الشعر الحديث فى الحجاز ، الشعر فى الجزيرة العربية ـ نجد والحجاز ، د. عبد الله الحامد .
(٣) الشعر الحديث فى الحجاز ص ١٧٦ ، عبد الرحيم أبو بكر.

الظبي ، أخو الحجي ، أسد عادى ، أو أنه أشبه بالبدر ، كريم وفي ، شجاع ... فهي لاتبلغ أن تكون نظما ليس إلا .

ولكنها في نفس الوقت تعطينا دليلا على وجود اتجاه قوى داخل العالم العربي لايريد الانفصال عن الدولة العثمانية ممثلا في الوجهاء والعلماء في تلك الفترة التاريخية .

الحض على المساعدة :

زيادة على مامر بنا في الباب الأول من أن بعض الشعراء العرب دعوا إلى مساندة الدولة العثمانية في الحرب الأولى ، فإننا نجد أيضا شعراء من العراق - في المعارك التي دارت رحاها هنالك - يدعون إلى الوقوف بجانب العثمانيين وقتال الإنجليز .

دعا «رشيد الهاشمي» (١) إلى حمل السلاح ، وعدم الغفلة ، قبل أن تستباح الأعراض والأموال .

إلى الوغى هبّوا لحملِ السّلاح
واسترْجِعُوا مافاتَ قبل الصّباح
منْ نامَ من أوطانِه غافلاً
يصبحُ في عِرْضٍ ومال مباح (٢)

ويدعو «الزهاوى» إلى الوقوف في وجه الإنجليز قبل أن تداس كرامة العرب ، ويهيب بالأمة أن تعيد إلى العرب مجدها .

---

(١) رشيد الهاشمي ، شقيق الشاعر محمد الهاشمي ، ولد سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م ، له شعر مجموع باسمه ، وقد جن في آخر حياته ، توفي سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٤م .
انظر : مقدمة ديوانه ، ط/المعارف بغداد ، تعليق عبد الله الجبوري .

(٢) ديوانه ص٤٠

إذا داسَ رجلُ الإنجليز ربوعَها
فلا "خندقٌ" ترضى ولا الأوسُ تعذرُ

ليخجلَ قحطاناً ويُنكسَ رأسَه
قعودُ بنيه عن عدوٍ يُسيطِرُ

أعيدو بني عمّي إلى العُربِ صيتَهم
ومجداً قديماً ذكرُه يتكرَّرُ(١)

ويستنفر عبد المطلب الحلي، القبائل العربية المنتشرة في العراق ، ويدعوهم إلى قتال الكفار - الإنجليز - ويؤنبهم على نكوصهم عن القتال ، بنفس متألمة على موقفهم ذاك ، ويطلب منهم أن يضعوا خطة لمهاجمة العدو .

بني العَرَبِ العرباءِ من نومِكم هبّوا
ونَهْضاً إلى الجُلّى فقد عَظُمَ الخَطْبُ

نَكَصْتم وحربُ الإنجليز لحربكم
تَقَدَّمَ لايُثنيه طعنٌ ولاضربُ

وأرسى على الثغرِ العراقي بغتةً
بعاديةٍ أضحى يضيقُ بها الرَّحْبُ

فما صَمَدَتْ منكم لدى العزِّ كَرَّةٌ
تعودُ لجيشِ الكُفْرِ وهْوَ لكُمْ نَهْبُ

فمن مبلغِ العُرْبِ الكرامَ رسالةً
وإنْ كان لاتُجدي المراسيلُ والكتب

أبثُّهمُ من مؤلِمِ العَتْبِ نفثةً
بها ضاقَ رحبُ الصَّدرِ واعتلَجَ الكَرْبُ

سأندبُكم عُرْباً أقاموا بخُطةٍ
من الضَّيم لايرضى بها الرجلُ النَّدْبُ

---

(١) الشعر العراقي الحديث ص ٨٠ .

يسومُهمُ الغدّارُ خُطةَ نازلٍ   على حكمِهِ قَسْراً لها ذلّت النُّجبُ (١)

وكان "عبد الرحمن البنا" من أفضل الشعراء العراقيين استجاشة لقتال الإنجليز الذى اجتاز البحار ، ليمرغ مواطن الشرف والعزة ، لذا "فأين البأس والهمم" ، وكيف يطيب العيش وأقدام الانجليز تطأ ثرى العراق ، وتريد أن تهدم مجدكم .

ويدعو إلى التمسك بعرى الايمان ، والاتحاد فى وجه العدو .

بني العراقينِ لاتنحط همّتكم
فربَّ بارقةٍ تجلى بها الظلمُ

بنى العراقين حلَّ الخصمُ ساحتكم
وفي حماكم له مَرْعىً ومُغتنم

قد جاءكم من وراءِ البحرِ معتزماً
وذاك عارٌ عليكم ليس يَنحسِمُ

اجدادُكم تحت طي التربِ تندبُكم
أينَ الجلالةُ أينَ البأسُ والهِمَمُ

فكيف يهنا لكمُ عيشٌ بأرضِكم
والانجليزُ بها يُرسَى لهم قَدَمُ

لمن تشادُ مبانيكم ومجدُكم
بمعولِ البغي والإشراكِ مُنهَدِمِ

انتم بنو الشّرفِ الأعلى وعترتُه
تمسّكوا بعُرى الإيمان واعتصموا (٢)

---

(١) السابق ص ٨٨ .
(٢) نفسه ص ٨٢ .

وان لم يكن هذا المقطع ذا مستوى فنى رفيع إلا أنه حوى بعض الأساليب الحماسية المناسبة لموضوع الحث على الحرب ، كالنداء والاستفهام .

وفى قصيدة أخرى يرسم صورة أشد إثارة للحمية إذ "تصور فتاة حرة أبية ، وقد غدت سبية بيد العدو ،واستاقها العلج أمامه وهى تصرخ وتولول نادبة أهلها وحماتها ، وقد حملت ولدها الصغير// ففاجأته رصاصة أودت بحياته ، فتركته والحسرة تملأ قلبها ، وهى مكبلة بالقيود ، ثم يهيب بالمسلمين أن يطردوا الخصم ، وأن يسرعوا الخطى للنفير العام ، وعدم الخوف من الموت فإنه مصير كل حى ، ولكن من يمت مدافعا عن وطنه مات شهيدا .

ربّ فى الرّوعِ حرةٍ قدْ سَبَاها
عِلْجُ كفرٍ فلايخافُ الوعيدا
ساقَها عَنْـوةً بسوطٍ وجنعٍ
غلَّ منها سواعداً وزنودا
وهى تبكى أَهْلاً وتندبُ بعْلا
وتُكنّى آباءَها والجدودا
وعلى صدرِها هنالك طفلٌ
قلَدته من الدموعِ عقودا
فاجأته رصاصةٌ بحشاهُ
فهوى صارخاً يكدُّ الصعيدا
....
تركته رَغماً عليها وسِيقَت
وهى تلوى إليه عيناً وجيدا
تتقى سترَ وجهِها ويداها
فى قيودٍ من ذا يفكُّ القيودا

أيُّها المسلمون لافخرَ إلا | نجعلُ الخصمَ في القِفارِ طَريدا
فهلمُّوا إلى النّفيرِ سِراعا | لاتهابوا مُدافعاً وجنودا
كلُّ نفسٍ مصيرُها الموت لكنْ | من يمتْ بالدّفاع مات شهيدا (١)

والموضوع في حد ذاته ذو فكرة إنسانية جميلة ، وصورة المرأة مصفدة تاركة ولدها ، مثير أيضا لأصحاب الضمائر الحية ، ولكن أسلوب المعالجة كان أشبه بالرسم للواقعة دونما إضافة خيالية تزيد من إفعام الصورة لتكون أشد إثارة وتحميسا ، ولكن يحمد للشاعر طرق مثل هذه الموضوعات مما يعد مساهمة للارتقاء بالشعر العربي نحو الشعر الإنساني .

وفي قصيدة ثالثة يصور المساجد وقد تحولت إلى كنائس ، ورسم الصليب على المحاريب ، كي يدلل على صليبية العدو ، فيكون أشد إثارة وتحميسا .

جوامعُكم غَدَت بيعاً وفيها | سما فخراً على الحقِّ الضّلالُ
أيرسمُ فوق محرابٍ صليبٌ؟ | وفي أُفُقِ الهدى يزهو الهلالُ (٢)

وينادي "محمد حبيب العبيدي" بتحطيم الذل والوقوف ضد الإنجليز لجرائمهم المروعة :

يا أسارى الهَوانِ قوماً فقوّما | قد عَرَفتم جرائمَ الإنجليز
فمتى تَحطمون للذّلِّ قيدا | مستعينين بالقوي العزيز (٣)

ويقول "محمد رضا الشبيبي" مستنفرا المسلمين الذين يؤثرون الشهادة على الدنيا ، مبينا ما أعده الله لهم من الحور والولدان :

---

(١) السابق ص ٨٣-٨٤ .
(٢) نفسه ص ٨٤ .
(٣) نفسه ص ٩٠ .

أيستبيحُ الحمى قومٌ أما همو
ومن وراءِ الحمى غلبٌ مساعيرُ
يامَن أحبّوا على الدّنيا شهادتهم
تزيّنَت لكمُ الولدان والحور (١)

الثورة العربية :

كان لهذه الثورة أثر قوى فى الشعر العربى إذ انقسم الشعراء بين مؤيد ومعارض .

وكان الصوت المعارض اكثر مشاركة ، إذ دعا إلى الثورة وحض عليها وايدها (٢) ، ولكن بعض الشعراء وقف إلى جانب دولة الخلافة ، ورمى الثورة بالعمالة للأجنبى من أمثال احمد محرم كما سيأتى .

(١) تأييد الثورة والتعريض بالاتراك :

كان اكثر الشعراء بروزا فى تلك الثورة ممن له مكانة بين الاحياء «عبد المحسن الكاظمى» ، ومر بنا انه وقف بجوار الدولة فى حربى "البلقان وطرابلس"، أما هذه المرة فقد أصبح منشدا للثورة داعيا إلى استغلالها وحذر من فوات الفرصة المواتية .

فهاهو ذا فى إحدى قصائده يدعو إلى اهتبال تلك اللحظة للتخلص من الاتراك ، ويعرض بهم ، وانهم وعدوا العرب وعودا فمطلوهم ، ويحض على خوض غمار الثورة والحرب ضدهم .

---

(١) ديوانه ص ٣٠ .
(٢) نشر شعر كثير فى الجرائد والمجلات حول هذه القضية ، لذا ساكتفى ببعض ماقيل فيها .

كم فرصةٍ سنحت فكففكفنا عن نيلها الإهمالُ والكَسَلُ
واليومَ أحسنُها يمرُّ بنا فلئن تفتْ فالثُّكل والهَبَلُ
ولئن تغنمْنا بوادرَها فهناك الإسعاد والنَّفَلُ
قال الأعادى سوف ننصفكم كَذَبوا فكمْ وعدوا وكم مَطَلوا
لم ينهجوا للعدلِ مَنْهجَه كلّا ولاعن ظلمهم عَدَلوا
لاتذهبَنَّ برشدِكم عِدةٌ تلك الوعودُ بروقُها خُلَلُ
خوضوا غمارَ الحربِ وابتدروا تلك البحارُ خضمُّها وشلُ
تُخلى ميادينَ النِّزال لكم إنْ قيل إنَّ العربَ قد نزلوا (١)

وهذا المقطع يدل على أن نفس "الكاظمى" تغلى على الأتراك وأن بغضه لهم بلغ حدا لايطاق ، إذ وصفهم بالظلم والكذب ، وأنهم عدو يجب محاربته وهون من شأنهم "تلك البحار خضمها وشل" .

وفى قصيدة أخرى يصفهم بالخيانة والقسوة ، وإضاعة حقوق العرب ويرد على وصف الأتراك للثوار العرب بالخيانة - إشارة إلى ماقام به جمال باشا فى سوريا تجاههم - :

خنتمونا ولمْ تراعوا وزدْتم فعددتُم رجالَنا خائنينا
كم أطعْتم حقوقَنا وحفظْنا وأبيتم إنصافَنا ورَضِيْنا
وصَدقْنا بوعدِكم وكذبْتم كذَّبونا إنْ كنتمْ صادقينا (٢)

والشاعر تلاعب بالألفاظ والمعانى إذ ولد بعضها من الآخر وهذا دليل على قدرته الشعرية .

ونجد "محمد عز الدين" (٣) ينعى على القاعدين قعودهم عن مناصرة الثورة ويؤكد أن المعالى لاينالها إلا المشمرون ، وأن من خاف الموت ، وآثر الذل والخنوع فلن ينال العز

---

(١) ديوانه ١/١٢٦ .
(٢) نفسه ١/١٦٠ .
(٣) لم أعثر على ترجمته .

والمكارم ، ويؤكد وقوف أهل الشام مع الثورة العربية المشتعلة بالحجاز .

أليفُ الونى والسّلمِ هيهاتَ يسلمُ
وذو العزِّ فى خوضِ المعامعِ ينعمُ

ومن يبتغِ العلياءَ يسهرْ لنيلِها
وذو الحِلمِ بالعلياءِ لاشكّ يحلمُ

عجبتُ لمن يُغضى الجفونَ على القذَى
مخافةَ وِرْدِ الموتِ وهو محتّمُ

واعجبُ منه من يَذِل لغيره
ولو شاءَ نالَ العزَّ وهو مُكرّمُ

أرى كلَّ من بالشامِ يرقبُ دعوةً
حجازيةً يُجْبى جوانبَها الدّمُ (١)

وهذا المقطع ذو ألفاظ حماسية رائقة ، ولاغرو فقد استعار بعض ألفاظ «المتنبى» ومعانيه . وفى البيت الأخير بشكل ظاهر ، إذ هو من قول «المتنبى» :

لايسلمُ الشرفُ الرّفيعُ من الأذى   حتى يُراقَ على جوانبه الدّمُ (٢)

ويظهر «يوسف مراد الخورى» تجاوب البلاد العربية مع الثورة ، ويؤنب من انضم للأتراك ، ويوضح مساوئهم ، فقد عبثوا بالدين ، وأجاعوا الناس ونكلوا بهم ، ويختم القصيدة بتأكيد ولاء العرب للثورة .

---

(١) القبلة عدد ٢٤ محرم سنة ١٣٣٥هـ .
(٢) ديوانه شرح العكبرى ١٢٥/٤ .

حيّتكَ مصرُ ومكةٌ والشامُ
وتلا عليك سلامَه الإسلامُ

قل للآلي مالوا إلى الاتراكِ في
حربٍ لها نارُ الجحيمِ ضِرام

ماذا اتاهُ التركُ حتى يُمدحوا
وينالهم من شعبكم إكرامُ

عَبثوا بدينِ المصطفى وكتابِه
عمْداً وقد فَسدَتْ لهم احكام

وجَنَوا على الإسلام شرَّ جنايةٍ
قامتْ لها الأعرابُ والأعجام

إنَّ الخلافةَ غيرُ واثقةٍ بهم
من بعدِ ماكثرت لهم آثام

الشامُ في انجادِها وسهولِها
جاعوا ولمْ يكُ في البلادِ طَعام

والجورُ مكتوبٌ على سكّانِها
والنّفي والتعذيبُ والإعدام

مهلاً غلاةَ التركِ إنّ اموركم
لم يرضَ عنها كاهنٌ وإمام

ياناشرَ البَنْدِ المجيدِ وخلفَه
جيشٌ كريمٌ النّبعتين لُهام

ليس الحجازُ موالياً لك وحدَهُ
العربُ كلّهم لديك قِيام (١)

ويبدو من القرائن ان صوت المعارضين للاتراك طفق يظهر وينتشر ، ولاغرابة ، فالانجليز في مصر حريصون على تقوية هذا الجانب ومساندته .

---

(١) القبلة عدد ٨٢ شعبان ١٣٣٥هـ .

ومن الشعراء الذين أظهرتهم هذه الثورة ،عبد المحسن الصحاف،[1] اذ أخذ يتابع أخبارها ، ويحض على استنهاض همم العرب للانضمام لها فيقول في إحدى قصائده ، داعيا بني قومه للوقوف في وجه الاتحاديين واصما إياهم بالخيانة ، ويخاطب الشريف بقوله إن الثوار طوع أمره يجيبونه أنّى شاء وكيف شاء .

فهبّوا يابني الأوطانِ هبّوا ... لأهلِ الاتحادِ الخائنينا

وقوموا يابني المختارِ قوموا ... لحزبِ الخزى بل للمفسدينا

إلى فتكِ الأعادى فاشرئبّوا ... وتخليصٍ لعُرْبٍ هاتفينا

هلمّوا واهرعوا من كلّ فجٍّ ... فإنّ الله مولى المؤمنينا

ومن ذاك السراب فلاتخافوا ... فأنتم ماءُ كلِّ الظامئينا

ايا ملكَ البلادِ اليومَ جئنا ... لأمرك خاضعين وطائعينا

فوجّهنا إلى ماشئت وأمُرْ ... تجدْنا بالإجابة مُسرعينا[2]

ولايوجد في هذا النص قيمة فنية تذكر ، وإنما يكتسب مكانة من كونه الفاظا حماسية واسلوبا خطابيا يعبر عن التجاوب مع الثورة ليس إلا .

ويذكر ،خير الدين الزركلي،جرائم الاتراك ، من قتل وإهانة لكل شخصية بارزة ، ويشير إلى الثورة يحدوه الأمل أن تعيد للأمة سالف مجدها .

---

(١) عبد المحسن بن يعقوب الصحاف ، ولد في البحرين سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م ، انتقل إلى مكة بصحبة والده فتعلم بها مدح الشريف حسين وناصره في ثورته على الأتراك ، ثم مدح الملك عبد العزيز ، له شعر كثير في جريدة القبلة مات سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣١م .
انظر : الأعلام ٤/

(٢) السابق عدد ٢٤ محرم ١٣٣٥هـ .

عتا أحفادُ "جنكيز" فساقوا ... سلائلَ يعربٍ سَوْقَ العبيد
فكمْ قتلوا من الأخيارِ صِيداً ... وكم ساموا المهانةَ من عميد

....

إلى أمّ القرى عَدَتِ المَذاكي ... وفي أمّ القرى خَفَقُ البنود
بروقٌ في الحجازِ ومَضْنَ وَهْناً ... فكان بجلّق قصفُ الرّعود (١)

وكان "فؤاد الخطيب" من الشعراء البارزين الذين رافقوا هذه الثورة ، فنجده في إحدى قصائده يحيي الشريف "حسين" ويبارك ثورته ويصفه بصاحب الهمم والشمم ، ويقرّع الاتحاديين ويسمهم بالظلم والجور ، مما كان سببا في نقمة الشعب عليهم وإشعال نار الثورة التي "تشق البيد والآكما" ، ويصف الثوار بالكماة الغطارفة . ويدعو "الشريف" أن يخوض بهم غمار الحرب ضد الأتراك الاتحاديين الذين شوهوا صورة الإسلام ، ويصب جام غضبه عليهم في ثنايا القصيدة ، ويختمها محييا العرب ، مستثيرا حميتهم ، ذاكرا أن الناس يرقبون نسائم تلك الدعوة وأنها قد انتشرت بينهم حاضرة وبادية ويعرج على مآثر الأجداد ، ليثير نخوة معاصريه في سلوك سبيلهم .

حيِّ الشريفَ وحيِّ البيتَ والحَرَما
وانهضْ فمثلُك يرعى العهدَ والذِّمما

ياصاحبَ الهمّةِ الشماءِ أنت لها
إنْ كان غيرُك يرضى الأيْنَ والسأما

....

(١) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ص ١٤٨ ولم أجدها في ديوانه المجموعة الكاملة ، ط/مؤسسة الرسالة .

يا آلَ "جنكيزٍ" ان تُثقلْ مظالمُكم
على الشّعوبِ فقد كانت لهم نِعَما
فالظلمُ أيقظَ منهم كلَّ ذي سِنةٍ
ماكان ينهضُ لولا أنّه ظُلِما
ارهقتُم الشّعبَ ضَرْباً في مفاصلِهِ
حتى استفاقَ وسلَّ السيفَ مُنتقِما
فالشّنقُ عن حَنَقٍ منكم ومَوْجِدةٍ
قد ارهفَ العزَّ مَاتِ الشمَّ والهِمَمَا
فمن يكنْ عن أُباةِ الضّيمِ في صَمَمٍ
فليسمعِ اليومَ صوتاً يَحْسِمِ الصَّمما
فقد تكلّمَ صوتُ الثّارِ مُرتفعا
من الحجازِ فشقَّ البِيْدَ والأكما

....

يابنَ الكُماةِ وانت اليومَ وارثهم
قد عادَ متّصلاً ماكان مُنفصِما
والتفَّ حولَك ابطالٌ غطارفةٌ
شمُّ الانوفِ يرَوْنَ الموتَ مُغتنَما
فاصدمْ بهم حدثانَ الدّهرِ مُخترِقا
سدّاًمن التّركِ إنْ تَعْرِضْ لهُ انهدَمَا
وابترْ بسيفِك عضواً لاحياةَ لهُ
لولاهُ لمْ يكنِ الإسلامُ مُتّهما

....

ايهٍ بني العَرَبِ الاحرارِ إنّ لكم
فجراً اطلَّ على الأكوانِ مُبتسِما
يستقبلُ النّاسَ من انفاسِهِ أَرَجٌ
ماهبَّ في الشّرقِ حتّى أنشرَ الرِّمما

تلك الحياةُ التى كانت مُحَجّبةً
في الغيْبِ لاساماً تَخْشى ولاسَقَما

سارَتْ مع الدّهرِ من بدوٍ إلى حضرٍ
حتّى استتبّتْ فكانت نَهْضةً عَمَمَا

من ذلك البيتِ من تلك البطاحِ على
تلك الطريقِ مشَتْ أجدادُكم قُدُما

لستُمْ بنيهم ولسْتُم من سُلالتِهم
إنْ لمْ يكنْ سعيُكم من سعيهم أمَمَا

من كلِّ أروع وثّابٍ إذا انتسبَتْ
بيضُ الصَّوارم كان الصارمَ الخَذِما

فانقضّ من عدواء الدارِ مُنْصلتا
وانغلّ فى غَمَراتِ الموتِ مُقْتحما

إلى الشّامِ إلى أرضِ العراقِ إلى
أقصى الجزيرةِ سيروا واحملوا العلَما (١)

والشاعر هنا مجلجل فى ألفاظه ، وأسلوبه خطابى لايخلو من الصور المثيرة ، نحو صبّى وانهضى ، وانظر واصدم وابتر ، ومايوحيه أسلوب الأمر من حماسة ، وانظر الى قوله "فاصدم بهم حدثان الدهر" ومايوحى به التركيب من صور حية .

وظاهر أن الشاعر كان من دعاة القومية العربية التى ترد للعرب مجدهم وحقوقهم ، غير متنكر للإسلام الذى وحد الأمة ثم يخاطب الاتراك "بآل جنكيز خان" مذكرا العرب بمجدهم ، وان عليهم أن يعيدوا إلى الأمة روحها التى أزهقت .

---

(١) ديوانه ص ٤٢٣-٤٢٩ ، ط/دار المعارف ، مصر .

الوقوف ضد الثورة :

وقف بعض الشعراء إلى جانب الدولة العثمانية فى تلك الفتنة العاتية التى قضت على آخر رمق لها ، إيمانا منهم بوجوب مساندتها مهما وصلت إليه من سوء حال .

«فأحمد محرم» يهوله قيام الحرب ، ويبين أن الإنجليز خدعوا الشريف ببريق وعودهم – ومتى وفوا بوعودهم ؟ – ويسخر من عمله ذاك ، إذ يصوره جالسا على عرشه الذى يحلم به ، والوزراء من حوله ، وخراج البلاد يأتيه مابين «ذى سلم» إلى «عسفان» ، ويهزأ بابنه «فيصل» قائد جيوشه ، ويشير إلى خيانته ويشبهه «بعيينة بن حصن الفزارى» فى إغارته على إبل المسلمين ويهدده ويدعو الأعراب من حوله إلى طرده ، ويؤكد أن الترك عدة الإسلام .

نُبِّئتُ مازَعَمَ الشريفُ وقومُهُ
فسمعتُ مالمْ تسمعِ الأذُنان

خَدَعوهُ إذْ ضاقَ السبيلُ بمكرهم
ورموا بآمالٍ إليه حِسان

فأباحَ مامَنَعَتْ فوارسُ هاشمٍ
وَحَمَتْ وُلاةُ البيتِ من عدنان

ياذا الجلالةِ لاسَعِدْتَ بتاجِهِ
مُلكاً سواكَ به السَّعيدُ الهانى

أملكتَ مابين البَقيعِ فجُدَّةٍ
وأَبَحْتَ جيشكَ ماوراءَ معان

وبصرْتَ بالوزراءِ حولكَ خُشَّعاً
تُمضِى أمورَ المُلكِ فى الإيوان

يُجْبى إليكَ من البلادِ خراجُها
مابين ذى سَلَمٍ إلى عُسفانِ

مُلكٌ أمدَّكَ من خزائنِهِ بما
أعيا الجُباةَ وناءَ بالخُزّانِ

الجندُ معقودُ اللّواءِ لفيصلٍ
بين الظُّبَى وعواملِ المُرّانِ

يَلْقَى النبىَّ مُدَجَّجاً فى جُنده
وبَنَو أبيه على اللّواءِ حَوان

أيقودُ جيشَك أم يقودُ "عيينةٌ"
شمَّ الفوارسِ من بنى غطفانِ

سَلَبُوا اللّقاحَ وإنّ دينَ محمدٍ
لأعزُّ من إبلٍ عليه وضان

....

تمْحو السّيوفُ وللحقائقِ حُكمُها
مُلْكَ الخيالِ ودولةَ الصِّبيانِ

ما الملكُ من عزٍّ وبأسٍ صادقٍ
كالملكِ من كَذِبٍ ومن بُهتانِ

صونوا بنىالأعرابِ من عَوْراتِها
دعوى لعمرِ اللّهِ غيرُ حَصانِ

غشّى على أبصاركم وقلوبكم
كاللّيلِ من حُجُب ومن أكنانِ

....

التركُ جندُ اللّهِ لولا بأسُهم
لم يَبْقَ فىالدّنيا مُقيمُ أذان (1)

---

(1) ديوانه : السياسيات ١/٣١٤-٣١٦ .

وجلى أن المخزون التاريخي من ثقافة الشاعر كان خير معوان له على المبالغة في السخرية من الشريف وولده ، وكان تصوره للملك والوزراء من حوله زيادة في الاستهزاء والسخرية اضف إلى ذلك الجباية ومكانها ، فمتى كان مابين "ذي سلم وعسفان" مكان خيرات إذ لم تكن الا صحراء قاحلة .

ويبين «العمري» موقفه بجرأة من تلك الثورة ، إذ الخلافة بمثابة الحمى من اباحه فقد ساعد في إذكاء الفتنة ، وهتك حرمة الإسلام والحرم .

حدُّ الخلافةِ من يجتازُهُ ظُلَما ومن أباحَ حِماهُ بئس ما اقْتَحَمَا
ومن نَبا فتنةً عمياءَ ساكنةً فهو الذى هَتَكَ الإسلامَ والحَرَما (١)

المعارك داخل البلاد العربية :

خاضت الدولة العثمانية معارك ضارية ضد الحلفاء والثوار العرب في بلاد «الشام والعراق والحجاز» ، وقيل في ذلك قصائد كثيرة سأشير إلى بعض منها كدليل على مواكبة الشعراء لهم .

عندما تمكنت الجيوش المتحالفة من الاستيلاء على بلاد الشام سنة ١٣٣٧هـ ، هلل شعراء الثورة فرحا بذلك ، فهذا «عبد المحسن الصحاف» يقول : إن الظلم قد ازيح عن «الشام» بمجيء الأشراف إليها ، وفازت «دمشق» واتصلت بها «المدينة» و«مكة» ويهنيء البلاد المستولى عليها بحسن الرعاية ، ويدعو على الاتراك ويتهكم بهم .

الشامُ عنها أُزيحَ الشؤمُ مذ أفلتْ
عن أهلِها وانْجلَتْ تلك المَظَلاتُ

(١) الشعر الحديث في الحجاز ص ١٧٦ .

اتى إليها باشراف غطارفة
لهم زئير وتكبير وصيحات

فازت دمشق وفاز القاطنون بها
وقابلتهم من الجيش التحيات

وطيبة بفواحى الشام فاتصلت
بعد التنائى فهنتها المسرات

وارض أم القرى قد سرها نبأ
امست بها من عظيم الفخر زينات

يا اهل حمص ومن اضحى لدى طلب
وبعلبك اظلتكم رعايات

فليهلك الحاسدون اليوم من خجل
لانهم ببلوغ الفوز قد ماتوا

ولتخذل اليوم بين الترك مشيخة
لها من القبح قد باتت مقامات

اخشاب يا انور اخشاب يابطل
لتركيا خلفه تمشى دجاجات (1)

والشاعر ليس على مستوى الحدث الذى آمن به وقاتل من اجله اذ هو ضعيف التراكيب والصور ، وإلا فاى شاعرية فى مثل قوله :

اتى اليها باشراف غطارفة لهم زئير وتكبير وصيحات

فلم يعد أن جمع الفاظا متجانسة فى النغم امتاحها من ذاكرته .

واى صورة بديعة فى قوله :

اخشاب يا انور اخشاب يابطل لتركيا خلفه تمشى دجاجات

---

(1) القبلة عدد ٢١٩ محرم ١٣٣٧هـ .

ويقول "حسين روحى" فى قصيدة مخمسة ، واصفا بؤس الشام إبان عهد الاتراك وفرحها بالعهد الجديد ، مشيدا بجيش الثورة الذى فك أسر العرب وأعاد مجدهم ، ويشير إلى ماحل بحكومة الاتراك من جراء الهزائم المتتالية .

كانت دموعُ بنى الشّام سَواكبا   والآنَ نجمُ السّعدِ يطلعُ مُغربا
أدمشقُ قَدْ قال البشيرُ مُخاطبا   تِيْهى عروسَ الشام جاءك خاطبا
بطلُ الحجازِ فحاذرى أن تَبْخلى

جيشُ الحجازِ أَذَبّت قلبَ حقودِنا   حتى طَرَدْتَ التركَ خَلْفَ حدودِنا
لله دَرُّك قد فَكَكْتَ قيودَنا   جيشَ الشمال أعدْت مجدَجدودِنا
وبداتَ بالفتحِ المبين فأكملِ

حرّرتم أوطانَكم بسهامِكم   والتركُ فُلّت من شديدِ هجومِكم
إنَّ خافت الأعداءُ ضربَ مسامِكم   فمعانُ شاهدةٌ على إقدامكم
لمّا هجمْتُم هجمةَ المستقبلِ

قد كان وجْهُ الترك دوماً عابسا   ورئيسُهم بين الأنام مُدارسا
وبهمْ غدا عهدُ العدالةِ دارسا   وطِئوا أديماً ياأميرُ مقدسا
فكأنّهم وطِئوا أديمَ الهيكلِ

قد عمّهم زمنُ الفناءِ بنابِه   وهوت وزارةُ أنورِ وصِحابِه
اللّهُ يُمطرُهم بسوطِ عذابِه   قد مَزّقوا صكّاً تدوّنَ مابه
بدمِ الجدودِ الصّيد للمستقبل (١)

وقد تنازعت "الكاظمى" عاطفتان عندما دخل الإنجليزُ القدس وأخرجوا الاتراك منها ، فهو فى فرح إذ يفتح القدس على يد حلفاء العرب ، ولكنه فرح يخالطه شىء من حزن فقد شق عليه أن ينهزم الاتراك المسلمون وهم يدافعون عن بيت المقدس ، فهو يزعم انه لم يسقط بل أزيح عنه الظلم واللؤم ، ويهنىء

(١) السابق عدد ٢٣٠ صفر ١٣٣٧هـ .

المنتصرين ، ويواسي المنهزمين ، ويقارن بينهما فالفخر لمن انتصر ، والجنة لمن مات شهيدا مدافعا من الأتراك ، والقصيدة تعبر عن نفسية «الكاظمى» وموقفه من الحدث .

سقط القدسُ فالتوتْ جانحاتٌ ... وتثنَّتْ للآخرين قدودُ
وأحاشيه من سقوطٍ ولكنْ ... سَقَطَ اللؤمُ عنه والتّفنيدُ
أيّها البيتُ لاتسؤك الليالى ... حيثُ ساءَتْ ولايُضرك الحُقودُ
ربّما جاوزَتْ يدُ الظّلم حدّاً ... فى مُقامٍ تقامُ فيه الحدودُ
ثم جاءَ الزمانُ فاقتصَّ منها ... وأراها المُبيدُ كيف يُبيد

. . . .

نبأٌ لاقتِ المسامعُ منه ... مايلاقى المسرورُ والمكمودُ
فلهذا هَنَا به وسرورٌ ... ولذاك الزفيرُ والتّنْهيدُ

أأهنّى به الألى فيه أبدوا
أمْ أُعزّى عنه الألى قد أُعيدوا

فهنيئاً لمعشرٍ قدْ أبادوا ... وعزاءً لمعشرٍ قدْ أُبيدوا
وإلى الفخرِ من بقى وشهدْنا ... منه وجهاً وللجنان الشهيد (١)

هذا عن دور الشعر فى معارك الشام ، فأما «العراق» فوقف بكل إباء وشجاعة فى وجه «الإنجليز» ، وانتصر عليهم فى بعض المواقع وساير الشعر تلك المعارك مشيدا بالبطولات التى أبداها العثمانيون ، كما أنه فى الجانب الآخر – الأشراف – مدح بعض الشعراء مهنئا «بغداد» لخروجها من يد الأتراك .

فيصف «عبد المطلب الحلى» دور المسلمين فى الذود عن حريمهم ، وهزيمة «الانجليز» ، برغم قوتهم التى تتقدمها المدافع ، إذ ولوا هاربين ، وأضحوا مابين قتيل وأسير .

---

(١) ديوانه ١/١٧٨ ومابعدها .

هُمُوا مَنَعوا يومَ السّويحِ حريمَهم
ببيضِ الظُبا من أن يُراعَ لهم سِرْبُ

وفي يومِ أم الملحِ أبْقَوا مآثراً
من المجدِ فيها لم تزلْ تَفخَرُ العُرْبُ

غداةَ البريطاني قد قادَ جَحْفلاً
لُهاماً به نارُ المدافعِ لاتخبو

فردُّوه للأعقابِ خزيانَ ناكصاً
فولّى وفيه القتلُ والأسرُ والسَّلبُ (١)

ويفخر محمد رضا الشبيبي بذلك النصر إذ انه في سبيل الله ، بعد أن أكد هلاك الرجال وتدمير العتاد .

تُجاهَ إيوان كسْرى مأزقٌ ضَنِكٌ
أوْدى الرجالَ به الخيلُ والعيرُ

كادَتْ تَمَيَّزُ ذَبّاً عن حقائقِها
فيه النفوسُ وتَسْتَقرى التصاويرُ

....

قَتْلَى بدجلةَ منها دجلةُ امتلأتْ
والنَّهرَوانُ والانقاضُ والدّورُ

من لمْ يلذْ يومَ "ساباطٍ" وليلتِه
مَوْبَ النّجاةِ فمقتولٌ ومأسورُ

....

روايةُ النّصرِ صَحَّتْ بعد ما اشْتَبهتْ
وحيْنما رَجَحَتْ عنك الأخابيرُ

يومٌ أغرُّ من الأيامِ مُنبلجٌ
وموقفٌ في سبيلِ اللّهِ مأثورُ (٢)

---

(١) الشعر العراقي الحديث ص ٨٨ .
(٢) ديوانه ص ٣٠-٣٢ .

وفى قصيدة أخرى يصور الجثث المنثورة هنا وهناك ، وأن المجاهدين ذاقوا الأمرين فى ليالى الحصار ، وأن المدافعين المسلمين برغم ماهم فيه من قلة زاد ، إلا أنهم حاولوا الصمود ، وهجموا على العدو غير هيابين ، وكانت نهايتهم أن "فل العدوُّ جناحيهم" ، ربما لأن بقية الأعراب لم ينصروا القائد التركى .

نَبْتُ الرُّبا حمرُ أشلاءٍ وأوْرُدِ
منثورةٌ لك بين القَمَر والوادى
دون "الشُّعيبةِ" أجسادٌ موزَّعةٌ
فى البيدِ توزيعَ أعضاءٍ بأجْسادِ
وفى النُّخيلةِ أرْماسٌ موثَّقةٌ
علائقاً بين أسيافٍ وأغمادِ
جيشٌ أقامَ ثلاثاً فى خنادقِها
خالى الحقائبِ من ماءٍ ومن زادِ
ماءُ الفراتين موفورٌ وحبُّهما
والجندُ ملتاحُ الحَشَا صادِى
عشرون ألفَ عراقيٍّ ومثلُهمُ
حمْرُ الحماليقِ من تُرْك وأكْراد
مجمَّرون تجافوا عن ديارهمُ
واستبدلوا الوحْشَ من أهلٍ وأولاد
مكابدون على حالَي حفاً ووجىً
فى الرَّحل كُلْفةُ أغذاءٍ وأسنادِ
يهاجمون وهمْ رحَّالةٌ كُشُفٌ
فى البرِّ جملةُ أسوار وأسداد
فلَّ العدوُّ جناحيهم وقلبَهمُ
من قبلِ تجهيزِ أعوانٍ وأسْدادِ

ظن الالوفَ من الأعرابِ تَعْضُدُهُ
فكان ماظنَّه فتاً بأعضادِ (١)

والشاعر كان صريحا في عرضه للمعركة وأوصافه كلها حسية ، عمد إلى مارآه بعينه ووصفه كما هو ، ولايعد ذلك عيبا إذا ماعرفنا أن الشاعر كان ضمن افراد ذلك الجيش فنقل الصورة بعينها .

ويقدم "الزهاوي" التهاني في إحدى الانتصارات للجيش العثماني ، ويهجو "الانجليز" ، ويصف الطيارة وكيفية هجومها وقذفها للمتفجرات ، وأن المدافع العثمانية تتصدى لها فتخر هاوية متناثرة الأشلاء .

وماهذه في الدّهرِ أولُ مرةٍ
رأى الحقَّ فيها الانجليزُ فأنكروا

بَغُوامرةً من بعدِ أخرى فنالَهم
أذى البغي والتاريخ أمرٌ مُكرّرُ

وقالوا بَدَتْ طيارةٌ ستصبُّها
قذائفَ من مهواتها تتفجَّرُ

أقلّبُ طرفي في السماءِ فلاأرى
سوى نقطةٍ سوداء تَخْفَى وتَظهَرُ

دَنَتْ فإذاها كالعُقابِ تُقلُّها
محركةً بالنَّار تَغْلي وتَزْفِرُ

نصبْنا إليها مِدفعاً فأصابَها
وخرَّت على آلاتها تتكسَّرُ (٢)

---

(١) ديوانه ص ٤٨-٤٩ .
(٢) الشعر العراقي الحديث ص ٨٠،٩٩ ، وانظر بعض هذه القصيدة في ديوانه ص ١٢٠ ، ط/دار العودة .

والشاعر معجب بهذا الإنجاز العلمى ، فحاول أن يصفه فى حدود طاقته .

على أن «الزهاوى» كان ميالا لوصف المخترعات الحديثة ، محبا للتقدم العلمى ، على أنه استخدم هنا بعض المصطلحات اللغوية الحديثة : الطيارة ، المحرك ، القذائف ، الآلات ، مما يعد بادرة إيجابية ومحاولة لإشاعة تلك المصطلحات فى الشعر أيضا .

وعندما سقطت «بغداد» بيد الحلفاء وجدنا بعض الشعراء يبتهج بذلك وعلى رأسهم «عبد المحسن الكاظمى» ، إذ يمدح بقصيدة نونية تعبيرا عن فرحه ، فالظلم – كما يزعم – قد ازيح عن المدينة وأضحى أهلها لاينازعون فى إدارتها ، ويشير إلى هزيمة «الاتراك» ومطاردة «الانجليز» لهم ، ويسم الأتراك بالوجوه الحمر ، بينما الحلفاء بالأكف البيض .

اتانى أن بغداد أُريحَتْ — فلاكَذَبَ البشيرُ بما اتانى
أُريحَتْ من ليالٍ كُنَّ ناراً — فمن بِكرٍ تشبُّ ومن عَوان
وَرُدَّ لها التراثُ فلايعيدُ — ينازعُها التراثَ ولامُدان
وقد نَزَلَ الشجاعُ النّدبُ فيه — نزولَ الخوفِ فى قَلْب الجبان
يطارِدُ من طغى وبغى عليه — مطاردةَ السَّبيتى للاتان
كأنّى بالوجوه الحمرِ ولّت — مجلّلَةً بمثلِ الزَّعفَران
كأنّى بالاكفِّ البيضِ عادَتْ — مخضبةً بلون الأرْجوان (١)

ونجد شاعرا يسمى «عز الدين آل علم الدين» ينشر قصيدة قوية السبك بعنوان «دار السلام» يؤكد فيها أسباب النّقمة على الاتراك ، وأنهم من نسل «جنكيز خان» ، خربوا البلاد وظلموا العباد ، ويواسى أهل المدينة قائلا :

---

(١) ديوانه ١٢٨/١ .

دارَ السَّلامِ وقبةَ الإسلامِ دارَتْ عليك حوادثُ الأيَّامِ
فَسَقَطتِ من أيدٍ مُخرِّبةٍ إلى أيدٍ مُعمِّرةٍ لكلِّ رِمامِ
أيدٍ تحثُّك للتَّرقي والعلى وحياةِ الاستقلال والإقدام
ونجوتِ من شَرك الجَنَاكِزةِ الألى ظَلَموا وماعُرِفوا برعى ذِمام
لاتجزعى بغدادُ إما قيل عنـ ـك سَقَطْتِ بعدَ معاركٍ وصِدَام
فلَرُبَّما سَقَطَتْ فرائدُ غادةٍ ثم ارْتَقَتْ للجيدِ بعد نِظام
وتقلبُ الحدثانِ أنْفَعُ مُوقظٍ للنَّاس من سنةٍ بهم وسِئام

ويحثها بعد ذلك أن تسرع الخطى نحو الرُّقى ، وإعادة مجد الجدود ، ويسم الاتحاديين بالبعد عن الإسلام ، وأنهم ذهبوا للاعتزاز «بالطورانية» بدلا منه ، لذا فقد طهرت العراق منهم بعد أن ذاقوا البلايا الجسام ، ويختم القصيدة راجيا من القائد المليبى "اللّنبى" أن يعيد «الشام» مثلما عادت العراق :

بغدادُ قد فُتِحَ الطريقُ ولم تَعُدْ
تلك العقابُ ونِلْتِ كلَّ مرام
لاعذرَ بعد اليوم ألّا تُرْجِعِى
مجدَ الجدودِ وعزَّك المُتَسامى
بغدادُ جِدِّى للعُلى ولْتضربى
أسمى قِبابٍ للعَلا وقِيام
يانسلَ "جنكيزٍ" "وهولاكو" الأولى
جَنَحوا إلى "بوزقورد"(١) لا الإسلام
قد طهَّر اللّهُ العراقَ بطردِكم
عنه فليس لكم بدارِ مُقام

---

(١) صنم كان الاتراك يعكفون عليه فى جاهليتهم الطورانية فقام دعاة العصبية التركية يعظمونه ويدعون إليه وينظمون القصائد فى تقديسه .

وإذاقكم عَوْدَ الردى فَفُرتم
جبناءَ والجبناءُ غيرُ كِرام

فعسى "النبى" ينتضى هنديةً
فيُعيدُ للماضى ربوعَ الشام (١)

ونظم شاعر آخر بتوقيع "ابن ماء السماء" قصيدة وصف فيها ساعات الاضطراب والفوضى التى حلت ببغداد بعد انسحاب الاتراك ناعيا عليهم أيام حكمهم فقال :

مابالُ بغدادَ قد ضاقتْ بها الحالُ
وخفَّ بالأهلِ منها اليومَ تَرْحالُ

بالأمسِ كانت بقايا الجندِ رابضةً
فيها وللنّاس أشغالُ وأعْمَالُ

وكان للتّركِ فوضى من تجبرهم
واليومُ للترك لاقيلُ ولاقالُ

كانت بها غُرفاتُ الظّلمِ شامخةً
ماأصبح الصّبحُ إلاّ وهى أطْلال

ثم يصف ليلة سقوطها وما اعترى الناس من خوف وهلع ، فالصواعق تدك كل شىء ، والزلازل تهدم كل عال ، وللمدافع دوى تكاد تسقط النجوم من هولها وللرصاص صفير يصم الآذان ، وذهب الناس لسوء الحال فى التفكير كل مذهب .

ليلُ السقوطِ بدا بالنّحس طالعُه
تصادَمتْ فيه بالأهوالِ أهوالُ

ريحٌ ورعدٌ وبرقٌ واصطدامٌ وغىً
كأنّما ازْدَحَمَتْ فى الأفْق آجال

---

(١) المقتطف عدد سبتمبر ١٩١٧م مجلد ٥١ .

للسّلبِ والنّهبِ بين النّاس معتركٌ
لكنّما قتلاهم في السّوق أموالُ

وللمدافعِ رعدٌ في سمائهم
تكادُ منه عقودُ النّجم تنثالُ

وللرّصاصِ صفيرٌ في مسامعهم
وللخيالاتِ في الأفكارِ أشغالُ

وبينما الحال كذلك إذ لاحت للشاعر امرأة ، يسح دمعها على وجنتيها وبيدها طفل ، صارخة بملء فيها "رحماك رباه قد ضاقت بي الحال" إذ لاملجأ تأوى إليه ، ولاقريب يواسيها في محنتها ، ولارجل يذود عنها صولة الذئاب .

لاحتْ لي امرأة في السّوقِ ماشيةً
ودمعُها فوقَ صحْنِ الخدِّ هطّالُ

تقودُ طفلاً صغيراً وهي صارخةٌ
رحماك ربِّيَ قدْ ضاقت بي الحال

وقدْ غدوتُ عن الدّنيا مجردةً
لا والدٌ لي ولاعمٌّ ولاخالُ

ولاشقيقٌ ولازوجٌ ولاصلةٌ
تُرْجى ولاليٌّ بها دارٌ ولامالُ

ويسرّى عن المرأة زاعما أن "الانجليز" الفاتحين يعرفون للعرب حقوقهم ، بعد أن ذكر أن العرب نالوا مطلبهم بخروج الاتراك ، بفضل الحلفاء "الانجليز" .

ثم يصف الشاعر هزيمة الأتراك الى جبل "حمرين" ، وفضل هذا الجبل عليهم إذ لولاه لأفنى الانجليز جمعهم وأبادوهم ، ثم يهاجم الاتراك الذين جحدوا النعمة وابتعدوا عن الهدى ، راكنين إلى الظلام مبتعدين عن الحق .

الترك قد تركوا بغداد وانهزموا
من بعد حرب لها قد شيب اطفال
لولا الموانع من "حمرين" تمنعهم
لم يبق منهم بهذا القطر خيال
اهالهم موقف ضاق الزمان به
ذرعاً وليس له فى الدهر امثال
لانهم جحدوا النعمى وماشكروا
وعن طريق الهدى فى غيهم مالوا
عالوا على العرب فى تبعيدهم فغدوا
كأنهم فوق رعن الطود أو عال

«وأسلوب الشاعر ليس من الاساليب العالية ، ولاشعره من المتانة مايمل به إلى الشعر المقبول ، وانما نستشهد به لانه سجل لنا هذه الفترة تسجيلا واضحا» (١). ولو انه استرسل فى وصف تلك المرأة ومشهدها الإنسانى لكان أجدى قيمة فكرة وفنا

شعراء وقفوا مع الدولة :

وكان «معروف الرصافى» أوفى شعراء العراق للاتراك ، إذ نجده ينظم قصيدة معبرة عن احساسه ، مبينا شدة حزنه وألمه لفراق العثمانيين ، إذ سكب الدموع على ما آل اليه حال العراق بيد الانجليز بعد العز الذى كان به ، واظلمت السماء فى عينيه ، كيف وقد ذهب الحماة واضحت بغداد كسفينة لاربان لها ، فضاقت الدنيا فى عينيه ، وانهالت الدموع منهما بعد أن أسكته الحزن ، ثم يتساءل متحسرا عن الذين تركوا بغداد بلاحام ، ويلقى باللائمة عليهم إذ ولوا عنها مسرعى الخطى ، برغم شغف البلاد بهم ، وحنينها إليهم .

(١) الشعر العراقى الحديث ص ١٠٤-١٠٦ .

هي عيني ودمعها نضّاحُ   كلّ حزنٍ لمائها يمتاح
كيف لا أذرفُ الدموعَ وعِزّي   بيدِ الذلِّ هالكٌ مجتاح
قد رمتني يدُ الزمانِ بخطبٍ   جَلَلٍ ماللّيلِهِ إصباحُ
حيث غمّت عليَّ وجهَ سمائي   ظلماتٌ تحفى بها الاشباح
وتَوارى عن أعيني مضمحِلاًّ   شرفٌ في مواطني وضّاح
يوم أمسيتُ لاحماةٌ تذودُ الضيـ   ـم عنّي ولاظُبًى ورماح
فأنا اليوم كالسفينةِ تجري   لاشراعٌ لها ولامَلّاح
ضقت ذرعاً بمحنتي فتراءتْ   قيدَ شبرٍ لي الفجاجُ الفِساح
أخرسَ الحزنُ منطقي بنحيبٍ   السنُ الدمعِ فيه ذُلْقٌ فِصاح
نحتُ حتّى رثى العدوُّ لحالي   واعتراني من العويلِ بُحاح
فمياهي هي انسكابُ دموعي   وخريري هو البكا والنُّواح
أوما تبصرُ اضطرابي إذا ما   خَفَقَتْ في جوانبي الأرواح
ليس ذا الموجُ فيَّ موجاً ولكن   هو منّي تَنَهُّدٌ وصِياح
إنّ وَجْدي هو الجحيمُ ولولا   أدْمُعي احرقتْني الأتراح
لو دَرَى مَنْبعي بما أنا فيه   من أسىً جفَّ ماؤُه الضحضاح
علّه قد درى بذاك فهذا   هو باكٍ ودمعُه سفّاح
أين أهلُ الحِفاظ هل تركوني   نهبةً في يدِ العدو وراحوا
بَرَحوا وادي السلام عجالا   أفجدٌّ بَراحهم أم مِزاح
مالهم يُبْعدون عنّي انتزاحاً   وعزيزٌ منهم عليَّ انتزاحُ
أو مايعلمون أنَّ حريمي   للمُعادين بعدهم مُسْتَباح
فلئن يبعدوا فإنَّ فؤادي   لإلَيْهم بودّه طَمّاح
تركوني من الفراق أُقاسي   ألماً ماتُطيقُه الأرواح
لو رأوني سَبِيّاً بأيدي الأعادي   لبكوا مثلما بكيتُ وناحوا
لامسائي بعد البعادِ مساءٌ   يومَ بانوا ولاالصباحُ صباحُ
أتمنّى بأن أطيرَ إليهم   بجناح وأين مني الجناح
أنا أدري بأنّهم بعد هجري   لم يذقوا غمْضاً ولم يرتاحوا

بل هم اليوم عازمون على الزّحـ ـــفِ بجيشٍ به تَغصُّ البطاح

إنْ تأنّوا فربضةُ اللّيث تأتي	بعدها وثبةٌ له وكفاح
كيف يُغضُونَ عن إغاثة وادٍ	زانه من ودادِهم أوْضاح
فعليه من فخرِ عثمانَ تاجٌ	وله رايةُ الهلال وِشَاح
أنا باقٍ على الوفاءِ وإنّ كا	نت بقلبى ممن أحبّ جراح
فإليهم ومنهم اليوم أشكو	بلّغيهم شكايتى ياريـاح (١)

وهذه القصيدة خير معبر عن عاطفة الرصافى تجاه العثمانيين ، ويدل على تعلقه بهم وجهره بذلك رغم الوجود الإنجليزى ، وبرغم ماذاق العراق من مظالم من الاتراك مثلما صرح بذلك :

أنا باقٍ على الوفاءِ وإنّ كا	نت بقلبى ممن أحبّ جراح

ووفق فى نظر الباحث فى وصف حال العراق على لسانه ، حتى كأنّ ذلك الحنين والعتاب معبران عن السهول والجبال والأنهار :

فمياهى هى انسكاب دموعى	وخريرى هو البكا والنُّواح

واختار الشاعر الفاظا حزينة لتكون أدل على مراده ، فأضفى بذلك على القصيدة معانى ثرة "دمعها نضاح" ، "حزن لمائها يمتاح" ، "اذرف الدموع" ، "اخرس الحزن" .

كما أن اختيار بحر الخفيف وقافية "الحا" زادا من إظهار الجو العام للقصيدة لمناسبتها لموضوع الحزن .

وحفلت بمجموعة من الصور المعبرة نحو قوله :

وتوارى عن أعينى مضمحلا	شرف فى مواطنى وضاح
فأنا اليوم كالسفينة تجرى	لاشراع لها ولاملاح

---

(١) ديوانه ٤١٩/٢-٤٢٠ .

ليسَ ذا الموجُ فيَّ مَوجاً ولكنْ　　　　هو منّي تَنهّدٌ وصياحُ

ويصور محمد عبد المطلب فى قصيدته الطويلة - التى مرت بنا فى الباب الأول - كيف هجم الحلفاء بجحافلهم على الشام والعراق ، يقودهم رجل ضعيف أحمق وقد أخذ الخوف منهم مأخذه وأصيبوا بداهية حول غزة حتى تفرق جمعهم مابين مقتول وفار .

وحال جيش العراق ليس أحسن حالا من جيش الشام ، إذ ذاقوا الأمرين قبل دخولهم بغداد ، وفى الكوت .

والحظُ أنه فى حديثه عن العراق اعترف بالاستيلاء عليه ضمنا ، أما فى الشام فلم يشر إلى ذلك لأنه عندما نظم القصيدة كانت المقاومة مازالت سارية ، أو أن الحلفاء لم يستولوا على الشام كله إبّان نظم هذه القصيدة .

عشيةَ راحوا ألفَ ألفٍ يَقودُها
إلى حَتْفِها جهلُ الزنيمِ الحَفَلَّقِ

تَرى كلَّ ألفٍ منهمُ قِرْنَ واحدٍ
وقَدْ عَلِقوا من خوفِهِ كلَّ مَعْلَقِ

فما لبثوا أنْ أرزمَ الموتُ بينَهم
بداهيةٍ من حولِ غزةَ بَهْلَقِ

فإن أقبلوا طاحوا وإن أدبروا فَنُوا
وإنْ أبَقوا فالويلُ للمُتأبِّقِ

وماكان جيشُ الشامِ إذْ ضَلَّ كيدُه
بأشأمَ من جيشٍ هُنالِك مُغْرِقِ

تركنا لهم سيفَ العراقِ ليشهدوا
ببغدادَ كيدَ الحارشِ المُتَشَقِّقِ

فما وَطئوا بغدادَ حتى تَبَيّنوا
وجوهَ الرّدى فى"سُرّ من را"وسُرَّقِ

وكم ذاكَوَتْ "كُوتُ الإمارة " منهمُ
قفا هاربٍ أو ذى إسار مُحَلّقِ
غداةَ حرّقنا "تاوشِيدَ" فلم يَرِمْ
ومادتْ "بِمُودٍ" كلُّ ميثاءَ سَمْلَقِ (١)

ومن اللافت أن الشاعر فى هذا المقطع عمد إلى المجانسة كثيرا ربما ليهول من شأن ماحل بالحلفاء هنالك نحو قوله "وإن ابقوا فالويل للمتابق" ، وكمذا كَوَت "كُوتُ الإمارة " ، "ومادت بمُود " .

وحوى عددا من الأعلام ، كأماكن الوقائع ، وقادة الحلفاء ، مما يعد وثيقة يستأنس بها المؤرخ .

وعندما تمت سيطرة الحلفاء على بلاد الشام ، هال الشاعر«محمود صادق»ذلك الأمر وأحزنه ، فصب جام غضبه على العرب الذين تعاونوا مع العدو وأنّبهم ، إذ هم سبب ضياع البلاد ، ورثى لحال الأمة وماوصلت إليه من فرقة .

ياجيرةَ الخِلِّ دمعتى	من فَرْط وَجْدى وحَسْرتى
كيف اصطبارى وإن أكُن	أُنْحى عليكم بلَومتى
أنتم اضعتم بلادَكم	مابين جهلٍ ونشوة
....	
إنّى لأرثى انقسامَكم	بعدَ اتفاقٍ وأُلفة
إنى لأنعى فُتَاتَكم	بعد اتحاد ووحدة (٢)

بينما يشير فى قصيدة أخرى إلى ذلك الحدث ، ويخاطب البطل المجاهد«صلاح الدين الأيوبى»شاكيا حال المسلمين ، إذ الصليبية عادت مجددة أحلام الصليبى "ريكادوس" .

---
(١) ديوانه ص ١٦٦ .
(٢) ديوانه ص ٣٥ .

عليك "صلاح الدين" نهتاجُ حسرةً
على الدين والدنيا ويبكى المُهنَّدُ

عليك سلامُ اللـه قـد كنتَ مُنْجِداً
ومالك منا اليوم فى الخلق مُنْجِد

لقد عاد "ريكادوس" وانتهك الحمى
وعاث المليبيونَ فى المُلك واعتدوا (١)

وتنتهى الحرب ويحكم الحلفاء سيطرتهم على البلاد الإسلامية جميعا فهاله ماحل بالأمة من فرقة ، فأخذ يتساءل فى إحدى قصائده عن الوحدة المنهارة على يد الخارجين على دولة الخلافة ، وأبان أن مردّ ذلك هو إباحة البلاد الإسلامية للمليبيين ، وأن إحسان الظن بهم خطل .

فأينَ وحدتُكم بَلْ أينَ قوّتُكم
بلْ أينَ عزتُكم ياخيرَ أقوامِ

وأينَ أينَ حِمىً قد كان يَمنعُهُ
فى سالفِ الدهر منكم كلُّ ضِرغامِ

أبعتموه لمن لايُشتَباحُ لهم
فكان ماكان من بغي وإجرام

أحسنتم الظنَّ فيمن ليس يُحسنُه
فيهم سوى سادرٌ فى ليل أوهام

لقد نَقِمتُم على أحكام مَن سَلفوا
فاليوم قامَ عليكم شَرُّ حُكّام

يادولةَ العربِ أينَ اليومَ ماوعدوا
على العراق أنبكى أم على الشام (٢)

---

(١) السابق ص ١٣١ .
(٢) نفسه ص ١٣٢ .

وهذا الشعر وإن لم يحفل صاحبه بالصور والأخيلة إلا أنه يشفع له عاطفته الصادقة وحنوه على أمته وما ألم بها من جراح عميقة ، يلمس ذلك من تساؤلاته التى تنبىء عن الحزن واللوعة لذلك المصير .

وبذلك يتبين مدى الحرب العالمية الأولى داخل البلاد العربية وأثرها فى شعر شعراء هذه الحقبة ، وكيف أنها أظهرت شعراء مغمورين وانطقتهم بعد أن كاد أن يطمرهم الزمن . .

الباب الثالث

الخصائص الفنية للشعر في هذه الحقبة

الفصل الأول : الألفاظ والصور .

الفصل الثاني : ظواهر مشتركة .

الفصل الأول

الألفاظ والصور

(أ) الطبقة الأولى .

(ب) الطبقة الثانية .

إنّ محاولة الوقوف أمام الظواهر الفنية في هذه الحقبة التاريخية الطويلة من شعر الحرب يحتاج إلى الحيطة والحذر نظرا لتفاوت النماذج الشعرية تبعا لتعدد الشعراء ،واختلاف اقطارهم وثقافتهم .

لذلك فإن مثل هذه الدراسة يتطلب من الباحث أن يميز المستويات الفنية للشعر الذى حفلت به هذه الحقبة بعضها من بعض ، ويمكن بعامة تمييز مستويين : الأول – وهو كثرة غالبة – ضعيف تعوزه القريحة القوية والروح الوثابة ، والصور الحية المؤثرة ، والثاني – وهو قلة – طفق تتعاظم قوته في خضم التفاعل مع الأحداث ، ومع المؤثرات العامة والخاصة التي تبعث الحياة الأدبية من مرقدها ، وتقيلها من عثرتها الطويلة[1] ، وقد تمثّل هذا التيار في الرواد الذين سأشير إليهم فيما بعد .

لذا ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار مراحل التطور التي مر بها الشعر العربي في ذلك الوقت ، وارهاصات نهضته إلى أن بلغ مابلغه على يد رواد النهضة .

يقودني هذا الملحظ إلى تقسيم مابين يدى من شعر إلى طبقتين :

ويستلفت الباحث في الطبقة الأولى :

ظاهرة الضعف في الألفاظ والصور عند فئة من الشعراء ، وإلى ظاهرة القوة في نماذج أخرى من الطبقة الثانية .

---

(١) انظر في المؤثرات العامة : في الأدب الحديث ، د. عمر الدسوقي ، الأدب العربي المعاصر في مصر ، د. شوقي ضيف ، الشعر العراقي الحديث ، د. يوسف عز الدين ، الأدب العربي المعاصر في فلسطين ، د. كامل السوافيري ، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، أنيس المقدسي ، وغيرها .

فأما الطبقة الأولى :

فلاتوليد يذكر عندها ولاتجديد ، وإنما هي ألفاظ محفوظة دون معاناة في التجربة الشعرية ، إذ أنهم لم يملكوا المادة اللغوية وأسرار تراكيبها ، فكان استعمالهم لها برؤية غامضة ، إما لأن بعضهم لايعتبر من الشعراء المتفرغين للشعر ، وتعاطى الشعر باعتباره مظهرا للعلم والثقافة ، أو كتبه ولمّا تكتمل أدواته لديه ، فافتقر إلى الممارسة والدربة .

على أن الصحف إبّان ظهورها قبلت نشر بعض المشاركات الشعرية برغم تفاهتها طلبا للرواج أو تشجيعا للناشئة ، وتوسيعا لدائرة الثقافة ، فلاغرابة في وجود تشابه في لغة الشعر – ألفاظه وتراكيبه – بين بعض شعراء هذه الطبقة .

ضعف الألفاظ والتراكيب :

ولو ذهب الباحث يتقصى صور ضعف الألفاظ والتراكيب عند هذه الفئة لطال به المقام ، ولكني سأقتصر على أنماط الضعف وأحاول ردّ هذا الضعف إلى علته .

فلانلقى عند هذه الطبقة إلا ألفاظا وتراكيب مرصوصة ، وصفات مكررة ممتاحة من الذاكرة لاروح فيها ولاحس ، من ذلك قول "محمد بجيش التّازي" في حروب الدولة في المغرب العربي عن سقوط "أصيلا" :

فهذا هوانٌ واحتقارٌ وذلةٌ وعارٌ شنيعٌ ثم قلةُ حيلةٍ (١)

فمع صحة الشعر لغويا وعروضيا ، ومع صحة المعنى الذي تضمنه البيت إلا أنه ضعيف النسج ، مبتذل تشيع جمله وتراكيبه على ألسن العامة .

(١) الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين ص ٢٠٠ .

ولايبعد عنه في الفجاجة والابتذال قول "محمد بن عبد الله المستغانمي" في مدح والي الجزائر "محمد بكداش" :

أيامُكم اقبلتْ ودولةُ سعدتْ وزحمة وَسِعَتْ في البدو والحضرِ
بحاكمٍ فاضلٍ وعالمٍ عاملٍ أحيا الحنيفيةَ السمحاءَ كالمطر (١)

ونحوه قول "ابراهيم الخراط" :

لك فاعزم غازيا واحسم الكفرا
وجاهِدْ فدينُ الله يَهدى لك النّصرا (٢)

وشاعت هذه الظاهرة بين بعض الشعراء العرب في حقبة النهضة ، لافرق بين مشارقة ومغاربة ، ومن ثم فإني الحظها بين شعراء مصر والشام كقول "سليمان الصولة" في الحرب الروسية الثانية :

حَظيتُ بطلعة المَلكِ المُفدّى أمينِ اللهِ سلطان الوجودِ (٣)

فاستعمال الشاعر لهذه الصفات المتعددة كأنه ساقها دون قصد غير الحرص على إقامة الوزن والقافية .

ونحوه قول "علي الليثي" في تلك الحرب أيضا :

فسلْ عن مساعيه حكومَته التي
قد انتظمتْ بالحلم والعلم والبرِّ (٤)

وبرود عاطفة "أحمد أفندي" أدى إلى ضعف تراكيبه وركاكة شعره إذ يقول في حرب البلقان :

وخوضوا النّقعَ والهيجاءَ حتى تنالوا منهمُ اقصى المُرادِ
وتحتلوا العواصمَ من ملوك مغطرسةٍ بأبناء السواد (٥)

---

(١) التحفة المرضية ص ١٧٧ .
(٢) عنوان الأريب ٥٤/٢ .
(٣) ديوانه ص ٦ .
(٤) الوقائع عدد ٧٢٢ .
(٥) المقتبس عدد ١٠٣٠ .

بينما نجد "عبد الرحمن المصرى" فى تلك الحرب ، فقد الشعور بواقعه الذى تغير ، ولم يعد واعيا به ، لذا أتت الفاظه وتراكيبه ركيكة ، وتعليله ضعيفا غير مقنع حيث قال :

دَعُوا الموزرَ المرتين فى الحرب واسحبوا

السيوفَ فان السيفَ أحكمُ فى القُرب و(١)

ومن دلائل الضعف كثرة استخدام أداة الوصل من دون مبرر يدعو إلى ذلك نحو قول "محمد بن عبد الرحمن المغربى" فى حروب المغرب ـ استعادة وهران ـ :

وكيفَ وقد غدوا والرعبُ يَجرى بهم بين الطريدةِ والطريدِ
ولولا الليلُ جنّهم لأضحوا نهارا فى مغلَّقَةِ القيود
ولولا انّهم شردوا بليلٍ لكان القتلُ أجدرَ بالشريد (٢)

فيقول:إن الرعب جعلهم يفرون بليل من جندنا ،ولو كان ذلك نهارا لوقعوا فى القتل أو الأسر جميعا ، لكن عيّ الشاعر أوقعه فى العبارة المهلهلة ، والتركيب الضعيف نحو "مغلقة القيود" ، فضلا عن كثرة استخدام أداة الوصل "الواو" فى غير حاجة .

وكقول "أحمد بن عبد الله القاضى" فى الدعوة لإنقاذ وهران :

فمَنْ مُبْلِغٌ عنّى قبائلَ "عامرٍ"

ولاسيَّما مِمَنْ ثوى تحت كافرِ

وكلّ كميٍّ من صناديدِ "راشدٍ"

بتيجانها مع رأسها عبدِ قادر

---

(١) السابق عدد ١٠٣٧ .
(٢) التحفة المرضية ص ٢٦٠ .

وجيرانهم فى الغرب من كلّ ماجدٍ
طويلِ القَنا اهلِ الوفا والمَفَاخِرِ
"وطلحةَ" والاحلافَ فى غربِ هبرةٍ
وشيخَ "سويدٍ" بل وكلَّ مُفاخِر
وشيخَ "بنى يعقوب" الحامى الحِمى
بكلِّ قبيلِ مُولَع بالعساكر
ويامشعرَ الإسلام فى كلِّ موطنٍ
وفى كل نادٍ سالفٍ ومعاصر
ويامعشرَ الاتراك ياكلَّ عالمٍ
وكلِّ ولىٍّ حافظٍ للأوامر
وياسادةَ العربانِ مِنْ "آل هاشم"
وغيرهم باللـه ماصبرُ صابر (١)

فالصرخة التى تضمنتها الأبيات شريفة نبيلة صادقة ، ولو انها صادفت شاعرا موهوبا ، قوى القريحة ، مالكا ناصية البيان لخلدت فى تاريخ الادب العربى ، غير أن استعداد الشاعر محدود ، ولغته الشعرية خالية من الجمال ، وتكراره لاداة الوصل "الواو" عدة مرات ، أدى كل ذلك إلى ضعف تأثيرها .

ونحوه قول "عبد المحسن الصحاف" فى الحرب العالمية الأولى التى امتدت إلى داخل الوطن العربى :

إلى فتكِ الأعادى فاشرئبوا   وتخليصٍ لِعُربٍ هاتفينا
هلموا واهرَعوا من كلِّ فجٍ   فإنّ اللـه مَولى المؤمنينا
ومِنْ ذاك السراب فلاتخافوا   فانتم ماءُ كلِّ الظامئينا (٢)

(١) حرب الثلاثمائة عام ص ١١٧، ١١٨ .
(٢) القبلة عدد ٢٤ ، محرم ١٣٣٥هـ .

فالضعف باد في استغلاق المعنى وتعقيده ، حيث يذهب الظن بادئ الأمر إلى أن الظامئين هم العدو الذين وصفهم بالسراب ، وانما المقصود بالظامئين بقية العرب من ورائهم الذين ينتظرون النصر على أيديهم .

ثم إنه كرر حرفي الوصل "الواو والفاء" عدة مرات ، دونما داع فني ، مما يدعم القول أن الصحافة كانت من عوامل ظهور مثل هذا الشعر وبروزه حينما لاتجد شعرا جيدا تزين به صفحاتها .

فالركاكة عند هؤلاء تاتى فى لغتهم الشعرية بالدرجة الأولى ، ولاترجع إلى نحو اللغة واستعمال مفرداتها فيما وضعت له ، وإنما إلى التصرف باللغة بحيث تؤدى الأفكار التى تراود الشاعر ، وتعبر عن إحساسه تعبيرا مرهفا دالا على ذلك الإحساس .

ولايعني سلامة اللغة في هذه الحالة خلوها تماما من الخلل ، لأننا قد نجد بعض الشعراء يخلون بالقاعدة النحوية خاصة في القافية مراعاة لروى القصيدة مما يعد في باب الضرورات الشعرية والذى اطلق عليه علماء العروض "الإقواء" كقول "محمد المستغانمي" في حروب المغرب العربى : في الاستصراخ لإنقاذ وهران :

سلطانُنا المُرتضى دامت سعادتُه
وازداد نصرا على نصر مدى العُمُرِ

فقد أتى واحدا في عصرنا رافعا
لراية العلم والشرع القويم حَرِى

ياجيشَنا فابشروا بالحسنيينِ لكمْ
أَجَنّةَ الخُلدِ او فتحاً هنيئاً مرى (١)

---

(١) التحفة المرضية ص ١٨٣ .

فروىّ القصيدة مكسور ، لذا كسر "مريئا" وحقها النصب .

ومن هذا الباب أيضا قول "أبى عبد الله حفيد المهدى":

وتَأَهَّبتْ فرسانُنا لقتالِهم
والخيلُ تَرفلُ فى السروجِ وتَصْهِلُ

ثم امتطوا لظهورها وتقلّدوا
بكواكبِ الأسياف ممّا يُحمّل

....

وتعلّقت أبطالُنا بحُماتِهم
تبدى لهم حرباً أمرَّ وأهول (١)

فرفع "أهول" وحقها النصب .

التاريخ الشعرى :

ومن الظواهر الموجودة عند قلة من شعراء هذه الطبقة مايسمى "بالتاريخ الشعرى" وهى سمة من سمات الضعف الشعرى الذى تفشى فى العصور المتأخرة ، إذ استحال حشوا تمجه الذائقة الشعرية .

ولكن الملحوظ أن الشعراء البارزين لانجد تلك الظاهرة لديهم ، وخاصة فى شعر الحرب هنا ، مما يدل على تخلصهم من أكثر مظاهر الضعف عند بعض الشعراء المعاصرين لهم .

ومن أمثلة وجود هذه السمة فيما بين أيدينا من شعر برغم معاصرة بعضهم لرواد النهضة الشعرية قول "عبد الله باشا فكرى" فى الحرب الروسية الأولى ١٢٧٢هـ :

وجاء بشيرُ النَّصر يشدو مؤرخا
لقد جاء نصرُ اللهِ وانشرحَ القلبُ (٢)

ونحو قول "على الليثى" فى الحرب الروسية الثانية ١٢٩٤هـ :

(١) السابق ص ٢٨٨ .
(٢) الآثار الفكرية ص ١٣ .

فبهجةُ هذا العيد بالسّعد أرّخت

جلوس الخديوى عيده دام للنصر [(١)]

ومن ذلك قول "احمد نامى" فى الحرب اليونانية ١٣١٤هـ:

والعبدُ نامى إلى الاعتاب أرّخها

النصر فى مُلككم يآل عثمان [(٢)]

على أن هذه الظاهرة قد تلاشت بعد هذا التاريخ فى شعر الحرب ، مما يدل على أن تيار الوعى بدور الشعر على يد زعماء النهضة بدا يؤتى ثماره حتى عند الشعراء الضعاف .

ومن مظاهر الضعف الإخلال بالوزن كقول "محمد بن يجيش التازى" فى الدعوة لاسترداد "أصيلا" :

فقمةُ أُصيلا عرفتـُم جميعـا

ومافَعَلَ الاعداءُ من شرٍّ غـدرةٍ

واضحت على الإسلام تبكى رسومُها

وسكّانها قد صاروا فى ارضِ غُرْبَة

مساجدُها تبكى على فقدِ أهلِها

كان لم يكن فيها مرددُ سُوْرَة

صوامعُها قد عُطّلت عن أذانها

كأن لم يكن فيها اذان مُصَوّت

فالقصيدة من البحر الطويل وقد اخل به فى الشطر الأول من البيت الأول "فقمة اصيلا" ، وكذا عند قوله فى البيت الثانى "قد صاروا فى أرض غربة" [(٣)] .

ومثله قول "محمد بن يوسف الجزائرى" :

ولقد عَلا بين الملوك بعدله وجرى من العلياء أقصى مَدى

---

(١) الوقائع عدد ٧٢٢ .
(٢) ديوانه ص ٧ .
(٣) الحركة الفكرية فى المغرب فى عهد السعديين ص ١٠٠-١٠١

في عسكرٍ مِن حزبِهِ ذي نجدةٍ   في المُعضلات بهم يُعز ويُهتدى (١)

فالقصيدة من البحر الكامل التام ، بينما التفعيلة الأخيرة من الشطر الثاني من البيت الأول لم تكن موافقة لتفعيلات البيت .

ونحوه قول "محمد بن عبد الله المستغانمي" :

لازلتُ أقتبسُ الآثارَ حيثُ بدا

لمُقْلَتي كوكبٌ بالنصر مُتَّزِرِ

إمامُ عَدلٍ حماه الربُّ حيثُ غدا

معتصماً صابراً لله منتصرِ (٢)

فالقصيدة من البحر البسيط بينما تختلف تفعيلات الشطر الأول من البيت الأول عن تفعيلاته الباقية .

وعلاوة على ذلك فان الإقواء ظاهر في البيتين إذ حق متزر ومنتصر النصب على الحال .

وهكذا تتعدد مظاهر السقم والإخلال عند طبقة من شعراء هذه الحقبة المبكرة ، فثم تهافت في المعاني ، وسقم في التراكيب ،وتعقيد في الألفاظ والمعاني ، إلى صور مختلفة من الاخلال بموسيقى الشعر .

والدلالة العامة أن الثقافة العامة صارت ضحلة ، والاعتناء بالتراث وعلوم السلف صار واهيا ضعيفا ، يضاف إلى ذلك الرغبة في الحياة وروح التوثب والطموح إلى القيم الجميلة التي تحض على الفعل وإثراء الحياة .

إن الضعف الذي كانت تعاني منه الحركة الأدبية بعامة ، والشعر بخاصة هو هو بعينه الذي لاحت أماراته على الإنسان والمجتمع .

---

(١) التحفة المرضية ص ١٧٥ .
(٢) نفسه ص ١٨١ .

التكالب على المحسنات :

نجد التكالب على المحسنات عند شعراء هذه الطبقة ظاهرة بارزة ، ويبدو انهم نظروا لها على أنها دلالة البراعة والقدرة الشعرية ، برغم كون بعضهم وصل به استعمالها إلى درجة ممجوجة لايتقبلها الذوق .

فهذا "أحمد القليبي" عندما احتل الفرنسيون الجزائر سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م ينعى على الوالي "طاهر" تخاذله واستسلامه فيقول :

إنها نارُ فتنةٍ اوقدوها ... بيَدَى نَجْسٍ وسمّوه طاهر
اضحك الناس ساعةً ثم أبكى ... من له مُقْلَةٌ بدَمْعٍ تَحَادَر (١)

فإصراره على الطباق دون مقتضى من المعنى دفع به إلى التكلف "نجس ، طاهر ، اضحك أبكى" .

وكقول "محمد الشاهد" في الموقف ذاته :

لبستْ سوادَ الحزن بعدَ مسرّةٍ
وعمّتْ بواديك الفتونُ بلا حَصْرِ
رفضتَ بياضَ الحق عنك فاصبحتْ
نواصيك تشكو بالأمان إلى الجَور
أُصِبتَ بسهمٍ من عيونٍ سهامهم
تَزيد عن المد بالشفعِ والوتر (٢)

فكثرة الفتن ، وشيوع الجور بعد ماكان مستتبا ، لمسها الشاعر ولكن عباراته عجزت عن الوفاء بهذه المعاني ، فلجأ إلى المطابقة بين "السواد والبياض ، والحزن والمسرة ،

---

(١) الأدب التونسي في العهد الحسيني ص ٦٠ .
(٢) نفسه ص ٦١ .

والأمـان والجور ، والشفع والوتر" فبدا فى هذه الابيات عَيِيًّا متهافتا .

ونحوه قول "حمزة الفقى" فى حرب الروس الثانية :

اذا مابكت عينٌ لاخذك غِيلَةً فكم ضحكتْ ممّا فعلتَ ثُغور (١)

فلقد أضحى الطباق والمقابلة مجرد لعب وإظهار براعة ، بدون أى مبرر أو إشعاع فنى يمكن أن يضفى بعدا جماليا على البيت أو القصيدة ، مما يعد عاملا من عوامل الضعف والركاكة عند هذه الطبقة .

وكذا قول "عمر أنسى" :

إنّى أرى الشرفَ الرفيع يُنال فى
سوقٍ تباع به النفوس وتُشترى
حسبُ الفتى شرفا مَقَـالُ عـدوِّهِ
إنى لانظرُ من فـلانٍ قَسْوَرا
وكفاه عـارا أن يقول صديقـه
قد كان زيد فى الحروب مقصرا (٢)

فطابق بين "تباع وتشترى ، وبين عدوه وصديقه" ظنا أن السعى وراء ذلك مما يزيد المعنى إشراقا ، والأبيات جمالا .

وإذا كـان الطبـاق والمقابلـة بـذلك المستوى ، فـإن الجناس لايقل عنهما فجاجة .

فهذا "سليمان الصولة" فى الحرب الروسية الثانية يقـول :

فظلْتَ أميرَ أيامِ البرايـا وسعدَ سعود أوقات السعود
وصار بك الزمانُ لنا جنانا يَبُش بَشَاشةِ السمع الودود (٣)

(١) جريدة مصر عدد ٢٧ سنة ١٨٧٨م .
(٢) ديوانه ص ١١٠ .
(٣) ديوانه ص ٦٦ .

فلا أدل على الفهاهة وسوء الظن بالشعر من أن تصاغ الصورة بهذه الألفاظ المكررة "وسعد سعود أوقات السعود" ، "يبش بشاشة" .

ونحوه قول "حمزة الفقى" :

وللروسِ كم روسٍ من الذل أطرقت

وقيصرهم عن ملتقاك قصيرُ (١)

فجلى ان التكلف مقيت فج فى "للروس كم روس"، "وقيصرهم قصير" .

ومثله قول "عبد الجليل براده" فى الحرب اليونانية ١٣١٤هـ/١٨٩٧م :

وأدْهَم بالدُّهم الجيادِ دهاهُموا

فحاموا كحمر الوحش يتبعُها نِمْرُ

وترحالة عنها ترحّل جمعُهم

ودكدك من أنحائها السهلُ والوعرُ

وغمت غلوص بعد ذاك بريقها

فما ساغ لولا أن تداركها البحر

ولاريس "فى لاريس" بعد انهزامهم

رئيس فهم فوضى كأنّهم الحمر (٢)

"فادهم بالدهم .. دهاهم" و"ترحالة عنها ترحل" ، و"غمت غلوص" ، و"ولاريس فى لاريس" .. كلها أدنى إلى الفجاجة والعبث بالألفاظ من أن تكون أداء فنيا يحمل قيمة جمالية فى المعركة الظافرة التى ينوه بها الشاعر . (٣)

---

(١) جريدة مصر عدد ٢٧ سنة ١٨٧٨م .
(٢) حلية البشر ٧٨٢/٢ .
(٣) سأشير الى ضعف الصور فى مكانه من هذا الفصل .

ولو ذهب الباحث يحصى ألوان الضعف فى هذه الحقبة لألفاها تنتهى إلى علة مشتركة تفشت فى هذه الأحقاب ، وفى الصدر منها اضمحلال الثقافة ، والجمود الذى ران على الأمة مما أفضى إلى خمول العقل والوجدان ، كما نوهتُ من قبل .

الصورة :

إن الباحث فى شعر الحرب فى هذه الفترة يسترعي انتباهَه التباينُ لدى الشعراء فى طريقتهم الشعرية .

وشعراء هذه الطبقة - الأولى - كما يقول العقاد : "كانوا ينظمون القصائد ويخوضون فى الشعر لأنهم كانوا يعتبرون النظم حقا وواجبا على كل من تعلم العروض ودرس البيان والبديع ، وماإليهما من أصول الصناعة" (١) .

ولذلك فان الصورة لدى هؤلاء لابد أن تكون ضعيفة ساذجة فهذا "أبو عبد الله محمد حفيد المهدى" يصف الجيش الإسلامى أثناء تحريضه لاستعادة "وهران" بقوله :

وتهيأت فرسانُنا لقتالِهم
والخيل تَرفلُ فى السروج وتَصهلُ
ثم امتطوا لظهورها وتقلّدوا
بكواكبِ الأسياف مما يُحمل (٢)

فأى صورة جميلة تلمس من قوله : "وتهيأت ..." ، والخيل ترفل ، ثم امتطوا لظهورها ، وتقلدوا بكواكب الأسياف فالأبيات سردية فحسب ، ومثله فى السردية والسطحية قول "أبى عبد الله السيد محمد يوسف" فى استعادة وهران :

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ١٠/
(٢) التحفة المرضية ص ٢٠٠ .

نزلوا بها وبحيّها قد خيّموا
والخيلُ تسعى والجيادُ تُخزلج

فـرّت جيوشُ المشركين أمامَهم
لمّا رأوا برقَ الهدى يتضرّج

....

فاستفتحوا منها الحصونَ بعزمهم
ومن المدينةِ للحصون عرّجوا (١)

فالشاعر وصف الواقع بطريقة سردية ، لانشعر معها بانفعالاته ومعاناته في التصوير من خلال تجربته .

وماكان هذا الضعف خاصا بعصر الشاعر بل امتد طوال فترة هذا البحث عند كثير من الشعراء كقول "عبد الحليم المصري" في حرب "طرابلس" :

ياأيّها المسلمون استيقظوا وكفى
نوماً فإنّ عيونَ الغرب لم تنم

هذي ممالككم تُغشى وأرضُكم
يسومُها القومُ سَومَ النّوق للسَلَم (٢)

فإحساس الشاعر شريف ، ووصفه للواقع صادق نعم ، ولكن الشعر لايتفوق بوصفه للواقع فحسب ، بل يتفوق بتأثيره وجاذبيته ، واشتماله على الصور الجميلة التي يتأثر بها وجدان المتلقي .

وكذا قول "محمد بن سعيد العباسي" في تلك الحرب أيضا :

ولابد إن لم تجعلوا السيف حاكما
تفورُ بكم في كلِّ آونةٍ قِدرُ (٣)

---

(١) السابق ص ٢٤١ .
(٢) ديوانه ٨٥/١ .
(٣) ديوانه ص ١٠٥ .

فالصورة باهتة لم تكن على مستوى الهجمة الاستعمارية على العالم الإسلامي إبانئذ .

وكقول "عبد الرحمن المصرى" فى حرب البلقان :

خليلى هل شاهدتَ هجمةَ جندِنا
على دول البلْقانِ بالصارمِ العَضْب

فلو شاهدتْ عيناك والنقع ثائر
عساكرَنا فى مدِّ ملحمةِ الغَرْب

لشمْتَ بنى البلقان يرجُف قلبُها
وتُرعِدُ كالمحموم من شدّةِ الرُّعب (١)

فالعاطفة لم تكن على قدر الحدث وانفعال الشاعر بالموضوع لاتنم عليه ألفاظه وصوره ، فلاتفصيل يوقظ الانتباه ولاخيال يحملنا على جناحه إلى ماوراء الواقع ، ويبث فى روع المتلقى أهوال هذه المعركة المظفرة .

(١) المقتبس عدد ١٠٣٠ ذو القعدة ١٣٣٠هـ .

الطبقة الثانية :

الألفاظ القليلة الشيوع :

إن من يتأمل شعر «البارودي» ومن خلفوه من الشعراء الرواد يجد أن ألفاظهم وتعابيرهم قد تنوعت تنوعا كبيرا ، ويلحظ التباين فيما بينهم في تمثلهم للغة ، حيث الألفاظ القليلة الشيوع عند بعض الشعراء مثل البارودي - في المرحلة المبكرة - و«محمد عبد المطلب» ، و«عبد المحسن الكاظمي» ، و«محمد توفيق البكري» ، بينما تقل عند «أحمد محرم» و«شوقي» ، و«الرصافي» ، و«حافظ ابراهيم» ... الخ منظومة الشعراء الذين سلكوا هذا المسلك .

فالبارودي مثلا في الحرب الروسية الثانية ينظم قصيدته التي مطلعها :

هنيئا لريّا ماتضمُّ الجوانح

وإنْ طوّحت بي في هواها الطّوائحُ

فنجد ألفاظا قليلة الاستعمال في ذلك العصر "سمّور الغمام" ، "مُزْنة قَسْطل" ، "سمهريّ وقاضب" ، "شمّرى وسابح" .

فلاجوّ إلا سمهرى وقاضبٌ ولا أرضَ إلا شمّريٌّ وسابح

وقد نشأت للحرب مُزْنةُ قَسْطل لها مستهلّ بالمنية لائح (١)

وأما "محمد عبد المطلب" ، و"الكاظمي" فلاتكاد تجد قصيدة من قصائدهما إلا تحوي عددا جما من الألفاظ قليلة الاستعمال في عصرهم ، ومرد ذلك في ظني إلى اطلاعهم الواسع على التراث العربي وكثرة محفوظهم منه ، وهم بذلك العمل جددوا تلك الألفاظ باستعمالهم لها .

(١) ديوانه ١٦٢/١ .

فعندما نطالع قول "محمد عبد المطلب" فى حرب البلقان نلحظ العبارات الجزلة :

وأغرى بهم أنّا حفظنا عهودَهم
ولاعهدَ الا للخِفاف الصّوارم
علينا عهودٌ للمواضى قديمةٌ
نَفيها على رَغمِ الانوف الرّواغم
وللخيلِ منّا ذمّةٌ لانُضيعُها
رعيْنا لها حقَّ العتاقِ الصَّلادم
تميرُ المنايا عند بابيهِ حُفّلاً
إلى كلِّ جياشِ الحشا والزّمازم (١)

فقوله : "للخفاف الصوارم" ، "المواضى" ، "العتاق الصلادم" ، "جياش الحشا والزمازم" كلها الفاظ قليلة الشيوع بعث الشاعر فيها الحياة .

ونجده فى قصيدته فى الحرب العالمية الأولى ، كيف استرسل مع القافية الصعبة واتى بالالفاظ القليلة الذيوع مما يدل على غزارته واعتداده بموهبته اللغوية .

فما إن ترى إلا صريعاً على الثرى
ومُلتهباً يقْفو مصاباً بأوْلق
ومختبطاً فى الدوِّ يركبُ رأسَه
ضلالا ومن يستكبرِ الهولَ يَخْرق
يقول انجُ سعداً بالهوانِ فقد هَوَى
سعيد وحاق البأسُ بالمتعوِّق (٢)

فالالفاظ والتراكيب الجزلة فى شعره عموما تدل على

---

(١) ديوانه ص ٢٧١-٢٧٢ .
(٢) السابق ص ١٦٤ .

استيعاب روح الشعر القديم وعلى تمثل تراكيبه واستحضارها في شعره .

و"الكاظمي" من نفس المدرسة ، وينسج على نفس المنوال نحو قوله في حرب طرابلس :

لايصدقُ السيفُ مالم تصدقِ الهممُ
بالسّاعدِ الفَتْل يمضي الصّارمُ الخَذِمُ

إذا الهمامةُ هبّت من مكامنها
تمزّقُ الخَطْبُ وانجابت بها الغُمَمُ

عمَّ البلاءُ الا حصداء واقيةً
جفَّ الرّواء الا وطفاءُ تنسجمُ

....

خبا سناها واقوى دورُها وخوت
رباعُها وعَفَتْ آثارُها القِدمُ

وساوسٌ واحاديثٌ ملفّقةٌ
تلك الأماني التي يزهو بها الكلمُ (١)

"فالساعد الفتل" ، "الصارم الخذم" ، "الهمامة" ، "حصداء واقية" كلها ألفاظ نادرة الحضور في ذهن القارئ ، فساعد الشاعر على بعثها وتجددها بذكرها هنا ، ثم إن التركيب على غرار التراكيب القديمة ، بل إن البيتين الأول والخامس تذكرنا بقول «أبي تمام» :

السيفُ أصدق أنباء من الكتبِ
في حدّه الحدّ بين الجدّ واللّعبِ

تخرّصاً وأحاديثاً ملفّقةً
ليست بنبعٍ إذا عُدّت ولاغَرَبِ (٢)

---

(١) ديوانه ٢/٩٩-١٠٨ .
(٢) ديوان أبي تمام ١/٤٥ .

وكقوله في حرب البلقان :

سكتم فغرَّ الطامعين سكوتُكم
الا كلمةٌ من ذي هَزاهزِ كالِم

وكيف ينالُ الخصمُ منكم ودونكم
صرائمُ أمضى من شِفارِ الصّوارم

وكم ظهرِ جماحٍ ركبْتم فرضْتمُ
به كلَّ جماحٍ من الخُطَب عارِمِ

....

طَغَوا وبغوا واستمرءوا كلَّ باطل
وهاجوا وماجوا في الرُّبى والمخازِم

أن يقوهم حَرَّ الحديدِ وأوقروا
مسامعَهم بالمُمْليات الصّوالم (1)

فالنص يشتمل على الفاظ كثيرة ليست من الشيوع بدرجة تغني القارئ عن الرجوع بالكشف عنها في المعاجم مثل "هزاهز" ، "صرائم" ، "جماح" ، "الخازم" مما يشي بأن المخزون اللغوي للشاعر ، واطلاعه على القديم قوي وزاخر .

ولايعني هذا أن بقية شعراء هذه المدرسة – من أمثال شوقي ومحرم والرصافي – لم توجد عندهم الفاظ وتراكيب قديمة بل هي موجودة ولاادل من كثرة المعارضات وتضمين كثير من الفاظ ومعاني السابقين كما سأعرضه في موضعه إن شاء الله .

فهذا "احمد شوقي" يقول في رثاء "أدرنة" :

وخبت مساجدُ كنَّ نورا جامعا — تَمْشي إليه الاسدُ والآرام
وعَفَت قبورُ الفاتحين وفُضَّ عن — حُفَرِ الخلائقِ جَنْدلُ ورجام
نُبِشَتْ على قعساءِ عزّتها كما — نُبِشتْ على استعلائها الاهرام (2)

---

(1) ديوانه ٢/١١١-١١٣ .
(2) ديوانه : الشوقيات ١/٢٣٨ .

"فالآرام" ، "جندل ورجام" ، "قعساء" كلها ألفاظ قليلة الاستعمال فى اللغة بالنسبة لعصر الشاعر .

وكقول "الرصافى" فى حرب البلقان أيضا :

لقد آن ياقومُ تركَ الونى وترك الشّقاق وتركَ السّدّد

فهبُوا إليه هبوب الصبا عسى أن يسحّ ويغدودقا (١)

فلفظتا "السدد" ، و"يغدودقا" قليلة الشيوع عند أهل عصره .

ويقول "أحمد محرم" فى إحدى قصائده فى حرب طرابلس :

رويدًا (بنى روما) فللحرب فتيةٌ
تهيجُ الظُّبى أطرابُهم واللهاذمُ

بنوها الأُلى لايرْهَبُون بها الرّدى
إذا اهْتَزَمَت فى حافتيها الزّمازمُ

إذا أقدموا لم يُثنهم عن مغارِهم
غداةَ الوغى أهوالُها والمآزمُ (٢)

فمتانة التراكيب وقوة الأسر فيها لاتخفى على القارىء .

وعموما وإن اختلف شعراء النهضة فى نسبة ترسم خطى الشعر القديم فإن اللغة تنحو منحى الجزالة فى التراكيب والفخامة فى الألفاظ والاهتمام بالفصاحة فى آثار الحرب .

بعض الألفاظ المحدثة :

ولكن لايعنى ترسمهم خطى القدامى فى الألفاظ والتراكيب أنهم لم يسايروا العصر ، كلا فلقد ساعدوا فى إشاعة عدد وافر من الألفاظ العصرية عن طريق التعريب أو التوليد أو الاشتقاق ، مما كان له تأثير مباشر على اللغة عموما ، وعلى اللغة الشعرية خصوصا . فألفاظ مثل الدستور ، النواب ،

---

(١) ديوانه ٢/٤٧٩ .
(٢) ديوانه : السياسيات ١/١٩٨ .

المدافع بمعناها المتعارف عليه ولجت إلى لغة الشعراء واستخدمت كثيرا فى معجمهم الشعرى .

كقول "الكاشف" فى ثورة "كريد" الثانية :

إن البغاةَ على الخلافة أصبحوا

فى ذمة "الدستور" غيرُ بغاة (١)

وكقول "أمين ناصر الدين" فى تلك الثورة :

وفيها سريرُ الملك حُفّ بهيبةٍ

ومجلسُ "نوابِ" البلادِ الموقَّرُ

أعاد لها "الدستورُ" سابقَ مجدِها

وشاد لها الأحرارُ ماليس يُدثَرُ

وتُزْجى الجوارى المنشآتُ مقلَّةً

"مدافعَ" منهن الردى يتفجرُ (٢)

ويقول "ابن زكرى" واصفا قوة المدافع وكثافة نيرانها فى حرب اليونان ١٣١٤هـ :

مُلئت جبالُ ملونةٍ	بمدافعٍ ومُدافعين
فإليكم قُللاً مقدَّ	رةٍ لكمْ ومقدرين
لاتقبلُ التحريفَ عن	جُثمِ البغاةِ الماردين
وترى سحابَ دخانها	فى الجوِّ يغشى الناظرين (٣)

ويقول "محمد عبد المطلب" فى حرب البلقان :

مدافعُها عمْىُ المرامى إذا رَمَتْ

رَمَتْ لم تَمِزْ ذاشِكَّةٍ من مسالمِ (٤)

ويقول "الرُّصافى" فى حرب طرابلس :

---

(١) ديوانه ٢/٥٤ .
(٢) العدل أساس الملك عدد ٧ سنة ١٣٢٧هـ .
(٣) ديوانه ص ١٨٥ .
(٤) ديوانه ص ٢٧١ .

فما انْتبهتْ إلا لمرخةٍ مِدْفعٍ
ومانَهَضَتْ إلا إلى موقفٍ مُعْتبِ

فامسَتْ وأفواهُ المدافعِ دونها
تمجُّ عليها النارَ كالوابلِ السَّكبِ (١)

و"البوارج" من الألفاظ التى ساعد شعر البعث على إشاعتها نحو قول "شوقى" فى حرب اليونان سنة ١٣١٤هـ :

تظلُّ مهولاتُ البوارجِ دونه حوائرَ مايدرِيْن ماذا يخرّب (٢)

ونحوه قول "خيرى الهنداوى" فى حرب البلقان :

لم يسمعا غيرَ المدافعِ مُحشُوةً
فتسارعا فإذا هناك زحام

واذا البوارجُ فى الخضمّ كأنّها ال
أعلام تُمْخِرُ والدّخان قتام (٣)

ونحوه قول "أحمد محرم" فى الحرب العالمية الأولى :

البحر يفتحُ للبوارجِ جوّفه فتغورُ من مثنى ومن وِحدان (٤)

ويقول فى قصيدة أخرى :

ترامى بهم أسطولُهم فانبرَتْ له
بروجٌ تصبّ الموتَ أحمرَ قانيا (٥)

ومن الألفاظ التى دونها شعراء الإحياء وأشاعوها :

القذائف ، الكرات ، الرصاص ، الموزر .

يقول "أحمد شوقى" فى حرب اليونان ١٣١٤هـ :

قذائفُ تَخشى مُهجةُ الشمس كلّما
علَتْ مصعِداتٍ أنّها لاتصوّب (٦)

---

(١) ديوانه ٤٧٩/٢ .
(٢) ديوانه : الشوقيات ٤٧/١ .
(٣) خير الهنداوى حياته وشعره ص ١٩١ .
(٤) ديوانه : السياسيات ٣٠٦/١ .
(٥) نفسه ص ٢٩٨ .
(٦) ديوانه : الشوقيات ٤٧/١ .

ونحوه قول "محمد حسين آل كاشف الغطاء" في حرب البلقان :

سل قذيفَ المكسيم كمْ من ضِرابٍ سيم خسفاً فيه على العُمْران (١)

ويقول "شوقي" في القصيدة السابقة :

تُسمَّرُ في رأسِ القلاع كراتُها
ويسكن أعجازَ الحصونِ المُذَنَّب (٢)

ويقول "خيري الهنداوي" في حرب "البلقان" :

بل فاجأتهُ من الفضاءِ رصاصةٌ
لا الخوفُ يدفعُها ولا الإقدام (٣)

ويسمي "محمد عبد المطلب" بعض أنواع البنادق "الموزر" مبينا قوتها وأثرها الحربي ، وذلك في حرب "طرابلس" :

وزرقٌ موزرياتٌ كرامٌ صوائبُ لايشطُنَّ ولايَنينا
طويلاتُ المتون بلا اعوجاجٍ عن العُوج القِسيّ بها غَنينا
إذا انبعث الزِّنادُ بها أصابَتْ ولم نسمعْ لمرماها رنينا
كأن رصاصَها حَدَقُ المنايا نصيبُ به ضمائرَ مَنْ لَقينا
على أفواهِهِا زرقٌ حِدادٌ بها نُفَرى الخواصرَ والمتونا (٤)

ولاشك أن ورود الأسلحة الحديثة وشدة فتكها عند شعراء الحرب في فترة هذا البحث ، أضافت إلى المعجم اللغوي حصيلة مهمة من أسماء تلك المعدات ، وساعدوا على نشرها في الأوساط الثقافية ، مما يعتبر عاملا مساعدا في النهضة الشعرية .

ومن الألفاظ التي شاعت في هذا العصر واستخدمها بعض الشعراء مصطلح الشرق والغرب ، إذ مر مصطلح الشرق خاصة

---

(١) شعراء الغري أو النجفيات ١٧٩/٨ .
(٢) ديوانه : الشوقيات ٤٩/١ .
(٣) خيري الهنداوي حياته وشعره ص ١٩١ .
(٤) ديوانه ص ٢٨٦-٢٨٧ .

بمراحل حتى أضحى آنئذ دالا على العالم الإسلامى وماجاوره من الدول الواقعة فى آسيا وخاصة "اليابان" ، ويهمنا أن بعض شعراء هذه الحروب استخدموه مفرقين بين الشرق المسلم ، والغرب المسيحى .

فيستخدم "محمد حسين آل كاشف الغطاء" مصطلحى الشرق والغرب بنفس تلك الدلالة فى حرب البلقان :

أو سل الشّرقَ مالقيتُ من الـ
غربِ وعدّد غرايبَ العدوان (١)

وكذا قول "الكاظمى" فى تلك الحرب :

بنى الشرقِ هبّوا إنّ فى الغرب هبةً
تعدَّ عليكم كلَّ بارٍ وحاطم (٢)

ويقول "سالم بن حميدة " فى حرب طرابلس :

أفيقوا بنى الإسلام إنّ فى الغرب ضجةً
تناوشكم أيدى العدى وتعود (٣)

ويبين "محمد عبد المطلب" فى الحرب العالمية الأولى كيف أن الشرق بلاد المسلمين أضحى نهبا للاستعمار :

إذا الشرقُ فيما بينهم نهبُ غالبٍ
متى يعتقدْ رهنا على الشّرق يُغلقِ (٤)

وكذا نجد "ابن محمود" فى تلك الحرب لايقصد به غير بلاد المسلمين :

لَهفى على الشّرقِ والويلاتُ تقذفُهُ
فى كلّ ساحقةٍ من يمنها الطامى

---

(١) شعراء الغرى أو النجفيات ١٧٩/٨ .
(٢) ديوانه ، المجموعة الثانية ص ١٢٠ .
(٣) جريدة الاقبال عدد ٤٣١-١٩١٢ .
(٤) ديوانه ص ١٧١ .

عدا على الشّرقِ أقوامٌ جبابرةٌ
من كلِّ عاتٍ شديدِ البطشِ ظلّام

فبدّلَ الشّرقُ واندكّت معالمُهُ
وأظلمَ الصبحُ فيه أيَّ إظلام (١)

إلى غير ذلك من الألفاظ والأمثلة التى شاعت عند شعراء هذه الحروب ، وكانت الحرب بأحداثها ومغالباتها سببا فى إشاعتها .

(١) ديوانه ص ١٣١ .

الصــورة :

هــى عنصـر مهـم مــن عنـاصر العمل الادبى ، وبعد الصدام الــذى حدث فى مستهل العصر بين الحضارتين الإسلامية والأوربية وجـدت الحركـة الثقافيـة بعامـة والادبية بخاصة ألا مناص من الرجـوع إلــى مصـادر الثقافـة العربية وإلى الشعر فى عصور ازدهاره ليجددوا عقولهم وانفسهم ، وليبعثوا مارم من الشعر التقليدى الذى كان يذيع بينهم .

التأثر بالقرآن :

فـالقرآن الكـريم كان ومايزال مصدرا ثرا للمتأدبين والشـعراء بشكل خاص ، وهو جزء من البنية الثقافية لشعراء هـذه الحقبة ، فوظف بعضهم آيات من القرآن الكريم فى شعرهم من ذلك مثلا قول "ابن زكرى" فى حرب اليونان ١٣١٤هـ/١٨٩٧م :

وجنـودُكم امسَتْ بِترُ ... ناوةٍ حصيـــداً خامديـــن
وجمــعُتــُــم الالافَ ... من ضربِ التّعصبِ والمئين
من كلِّ حدَّب ينّسلــو ... ن لنصرِكـــمُ متطوّعيـــن (١)

فــواضح أن "حصيدا خامدين" ، "من كل حدب ينسلون" صور قرآنيـة ضمنهـا الشـاعر فـى قصيدته الأولى من قوله تعالـى : {فمـا زالَـتْ تِلْـكَ دعْـواهُمْ حـتَّى جَعَلْنـاهم حَـصِيداً خَامِدِين} (٢) ، والثانيـة مـن قولـه سبحانه : {حتّى إذا فُتِحَتْ ياجُوجُ ومأجُوجُ وهُمْ من كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُون} (٣) .

ويشـبه "خـيرى الهنداوى" ـ فى حرب البلقان ـ البوارج فى البحر "بالأعلام" فى قوله :

وإذا البوارجُ فى الخضمِّ كأنّها ال ... أعلامُ تَمْخَرُ والدُّخَان قتام (٤)

---

(١) ديوانه ص ١٨٥ .
(٢) سورة الأنبياء : ١٥
(٣) سورة الأنبياء : ٩٦
(٤) خيرى الهنداوى حياته وشعره ص ١٩١ .

أخذه من قوله تعالى : {ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام} [1] ، وقوله : {وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام} [2].

ونجد "محمود صادق" في حرب اليونان ١٣٤١هـ/١٩٢١م يصور حالة الأمة — كما يعتقد — قبل مجيء "مصطفى كمال" بأنها كانت على شفير هار فكان أن أنقذها "مصطفى" من الانهيار ، التمس تلك الصورة من قوله تعالى : {أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم} [3] وذلك حين قال : [4]

بعث الإله بكم وكانت أمة الـ إسلام قبل على شفير هار

ونلقى "الرصافي" في تلك الحرب يجعل مقام "مصطفى كمال" في الأمة كمقام "عيسى" عليه السلام في إبرائه للمرضى ، وهذا على مافيه من مبالغة مقيتة — كما سيأتي — إلا أنه يعطينا مدى تأثره بالصور القرآنية وذلك في قوله :

وقمت على البلاد مقام عيسى على مرضاه من عمى وعرج
فعالجت الفتوق بحسن رتق ولاءمت الخروق بحسن نسج [5]

فهي مأخوذة من قوله تعالى : {وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله} [6].

ومن اللافت عند "أحمد شوقي" في تلك الحرب أيضا عندما عرض لبعض ماجرى في "سقاريا" أنه استخدم صورة قرآنية ، بل تكاد الألفاظ كلها أن تكون ألفاظا قرآنية في قوله :

ماكان ماء سقاريا سوى سقر طغت فأغرقت الإغريق في اللهب
لما انبرت نارهم تبغيهم حطبا كانت قيادتهم حمالة الحطب [7]

---

(١) سورة الشورى : ٣٢
(٢) سورة الرحمن : ٢٤
(٣) سورة التوبة : ١٠٩
(٤) ديوانه ص ١٢٤ .
(٥) ديوانه ٤٣٩/١ .
(٦) سورة آل عمران : ٤٩
(٧) ديوانه : الشوقيات ٦١/١ .

فالصورة في البيت الأخير مستأنسة بقوله تعالى :
{وامْرأتُه حَمَّالَةَ الحَطب}[1] .

ومن الصور المأخوذة من القرآن قول "محمد على اليعقوبي" في الحرب العالمية الأولى :

قدْ أقبلَتْ تطفو بها الأساطيلُ   فنازلَتْها ميدُنا البهاليل
تحسَبُها يوم سَطَتْ أبابيل   ترمي العدى حجارةً من سجيل[2]

حتى انجلى النصر لآل عثمان .

فواضح أنها مأخوذة من قوله تعالى : {وأرْسلَ عَليْهم طَيْراً أبابيلَ تَرْميهم بِحِجَارةٍ من سِجّيل}[3] .

التأثر بصور الشعر القديم :

لم يكن مخالفا لطبائع الأشياء أن يلتفت الشعراء في زمن البعث إلى الماضي ينهلون من معينه ، حتى إذا استقامت لهم اللغة ، عادوا فعاشوا بيئتهم وزمنهم ، وقد ظهر لي مجموعة من النماذج متأثرة بصور من الشعر القديم ، من ذلك قول "عبد الله باشا فكري" في الحرب الروسية العثمانية الأولى ١٢٦٩هـ/١٨٥٣م :

ولو سَلِموا من مُرْهفِ السَّيف أو خلوا
بأنفسِهم يوماً لأفناهمُ الرُّعْبُ[4]

فلقد أخذه مع قدر من البراعة من قول أبي تمام :

لم يغزُ قوْماً ولم يَنْهدْ إلى بلدٍ
إلا تقدّمَه جيشٌ من الرُّعبِ[5]

---

(١) سورة المسد : ٤
(٢) الشعر العراقي الحديث ص ٧٦ .
(٣) سورة الفيل : ٣،٤
(٤) الآثار الفكرية ص ١٣ .
(٥) ديوانه ٦٤/١ .

ويقول "البارودي" في الحرب الروسية الثانية ١٢٩٤هـ/ ١٨٨٧م :

يخورونَ حولي كالعُجولِ وبعضُهم
يهجِّنُ لحنَ القولِ حيثُ يُجيد

ادورُ بعيني لا أرى بينَهم فتىً
يرودُ معي في القولِ حيثُ أرود (١)

فالمعنى والصورة مأخوذان من قول "المتنبي" مع قدر من التوليد :

تجمّعَ فيه كلُّ لِسْنٍ وامةٍ ... فما تُفهِمُ الحُدّاثَ إلا التراجم (٢)

ونجد روح "المتنبي" تسرى في شعر "البارودي" وهو يفخر في مقارعته للأبطال حين قال :

صؤولٌ وللأبطالِ هَمْسٌ من الونى
ضروبٌ وقلبُ القِرْنِ في صَدرِه يَعدو (٣)

فهذه الصورة البطولية قريبة من قول المتنبي :

فما كنتُ إلا الليثَ أنهَضَه الطَّوى
وماكنتُ إلا السيفَ فارقَهُ الغِمْد (٤)

و "الكاظمي" في صورته التي يقول فيها - في حرب البلقان :

يُلاقي الرَّدى عن واضحِ الثَّغرِ باسمٌ
وثغرُ الرَّدى في كفِّه غيرُ باسم (٥)

متأثر بقول "المتنبي" :

تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمة ... ووجهُك وضّاحٌ وثغرُك باسم (٦)

---

(١) ديوانه ١/٨٥ .
(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي شرح العكبري ٣/٣٨٣ .
(٣) ديوانه ١/٥٤ .
(٤) ديوان أبي الطيب .
(٥) ديوانه - المجموعة الثانية ص ١١٧ .
(٦) ديوان أبي الطيب المتنبي .

على أن صورة العدو المهزوم - عند "المتنبى" - ابطال عدوه مجروحة مهزومة ، بينما جعل "الكاظمى" الموت فى يد ممدوحه .

وفى هذه القصيدة يقول أيضا :

كأنّ ندى السّورى وهو سجيةٌ
ندىً كلّ شؤبوبٍ من الغيثِ ساجم (١)

فقد التقط صورة الكرم وتشبيهه بالغيث الساجم من "الفرزدق" حين قال :

بكفّينِ بيضاوينِ فى راحتيهما
حيا كلّ شيءٍ بالغيوثِ السّواجم (٢)

ونجد صورة الفخر عند "عمرو بن كلثوم" ماثلة فى نونية "محمد عبد المطلب" حين قال : فى حرب طرابلس :

ليوثٌ من بنى الإسلام شوسٌ	بهم نسطو ونمنعُ من ولينا
فلا نرعى لجبارٍ حقوقاً	ولا نقضى لذى وترٍ ديونا (٣)

ويتأثر "الرصافى" فى احدى قصائده فى حرب اليونان ١٩٢١م بقول عمرو بن كلثوم ايضا :

ونشربُ إنْ وَرَدْنا الماءَ صفواً	ويشربُ غيرُنا كدَرًا وطينا (٤)

وذلك حين قال :

ونشربُ كأسَ المجدِ صِرْفا	ويشربُها سواكَ ذات مَزْج (٥)

فالمعنى واحد والألفاظ متقاربة برغم اختلاف القافية فى القصيدتين .

---

(١) السابق ص ١١٧ .
(٢) ديوانه ٣٠٨/٢ ، ط/دار صادر .
(٣) ديوانه ص ٢٨٦ .
(٤) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الانبارى ، تحقيق عبد السلام هارون ص ٤١٩ ، ط/دار المعارف .
(٥) ديوانه ٤٣٩/١ .

إلى غير ذلك من النماذج المتناثرة – والتي سأعرض لبعض منها في مبحث المعارضات بإذن الله – الدالة على نظر شعراء البعث إلى الشعراء السابقين .

صور متألقة :

إن النماذج التي سقتها عند الطبقة الأولى وفيها من الدلالة على ضعف الصور كما بينته ، يسوقني ذلك الى ذكر نماذج تضمنت صورا قوية لاتعوزها الجدة والابتكار عند الطبقة الثانية ، كالذي نجده عند "البارودي" وآخرين .

"فالبارودي" رأس مدرسة الإحياء تحفل قصائده الحربية بصور رائعة تدل حقا على مقدرة فنية ، نحو قوله – في الحرب الروسية الثانية ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م :

مدافعُنا نصبُ العِدى ومشاتُنا
قيامٌ تليها الصّافنات القوارح

ثلاثةُ أصنافٍ تقيهنَّ ساقةٌ
حيالُ العدى إنْ صاح بالشرِّ صائح

فلستَ ترى إلا كماةً بواسلاً
وجُرْداً تخوضُ الموت وهي ضوابح

تغيرُ على الأبطالِ والصّبحُ باسمٌ
وتأوي إلى الأدغالِ والليلُ جانح (١)

فهذه الصورة البصرية الحسية تقفنا على دور الجند في المعركة مع أسلحتهم وتنظيمهم ، وقت الإغارة والراحة .

و"شوقي" يصور لنا – في حرب اليونان – ١٣١٤هـ/١٨٩٧م كيف أن الحيرة تستحوذ على "اليونانيين" عندما يريدون ضرب التحصينات العثمانية ، لذا تطيش سهامهم ، أما العثمانيون

---

(١) ديوانه ١/١٦١-١٦٢ .

فرميهم صائب ودقيق ، وماذلك إلا لأن "عزرائيل" اتى فى صورة الجنود العثمانية يحصد كل من أدركه .

ولايخفى أن الكناية هنا أضفت على الصورة جمالا واشراقا .

تظلُّ مهولاتُ البوارجِ دونه
حوائرَ مايدرينَ ماذا تُخرِّب

إذا طاشَ بين الماءِ والصّخرِ سهمُها
أتاها حديدٌ مايطيش وأسرُبُ

يسدِّده "عزريلُ" فى زيِّ قاذفٍ
وأيدى المنايا والقضاءُ المدرِّب (١)

فنسبة الحيرة إلى البوارج تزيد من حسن الوصف .

ومن الصور اللافتة بلغتها وجمالها قول "البكرى" فى تلك الحرب أيضا :

وزجّوا جموعاً كالدّبى فى عديدِها
فألقاهمُ فى جوفِ دَهياءَ صَيلمَ

أسالَ فجاجَ الأرضِ بالجُندِ يلتوى
كأغدِرَةِ الوِديَان فى كلِّ مَخرَمِ

يموجُ بها الماذىُّ فى رونقِ الضُّحى
كما ماجَ لجٌّ بين أرجاءِ عَيلَم

فمن كلِّ مِغوارٍ ترى الرّومَ دونَهُ
طرائدَ وحشٍ بين أظفارِ قشعمِ (٢)

فقد أدى التشبيه هنا دورا بارزا فى الوصف ، وأضحت لفظة "الدبى" وماتمثله في الذهن من الكثرة معلما فى تعاظم الصورة لذلك الجيش .

---

(١) ديوانه : الشوقيات ٤٧/١ .
(٢) صهاريج اللؤلؤ ص ٥٥ .

وصورة الجيش الذى ينسرب من كل فج كأنه غدران تتلوى فى مسالك الجبال وشعابها ، وتشبيه السلاح – وقد أعطاه لونا أخضر – وهو مرفوع دلالة الأهبة والاستعداد – بالأمواج – ليثبت عظمة وكثرة ذلك الجيش ، ثم تتوالى التشبيهات داخل القصيدة اتماما لصورة الجيش مما يدل على دور التشبيه فى خلق الصورة الفنية هنا إلى جانب جزالة التركيب .

ويسوق "أحمد محرم" مقطوعة فنية وهو يصور بسالة الجيش العثمانى وأثر مدافعه فى تلك الحرب :

إذا لَمَسَتْ حِصناً هَوَتْ شرفاتُه وإنْ لَمَحَتْ طَوْداً تداعَتْ مناكبُه

ثم يمضى ليصور حال مدينتين يونانيتين وهما تتبادلان الحزن والشكوى مما ألم بهما :

تُديرانِ نَجْوى جارتين اعتراهما

على الضَعفِ همٌّ يصدعُ الصَّخْرَ ناصِبُه (١)

فالهم الثقيل الذى أصابها يصدع الصخر ، وأصبحت الكلمات ذات دور فاعل فى الصورة ، فمن يتأمل "لمست" ، "هوت" ، "لمحت" ، "تداعت" ، يجد أثرها فى تضخيم قوة الجيش العثمانى ، ناهيك بالجرس الإيقاعى لتلك الأفعال مما زاد من قوة الصورة ، زد على ذلك التجريد فى "تديران نجوى" إذ جعل منهما فتاتين ابرازا لضعفهما .

"وابن محمود" فى حرب البلقان يصف موقف المسلمين من سقوط "أدرنة" :

حزنٌ أناخَ على الإسلامِ كَلْكلَه فناءَ بالعبءِ إعياءً ومُضطلَعا

وباتَ يهذى كمحمومٍ تعاوده حمّاهُ أو شِبْهَ مَنْ قَدْ مُسَّ أو صُرِعا (٢)

---

(١) ديوانه : السياسيات ٣٩/١ .
(٢) ديوانه ١١٤/٢ .

أناخ الحزن بكلكله على الشعب لما حاقت به الهزيمة ، فأمسى ليله يهذى من شدة الوجد والقهر هذيان المحموم ، أو كمن مسه طائف من جنون ، تبيانا لواقع الهزيمة على المسلمين بسقوط "أدرنة" .

وهذا الشعر وغيره مما يقطع بأن حركة البعث كانت أصيلة إذ لم يقتصر أمرها على الرواد بل امتدت بعض هذه الآثار إلى الشعراء المغمورين .

ومن صور "محمد عبد المطلب" التى تدل على حس شعرى مرفود بقوة أداء قوله فى حرب "البلقان" وهو يبين المعاناة التى واجهها العثمانيون :

أن طفلا أتى له الموت فى غير أوانه ، من جراء طعنة هوجاء لم ترحم صغره ، وإذا ماتحركت وشائج الأمومة من قبل أمه لم تشعر إلا والسيف يفتك بها .

وطفلٍ يعانى سكرةَ الموت فى الظُّبا
ويكرعُ من كأسِ الرّدى غير هائم
إذا مابكَتْه أمُّهُ فَتَكَتْ بها
ذُبابةُ هندىٍّ من البيض صارم (١)

فبراعة الشاعر تأتى من أن الذى يعانى الموت طفل ، بسبب طعنة غير راحمة . وأتت الأفعال لتزيد من هول المنظر ، يعانى ، يترع ، والاستعارة فى "كأس الردى" وزيادة التوهم فى "غير هائم" زادت الصورة الشعرية مكانة .

ومع ذلك فلقد كان "شوقى" فى تلك الحرب أيضا أبهى بيانا فى التقاط نفس المنظر حين قال :

كم مُرضعٍ فى حِجْرِ نعمتهِ غدا ولهُ على حدِّ السيوفِ فِطَام

---

(١) ديوانه ص ٢٧٢ .

فالطفل رضيع لاحول له ولاطول لايميز من حوله حان أوان فطامه فكان السيف له فطاما ، ياله من منظر تقشعر منه الأبدان .

لقد أدت الألفاظ دورا مهما في الصورة الشعرية "كم مرضع" للتكثير ، "في حجر نعمته" ، "حد السيوف فطام" .

وقوله في البيت الثاني :

وصبيّةٍ هتكتْ خميلةُ طهرِها وتناثرتْ عن نورِه الأكمام (١)

كان شوقي مجيدا حقا فهي "صبية" أصيبت في أعز ماتملك "عرضها" ، وصوره "بالخميلة" وكنى عن الافتضاض بقوله "تناثرت عن نوره الأكمام" مما زاد من جمال الصورة وتفردها .

ونلقى "خيري الهنداوي" في هذه الحرب نفسها يمدنا بقصيدة تحوي صورا ماتعة وكلها صور حسية من طبيعتها أن يبقى أثرها في الذهن .

وبكَتْ فبدّلت الدموعُ بخدِّها
درراً لها الحسنُ البديعُ نظامُ
ظلّت تودعُــهُ وتُلثمُ ثغــرَه
والموتُ نحوهمــا لــهُ إرزام
فمضى نجيبٌ غيــرَ موجسٍ خيفةٍ
في كفِّه البأسُ الشديدُ حُسام
متلفتاً ليصيبَ آخــرَ نظــرةٍ
منها فلم تسمحْ لـه الأقســام
بل فاجأته من الفضاءِ رصاصةٌ
لا الخوفُ يدفعها ولا الإقــدام

---

(١) ديوانه : الشوقيات ٢٣٥/١ .

فهوى يجودُ بنفسِهِ متعفّـــرا
يعلوه من مرِّ الرّياح رَغَـــام (١)

فـالدموع درر منتظمـة ، وهـى تقبلـه بلهفـة ووداع لأن المـوت من حولهما له "إرزام" ومع ذلك فلقد مضى "نجيب" دون وجـل ، ويرسم الشـاعر لحظة الوداع مما يزيد الصورة توهجا "متلفتـا" ، ولكـن "فاجأته" رصاصة طائشة ، "لا الخوف يدفعها ولا الإقـدام" ، ويصور لحظة إصابته وكيفية نهايته "فهوى يجود بنفسه متعفرا" .

ويوافينا "أحمد شوقى" فى حرب طرابلس بصورة حافزة على البـذل والعطـاء ، خاصـة عندمـا أعطانا صورة مجسدة للبائع والمشـترى ، وإسناد ذلك للملائكة من جهة ، وطالب الثواب من جهة أخرى .

كثُرتْ عليك أكفُّهم فى صَوْبهـا
فكأنّهـا قطعُ الغَمَـام الممطـرُ
لو يعلمون السُّوقَ ماحسناتُها
بيـعَ الحصى فى السّوق بَيعُ الجوهر
جبريلُ يعرِضُ والملائكُ باعـةٌ
أيـنَ المساومُ فى الثّوابِ المُشترى (٢)

ويصـف "أحمد محـرم" فـى تلـك الحـرب جهود المتبرعين بمجموعـة صـور متراكبة "كديمة من فضة وغمامة من عسجد" وفى هـذه الصورة نلحظ أن الشاعر مازال مرتبطا بالصورة القديمة حـين كـان الأقدمون يشبهون الجود بالمطر ، ولكن الشاعر جعل مـن مـاء المطـر فضـة لتشـابههما فـى اللـون وهـو مايقدمه

(١) خيرى الهنداوى حياته وشعره ص ١٩١ .
(٢) ديوانه : الشوقيات ١/١٥٠ .

المحسنون لضحايا الحرب .

ويصف تزاحمهم على العطاء بانهم "مثل العِطاش الورّد" ويزيد ذلك إيضاحا بقوله "يتنازعون مدى الفخار" اذ أن الفعل "يتنازعون" فيه دلالة على زيادة وقوة الرغبة فى العطاء .

لِلّـهِ دَرُّ المُنْعمينَ بمالِهم
في اللّهِ لانَزْراً ولا بُمصَرَّد
ظَلّتْ أكفُهم تَسُحُ قَديمةً
من فضّةٍ وغمامةٌ من عَسْجَد
صاح «المؤيّدُ» أدركوا جَرْحَى الوَغَى
فإذا بهم مِثْلُ العِطاشِ الوُرّد
يتنازعون مدى الفخار وغاية
من يحوها يعظم بها ويسود (١)

ويأتينا فى قصيدة أخرى بصور عديدة ينبىء فيها عن عاطفته وحزنه لما أصاب "طرابلس" من جرائر «الطليان» ، ويجعل المصاب مصاب الإسلام عامة ، ويتخذ من الهلال شعار العثمانيين دلالة على ذلك ، إذ أصابه الهمّ ، وكذا الأماكن المقدسة بمكة والمدينة ، ويجعل منها أشياء تحس بهول ماجرى ، واختياره للألفاظ ذات الحركة "مضطرب" ، "منفجر" ، "يخفق" ، "يرقب" ... الخ جعل الصورة حية مؤثرة .

كيف القرارُ ونارُ الحربِ تستعرُ
والهولُ مُضطرمٌ البركانِ مُنْفجرُ
ويحَ العيونِ أيغشاها النّعاسُ وقد
شفَّ الهلالُ عليها الحزنُ والسّهرُ

---

(١) ديوانه : السياسات ١٨٧/١ .

يَبيتُ يَخْفقُ من خوفٍ ومن حَذَرٍ
حرّانَ يرقبُ مايأتي به القَدَرُ
رِيعَ الحطيمُ فأمسى وهو مُنتفِضٌ
وأقلقَتْ يثربَ الأحزانُ والذِكَرُ
ايطربُ البيتُ أم تَبْكي جوانبُه
حُزناً ويُعولُ فيه الرّكنُ والحجرُ (١)

وفى أبيات "محمد عبد المطلب" صور لمجموعة من المعدات القتالية فى حرب طرابلس ايضا إذ يفرد كل عدة بمجموعة من الأوصاف ، يخرج القارىء منها بقدرة الشاعر على جمعها مع تفرد كل عدة عن الأخرى ، فالخيل وجولانها وميلانها على العدو وقدرتها على الإحساس الدقيق ، حتى لتخال أن النأمة فى صدورنا دبيب عدو مغير فتجيش وتكسر الشكائم من شدة البأس .

والسمر وخوف أبطال العدو المدرعين من بأسها ، وإذا ما التقت الرماح خلتها شجرا ، وكونت لأمة لنا ، فكأننا آساد فى غيلها .

وهكذا يمضى فى إجلاء عدد من المعدات ، ويظهر مواكبته للعصر بذكر "البنادق الموزرية" واصفا طولها وقدرة رصاصها - كما مر بنا - مما يؤكد مقدرته الشعرية .

وخيلٌ كلّما جالَتْ أمالَتْ ... بجندِ البغى معقلَه الحصينا
يخلْن دبيبَ أنفسِنا مغيرا ... فيكسّرْنَ الشكيم وينبرينا
مَبرْناها على الغارات حيناً ... ورُضْناها على النّجدات حينا
وسُمرٌ كلّما خطرَتْ أطارَتْ ... مخافتُها قلوبَ الدّارعينا
نواهلُ كلّما اشتجرَتْ علينا ... وقمْنا تحتها مُسْتلْئمينا
رأيت الغِيلَ مشتبكَ النّواحي ... على الآساد تسكنه عرينا

---
(١) السابق ١٧٩/١ .

وبيضٌ قد خلقْن مذرّبات | لوامعُ ماشحذْن ولاجلينا
بواتكُ مانصوّبهنّ الا | تقطُّ الهامَ أو تفرى الوتينا
إذا نحن انتضيناها أضاءَتْ | من النّقع الحنادسِ والدُّجونا
يشطنّ إذا غمدْناهنَّ غيظاً | فياكلْن الحمائل والجفونا
وزرقٌ موزرياتٌ كرام | صَوائِب لايشطن ولاينينا (١)

ويأتى "أحمد أبى النجاة" فى حرب اليونان ١٣١٤هـ بمجموعة من الصور المميزة بتركيبها البيانى برغم كونه من الشعراء المغمورين ، مما يؤكد ماقرره الباحث ، من أن حركة الشعر إبانئذ لم تقتصر على الشعراء المشاهير .

وَسَلَخَتْ فجرَ الشّرقِ من غَسَقِ المطا
مع وانْتبذْتَ سياسة التضليل
ساقوا جيوشَهمُ إليك تبجُّحاً
سوْقَ النّعاج إلى أُسُودِ الغيل
فتركتهم صَرْعى تسيلُ نفوسُهم
من كلّ منهوك القوى مخذول
وملأتَ من أشلائِهم حُفَرَ الرّدى
من كلِّ مجروحٍ وكلِّ قتيل
وسقيت روضَ المجدِ بعد ذبوله
بدمِ الغُزَاةِ فجادكم بجزيل
أرويْت من تلك الدّماءِ أسنّةً
ظماى ولاتُروى بغير جليل (٢)

فجلى أن الشاعر قد أسند الأفعال إلى غير ماهو لها "سلخت فجر الشرق" ، "تسيل نفوسهم" ، "ملأت من أشلائهم حفر

---

(١) ديوانه ص ٢٨٦-٢٨٧ .
(٢) ديوانه ص ٧٠ .

الــردى" ، "سـقيت روض المجـد" كـل ذلـك مما ساعد على جمال الصورة ، لما تضمنه من أخيلة خصبة مثيرة .

"وشـوقى" فى بائيته الشهيرة فى "مصطفى كمال" يصف بأس الجنود الاتراك ودورهم فى تلك الحرب :

الصابرين اذا حَلَّ البلاءُ بهم
كالليثِ عضَّ على نابيه فى النُّوَب

والجاعلين سيوفَ الهندِ ألسنَهم
والكاتبين بأطرافِ القنا السُّلُب

قُــوّادُ معــركةٍ ورُّادُ مهلكــةٍ
أوتــادُ مملكــةٍ آســادُ مُحتَــرب

وهم كالسيل العرم ، والرياح الهوج لم يتركوا مكانا إلا أتوا عليه :

زحفتَ زحفَ أتيِّ غيــرِ ذى شَفَــقٍ
عــلى الوهـادِ ولارفـقٍ عـلى الهُضُب

قذفتهم بالرِّياحِ الهوجِ مُسرَجَــةً
يَحمِلْنَ أُسْدَ الشَّرى فى البَيْضِ والَيلَب

هبَّت عليهم فذابوا عن معاقلِهم
والثلجُ عــن قُلَلِ الأجبالِ لم يُذُب

لمَّــا صَدَعَتَ جناحَيهم وقَلبَهــم
طاروا بأجنحــةٍ شتَّى من الــرَّعب (١)

فتشبيههم بالليوث تعض عـلى أنيابها فى النوب يوحى بمزيد الإصرار والعـزم ، والتنزه عن الخور والوهن ، وهذه المعـانى مـن الجملـة الفعليـة "عض على نابيه فى النوب" ، وهؤلاء الجنود فعالون لاقوالون ، فألسنتهم التى يتكلمون بها

---

(١) ديوانه : الشوقيات ١/٦١-٦٣ .

هـي سيوف الهند ، وأقلامهم التي يكتبون بها هي أطراف الرماح ...

وبعد أن أنزلوا بعدوهم ما أنزلوا ، وصدعوا قلب جيشه وجناحيه ، طار هذا الجيش بأجنحة من الرعب .

والمشاكلة هنا بين جناحي الرعب اللذين طارا بهما وبين جناحي الجيش نقلة رائعة يستريح إليها المتلقي .

ويوافينا "أحمد محرم" بصورة مأساوية عن الجرائم التي ارتكبها اليونانيون في تلك الحرب ، فهذه امرأة على صدرها طفل وسيم ، تلثمه بين الفينة والفينة ، أتى الموت على أهلها ، فلم يعد أحد يعطف عليها فتحولت حياتها إلى كدر ، ولاتريد إلا مايسد رمقها :

وناعمةِ الشّبيبةِ ذاتِ طفلٍ يُضيءُ وَسَامةً ويَرِفُّ حينا
تلوذُ بمهدِهِ وتضمُّ منه رياحينَ الرِّياضِ إذا نَدِينا
دهاها الخَطْبُ أحمر في نفوسٍ لبِسْنَ الموتَ أسودَ إذ دُهينا
فعاد الثّديُ في فمِهِ لهيبًا وعادَ المهدُ في يدها أتونا
تثورُ فلاتريدُ سوى طعامٍ ولايُغْنِي القِرَى في المُطعمينا (١)

فهي صورة إنسانية من مخلفات الحروب ومآسيها ، كم هاجت قرائح الشعراء ، وغمس الكتاب أقلامهم في مدادها ، صورة الفتاة الناعمة الندية ، ذات الحسن الوضيء الجذاب ، خلفها زوجها الذي استشهد في الميدان ، وترك في حضنها رضيعا فتح عينيه على صورة اليتم البشعة .

والشاعر في هذه الصورة يضفي عليها من مشاعره وخياله مايجعلها أوقع وأعمق تأثيرا ، فهي ناعمة الشبيبة ، تلوذ

---

(١) ديوانه : السياسيات ٢/٥٧١-٥٧٢ .

بمهد طفلها الذى يفوح كريحانة ندية ، مما نزل بها صارت إذا التقمته ثديها صار لهيبا ، وإذا اقتربت من مهده خيل إليها أنه أتون يتسعر .

إنها فى حاجة إلى من يعوضها ، فيبذل لها العون والحنان .

وفى قصيدة "السالم بن حميدة" لوحة شعرية عن الجيش العثمانى فى معارك "طرابلس" ، والتفافه حول الراية العثمانية ، وهم أشبه حينئذ بالملائكة الكرام فى دفاعهم واستبسالهم ، وجُلّ تلك الصور بصرية متحركة :

رميتُ بناظريَّ إلى ذراه ... أسيرُ إلى الحقيقة والسّلام
فألفيْنا السماءَ بها صفوفٌ ... تذودُ عن الهلال أو الزّمام
وقد حفّتْ طرابلسُ بطودٍ ... به زمرالملائكةِ الكرام
فتابعتُ الخُطى أبغى معودا ... إلى الملأ العلا وإلى المقام
وصلت إلى ذرى فلقيت تركا ... وعربا رابضين إلى الأمام
نظرتُ وجوهَهم فنظرتُ نارًا ... مسعّرةً بفرطِ الإحتدام (١)

ويصور "محمد فاضل حرب" بسالة الأتراك يقودهم "مصطفى كمال" ويشبهه بالليث الظامى ، وإلى هنا والصورة البيانية عادية ، إلا أنه يفجؤنا بالجمل الحماسية المتتالية ، "هزوا الحسام" ، "فهللّوا وتصايحوا" .

ثم إنهم يهجمون على العدو بعزيمة صادقة ، ثم يعيد تشبيههم بالأسود إلا أنه يصفهم بأنهم جائعون مما يجعل هجومهم أسرع وأعنف إذا مافتكوا بعدوهم .

على أن هذه الصور لاجديد فيها إلا أن العاطفة الإسلامية التى تترقرق فيها تعكس رؤية الشعراء لهذه الحرب ، وأنها

---

(١) الحركة الأدبية والفكرية فى تونس ص ٨٢ .

حرب دينية ، هدفها إضعاف المسلمين ، وفل غربهم ، مما جعلها تعد فى مصاف الشعر الجيد .

رِيعَ الهلالُ وريعَ كلُّ موحدٍ
غَضِبوا لأحمدَ غَضْبة الضِّرغام
عقدوا البنودَ لمصطفى وتقدّموا
وكمالُ قائدُهم كليثٍ ظامى
هزّوا الحسامَ فهلّلوا وتصايَحُوا
النارُ أولى بالفتى المقدام
هَجُمُوا على الأرْوام هجمةَ صادقٍ
ماضى العزيمةِ ثابتِ الأقدام
هجموا كأنّهم أسودٌ جُوّعَتْ
شهراً على سَرْحٍ من الأغنام
فتكوا بهمْ فَتْكاً ذريعا فانثنوْا
يعدون دون رَويّةٍ ونظام (١)

ويوافينا "الشبيبى" فى الحرب العالمية الأولى بصور عديدة لإحدى المعارك الحربية فى العراق ، فالجيش أقام ثلاثة أيام فى الخنادق متأهبا لملاقة العدو ، ولكنه كان خاليا من الزاد والماء نتيجة لتقصير الولاة ، وإن لم تكن هذه الصور بمستوى فنى إلا أن جدتها تأتى من صراحتها فى بيان حال القوات العثمانية فى العراق إبان تلك الحرب ، إلى جانب لغته الجزلة .

جيشٌ أقامَ ثلاثاً فى خنادقِها
خالى الحقائبِ من ماءٍ ومن زادِ

---

(١) شعراؤنا الضباط ص ١٣٨ .

ماءُ الفراتين موفورٌ وحَبُّهما
والجندُ ملتاحُ الحشا صادي

عشرون ألفَ عراقيٍّ ومثلُهم
حمرُ الحماليقِ من تركٍ وأكراد

مُجمَّرون تجافوا عن ديارهم
واستبدلوا الوحشَ من أهل وأولاد

مكابدون على حالَي جفاً ووجىً
في الرّحل كُلفة اغذاءٍ وإسئاد

يهاجمون وهمْ رحالةٌ كشفٌ
في البرّ جملةَ أسوار وأسداد

فلَّ العدوُ جناحيهم وقلبَهم
من قبلِ تجهيزُ أعوانٍ وأسداد (١)

ويخط "أحمد محرم" لوحة فنية محسة لهزيمة الحلفاء في الدردنيل والرعب الذي حل بهم من جراء الحصار العثماني عليهم ، اذ تعاونت القوات البحرية والبرية على ضربهم .

في الدّردنيلِ وفي الجزيرةِ بعدَه
رعْبُ المياهِ وروعةُ النّيران

ناران برّحَ بالكتائبِ منهما
حالان في الهَيْجاءِ مُختلفان

هذي تَفيضُ من البروجِ وهذه
تنسابُ بين أباطحٍ ورِعان

البحرُ يفَتحُ للبوارجِ جوفَه
فتَغورُ من مثنىً ومن وُحدان

---

(١) ديوانه ص ٣٠-٣١ .

والبَرُّ مُلتهبُ الجوانحِ مُضمَرٌ
حَنَقَ المغيظِ ولوعةَ الحرّان

شرِبُوا المنايا الحُمْرَ يسطعُ موجُها
بين المُروجِ الخُضرِ والغُدران

ترمي بها لُجَجٌ يظلُّ شُواظُها
متدفِّقاً كتدفُّقِ الطُّوفان (١)

وقدرة الشاعر التصويرية تتبدى فى التراكيب المجازية الجيدة "البحر يفتح للبوارج جوفه" ، "والبر ... مضمر حنق المغيظ" ، "شربوا المنايا الحمر" .

المحسنات البديعية :

على أن هذه الطبقة الرائدة التى جدت فى إقالة الشعر العربى من عثرته لمسنا عندهم أثارة من الضعف الذى لازالوا متأثرين به فى أحقاب سلفت من تاريخ الشعر العربى ، إذ أن هذه الطبقة استخدمت بعض المحسنات البديعية على اختلاف مستوياتهم ، ولاتعد عيبا فى حد ذاتها ، ولكن الإسراف فيها هو المعيب ، وحسبى أن أدلل على وجود هذه الظاهرة بالأمثلة التالية :

"فالبارودى" مثلا يقول فى حرب الروس الثانية :

فأنجادُها للكاسراتِ معاقلٌ   وأغوارُها للعاسلاتِ مسارح (٢)

فنجد كل لفظة فى الشطر الأول لها مايقابلها فى الشطر الثانى ، وتضخيم صورة المكان ومافعل العثمانيون بعدوهم قاد البارودى إلى هذه المقابلات .

---

(١) ديوانه : السياسيات ٣٠٦/١ .
(٢) ديوانه ١٦٠/١ .

أما "شوقى" فلاتكاد تخلو قصيدة من قصائده من المقابلة والطباق ، فهو يقول فى حرب اليونان ١٣١٤هـ/١٨٩٧م :

مَلَكْتَ سبيليهم ففى الشّرق مَضربٌ
لجيشِك ممدودٌ وفى الغرب مُضربُ

إذا حَلمت فالشرُّ وسنانُ حالمٌ
وإنْ غضبت فالشرُّ يقظانُ مُغْضَبُ

وتصبحُ تلقاهم وتُمسى تصدُّهم
وتظهرُ فى جدِّ القتال وتلعب

تلوحُ لهم فى كلِّ أُفْقٍ وتَعْتَلى
وتطلع فيهم من مكانٍ وتغرب (١)

فالتقابل والتطابق بين الألفاظ ، بين الشرق والغرب ، تصبح تلقاهم ، وتمسى تصدهم ، ... سواء كان عن طريق الأفعال أو الأسماء ، أعان على تجهيز صورة الجيش فى خيال المتلقى وايقاظه للصورة بتفاصيلها .

وكذا قوله فى حرب اليونان ١٣٤٠هـ/١٩٢١م وهو بصدد تصوير شجاعة مصطفى كمال كما خيل إليه آنئذ .

لم يدرِ قائدُهم لمّا أحطتَ به
هَبَطتَ من صُعُدٍ أم جئت من صبب (٢)

فلتفخيم دور المفاجأة وصورتها طابق بين "هبطت من صعد" ، و"جئت من صبب" .

ونحوه قول "عبد المحسن الكاظمى" فى حرب البلقان :

فإما إلى مداحةٍ تطربُ الورى
وإما إلى نواحةٍ فى المآتم (٣)

---

(١) ديوانه : الشوقيات ١/٤٤-٤٥ .
(٢) نفسه ص ٦٢ .
(٣) ديوانه ـ المجموعة الثانية ص ١١٠ .

فقد جرته إما التفصيلية إلى المقابلة بين الشطرين لتكمل الصورة ، وكذا قوله في تلك القصيدة :

ونبخلُ بالطّل اليسير وخصمُنا
يجودُ بصوْب العارض المتراكم (١)

فللحث على البذل والعطاء نصرة للمجاهدين ، طابق بين صورة بعض المسلمين المعرضين عن الجهاد بالمال ، وبين الكافرين الذين يجودون بأكثر مايملكون .

ويقول "الرصافي" مصورا جريمة الطليان في حرب طرابلس:

غَدَتْ ترْتمي فيها عشياً وبُكْرة
فلا يابساً أبْقتْ ولمْ يبقَ من رُطب (٢)

فقابل لتفخيم آثار الحرب بين "عشيا وبكرة" ، وبين "يابسا ورطب" .

ويفخر "محمد عبد المطلب" بأبطال الإسلام على مر التاريخ ليخلص الى بيان نسبة أهل عصره لهم بطولة وفداء ، وذلك في "حرب طرابلس" .

أولئك هم آباؤنا ولأنتم كآبائكم والفرعُ للأصل ينسب (٣)

فقابل بين "الفرع والأصل" لبيان تلك الحقيقة .

ويصور في الحرب العالمية الأولى قوة نيران العثمانيين وانتشارها :

طَغَتْ نارُنا فيهم فمالمغرّب من النّار منجاةٌ ولالمشرق (٤)

فقابل بين "مغرب ومشرق" لتفخيم صورة تلك النيران .

ويربط "أحمد محرم" في حرب "طرابلس" الأحداث التي ألمت وتلم بالمسلمين في بقاع الأرض بالبيت الحرام على أنه

---

(١) السابق ص ١١٨ .
(٢) ديوانه ٣/٤٧٩
(٣) ديوانه ص ٢٨ .
(٤) ديوانه ص ١٦٥ .

موئلهم ومرجعهم فى أحزانهم ومسراتهم ، وهذه الإيماءة الطيبة - وأمثالها - تنم على حقيقة عاطفته وولائه لدينه .

أيطربُ البيتُ أم تبكى جوانبُه
حُزنا ويُعْوِلُ فيه الرّكنُ والحجر (١)

فقابل بين "يطرب ، وتبكى" .

ومن المحسنات البديعية التى تشكل ظاهرة تسترعى الانتباه عند طبقة الرواد المبالغة التى قد تصل إلى درجة الغلو .

من ذلك قول "محمود صادق" فى مدحه "المصطفى كمال" إبان انخداع المسلمين به :

وإنّك حامى الدينِ والمجدِ والحمى
وحارسُ ذيّاك اللواءِ ورافعُ

وجامعُ شمل المُشرقيين وطالما
تفرّق دون الشّمْل من هو جامع (٢)

فجمعه لهذه الصفات إنما هو من باب المبالغة فى الإشادة به .

وكقول "أحمد محرم" فى الموضوع نفسه :

مسيحٌ من بنى عثمان سمحٌ يرينا الحق أسطع واليقينا
متى يلمسْ مكان السُّوء منهم يُمِتْه وينزعِ الدّاء الدّفينا (٣)

فمقارنته بالمسيح عليه السلام غلو لايقبل مهما كانت نية صاحبه ، إذ ينبغى أن ينزّه الأنبياء عن الموازنة .

وكقوله واصفا المحاربين الأتراك فى تلك المطولة :

خُلِقتُم للجيادِ وأرضعتْكم ثُدِىُّ الأمهاتِ مُدرّبينا (٤)

---

(١) ديوانه : السياسيات ١٧٩/١ .
(٢) ديوانه ص ١٥٤ .
(٣) ديوانه : السياسيات ٥٧٣/٢ .
(٤) نفسه ٢/ص ٥٨١ .

فلاشك ان هذا من باب التهويل والإغراق فى المدح .

واشد مما سبق تشبيه "الرصافى" "مصطفى كمال" فى خطبه بالنبى صلى الله عليه وسلم حين قال :

وتخطبُ فى الجموعِ بيوم حفلٍ كما خطب النبىّ بيوم حج (١)

وهى مبالغة مسرفة إذ لم يبلغ الانبياء عليهم السلام شأو النبى صلى الله عليه وسلم فكيف "بمصطفى كمال" الذى خدع به الشعراء فى غمرة الظلام والفراغ السياسى الذى حل بهم من الجيوش النصرانية المتحالفة .

ومن هذا الباب مقارنة "شوقى" فى تلك الحرب "بخالد بن الوليد" حين قال :

اللهُ أكبر كم فى الفتح من عجب

ياخالدَ الترك جدد خالد العرب (٢)

ويصف "احمد محرم" الجنود العثمانية ودورها فى معركة "الدردنيل" ويبالغ فى ذلك إلى درجة الإسراف برغم الهزيمة التى منى بها الحلفاء فى ذلك الهجوم .

لمّا تردّد فى "فروقَ" زئيرُه رَجَفَتْ جبالُ الصّين واليابان (٣)

إذ أضحى قول "المتنبى" معقولا أمام هذا :

ورد إذا ورد البحيرةَ شاربا ورد الفرات زئيرُه والنيلا (٤)

ونحو ذلك من الامثلة الظاهرة عند هذه الطبقة .

---

(١) ديوانه ٤٣٨/١ .
(٢) ديوانه : الشوقيات ٥٩/١ .
(٣) ديوانه : السياسيات ٣٠٦/١ .
(٤) ديوانه : شرح العكبرى ٢٣٨/٣ .

الفصل الثانى

ظواهر مشتركة

* المنزع التاريخى .
* النزعة القصصية .
* الأساليب الإنشائية .
* المعارضات .

المنزع التاريخي :

إن كان يحمل بعض النقاد المحدثين على الشعر الوثائقي ويعتبرونه من قبيل النظم التعليمي ، فإن منه مايحمل إشارات تاريخية لاتغض من قيمته ولاتذهب بجماله ، إذ هو تسجيل للحرب بروح الشعر ، وقد يطغى فيه جانب الخيال على الحقيقة التي هي نشدان المؤرخ ، ولكنه يبقى شذرات هنا وهناك لايمكن أن تطمس .

تسجيل أسماء الوقائع والأماكن التي دارت رحى الحرب فيها ، كذا أسماء القادة والمعارك والملوك والسلاطين مما قد يساعد المؤرخ على تلمس بعض القضايا التي قد يغفلها مسجلو الأحداث التاريخية ، وقد يساعد الشعر على فك بعض الرموز التاريخية وحلها ، وهذا في حد ذاته يعتبر جانبا مهما مما يؤكد دور الشعر في هذا الجانب التاريخي .

فتسجيل أماكن الصراع يعتبر معلما تاريخيا بل وجغرافيا :

فلقد حرص بعض شعراء هذه الحقبة على تسجيل بعض أماكن الصراع وإن وجدوا بعض العنت في إخضاعها للوزن العربي لأن بعضها يخالف أقيسة الكلمة العربية :

"فشوقي" ذكر أماكن كثيرة في قصيدته في حرب اليونان ١٣٥٤هـ/١٨٩٧م نحو "ملونا" و"فرسال" و"طرناو" و"دموقو" :

جبالَ "مَلَوْنا" لاتخوري وتجْزعي
إذا مالَ راسٌ أو تَضعْضعَ منكبُ

و"طِرْناو" إذ طارَ الذّهول بجيشِها
وبالشّعب فوضى في المذاهب يذهب

و"فِرْسالٌ" إن باتوا وبتْنا أعاديا

على السّهل لدًّا يرقبون ونرقب

....

وحمن تَسَامَى من "دُمُوقُو" كأنه

مُعَشِّشُ نسر أو بهذا يلقب (١)

بل إن هذه القصيدة تعتبر علامة بارزة في شعر الحرب في هذه الحقبة لأنها تناولت بعض المعارك بشكل تفصيلي لانجده أصلا في كتب التاريخ التي سنح لي الاطلاع عليها .

ويقول "أحمد نامي" في تلك الحرب أيضا :

ونخبةٌ من بريطانيا محنّكةٌ

كذا "سُمُولِنْسكي" مارْشالُ "سِيدان"

باللّهِ مِلْ ياأمير المؤمنين ودع

هم يستغيثون بإفرنْسٍ وطُليان (٢)

وكقول "محرم" في تلك الحرب :

"الَمّت "بلاريسا" فحلّ ربوعها

عذابٌ إذا ما استصرخت لجّ واصبه

وكقول "شوقي" في حرب البلقان مخاطبا "أدرنة" :

صبراً أدرنةَ كلّ ملكٍ زائلٌ   يوماً ويبقى المالكُ العلّام (٣)

ونحو قول "الرّصافي" في تلك المدينة :

أدرنةُ مهلا فإن الظّبى   سَترْعى لك العهدَ والموثقا (٤)

و"خيري الهنداوي" في تلك الحرب أورد اسم مدينة "سُلانيْك" :

---

(١) ديوانه : الشوقيات ١/٤٩-٥٥ .
(٢) ديوانه ص ٧ .
(٣) ديوانه : الشوقيات ١/٢٣٨ .
(٤)

ذهبت "سُلانيك" الغداة مضاعةً فتنكّست لذهابها الأعلام (١)

إلى غير ذلك من الأماكن التى يكثر ذكرها هنا عند شعر الحرب مما يعد ظاهرة وجب الإشارة إليها .

أما بالنسبة للجانب الآخر الا وهو ذكر أسماء القادة سواء من قواد المعارك المتصلة بهذا البحث أو ممن له دور فى التاريخ الإسلامى ، فاننا نلحظ استلهام بعض الشعراء لعدد وافر من الشخصيات ، فالمعجم الشعرى لحروب هذه الحقبة ملىء بأسماء وكنى وألقاب شتى .

فأسماء القادة "عثمان باشا" و"أدهم باشا" و"أنور باشا" ، ناهيك بأسماء السلاطين العثمانيين ، إلى غير ذلك وردت بكثرة من ذلك قول "حمزة الفقى" فى الحرب الروسية الثانية :

و"عثمانُ باشا" قطبُ كلّ كتيبةٍ
يناديكمو هل من مُنجد ومجير (٢)

وكقول "عبد الجليل براده" فى حرب اليونان ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م :

وأدهمُ بالدّهم الجيادِ(هاهمو
فحاموا كحمْر الوحش صادفها نِمْر (٣)

وكقول "محمد مهدى البصير" فى الحرب العالمية الأولى خارج الوطن العربى :

كم ظلمةٍ للظّلمِ أنت جلوُتها وبنورِ عدلِك أشُرقتْ يا أنور (٤)

وكقول "أحمد شوقى" فى حرب اليونان ١٣٤٠هـ/١٩٢١م فى

---

(١) خيرى الهنداوى حياته وشعره ص ١٩١ .
(٢) جريدة مصر عدد ٢٧ ، ١٨٧٧م .
(٣) حلية البشر ٨٢/٢ .
(٤) الشعر العراقى الحديث ص ٩٩ .

"عصمت باشا":

اتاهم منك فى "الوزان" داهية

جاءت به الحرب من حياتها الرقب

أصمّ يسمعُ سرّ الكائدين له

ولايضيق بجهر المحنق الصخب (١)

وأما استلهام أعلام التاريخ الإسلامي فى شعر الحرب ، ومايوحى به من حنين لإظهار مجد الإسلام ، وذكر عظمائه للتأسى والاقتداء ، فموجود بكثرة كعمر وعثمان وعلى وخالد وحمزة وغيرهم رضوان الله عليهم .

"فخالد بن الوليد" ورد ذكره مرات عديدة مقرونا بالبطولة والشجاعة .

يقول فيه وفى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما "احمد محرم" فى حرب اليونان ١٣١٤هـ/١٨٩٧م :

كتائب من اقوامنا خالديّة وما الحرب إلا "خالدٌ" وكتائبه

"لحمزةَ" حدٌّ منه غيرُ مكذب وحدٌّ لسيفِ اللّهِ شتّى مناقبه (٢)

وكذا قول "محمد عبد المطلب" فى حرب طرابلس :

كذلك سيفُ اللّه إما نَفَيْتَهُ

على الكفر لاينبو لحدّيه مضرب (٣)

وكقول "شوقى" فى حرب اليونان ١٣٤٠هـ/١٩٢١م :

اللهُ اكبرُكم فى الفتح من عجب

يا "خالدَ" الترك جدّدْ "خالدَ" العرب (٤)

ونحوه قول "أحمد محرم" فى الحرب العالمية الأولى خارج

---

(١) ديوانه : الشوقيات ٥٩/١ .
(٢) ديوانه : السياسيات ٣٨/١ .
(٣) ديوانه ص ٢٨ .
(٤) ديوانه : الشوقيات ٥٩/١ .

الوطن العربي يصف بسالة الجيوش العثمانية في "الدردنيل" :

جيشٌ يسيرُ به النبيُّ وحولَهُ
جندٌ من الملائك بَيْنَه العُمَران

يهتزُّ "عمرو" في اللّواء وخالدٌ
ويمور "حَيْدرةٌ" بكلِّ عِنَان (١)

---

(١) ديوانه : السياسيات ٣٠٣/١ .

النّزعة القصصية :

قصيدة الحرب قصة في ذاتها لما تحويه من الحديث عن المعارك وصفاتها وسير الأبطال والهزائم ، وآثار الحروب المدمرة .

ولايعنيني الوقوف عند هذه الجوانب بعد أن أشرت إليها في ثنايا البحث ، ولكن الذى يعنيني هو الإشارة إلى أن بعض الشعراء عقدوا قصائد مستقلة ، وآخرين في ثنايا بعض القصائد ، وكانت المرأة عنصرا مهما دار حولها هذا القصص ، وما أجروه على لسانها بشكل حوارى سواء على شكل رمزى هدفه التفجع على ما آلت اليه مدن الدولة من ضياع وخراب ، أو بقصد إظهار بطولة بعض النسوة ، وما أبدينه من شجاعة .

"فامين ناصر الدين" - كما مر بنا - ينظم قصيدة في جزيرة "كريت" جعل الجزء الأول منها على لسان فتاة كريتية تستنهض همم العثمانيين لاستنقاذها ، بينما أدار الجزء الثاني على لسان فتى يلبى نداء تلك الفتاة ، ويطمئنها إلى أن صرختها لن تذهب سدى .

فكان هذا الشكل الحوارى مع سرد بعض الأحداث ، إذ يبدأ المقطع الأول على هذا المنوال :

أيَمْلُكني اليونانُ والتركُ تَنْظُرُ
وللعُرْبِ أسيافٌ بها الغِيدُ تُخْفَرُ

....

بني العُرْبِ والأتراك أين حميةٌ
يروعُ العدا منها اللظى المتسعرُ

وأين السناءُ الجمُّ والهِمَمُ التي
غدتْ دُونَها الشهبُ الثواقبُ تَصغرُ

....

وأين نفـــوسٌ مـاكُـتِـنَّ إلـــى العــلا

طوامحُ فيهـــنَّ الإبـــاءُ المُوقَـــر

....

أأسى ولـي منكـــم حمـــاةٌ وللـــورى

عيونٌ إلـى شعب "ابـن عثمان" تَنْظر

احيـــن غـَـدَتْ تركيـــة وهـــى حـــرَّة

ينـالُ العـدى رقّـى فـلا أتحـــرَّر

السـتم بنـى قوم ٍ اراقـــوا دمـاءَهـــم

لأجلـى وشاري المجد بالدّم يُشكَـــر

....

فمن لمّ يَهُب فـي الشّعب يدعو لنصرتي

فذاك لعمرى الخـائـــنُ المُتنكّـــر

بينمـا يـأتى المقطـــع الثـانى على شكل جـواب لذلك التساؤل :

رويـــدكِ ياحسنــاءُ إنّـــا لأمـــةٌ

دماءُ بنيهـا الصّيد دونَك تهدر

....

سَنَحْميك ياحسناءُ مـــن كلّ معتـدٍ

ببـاسٍ له خـــدّ العزيزِ يصعـــر

سنحميك مادامت ظُبانـا مواضيـــاً

ومـاحَمَلَت منّـا الاشـــاوسَ ضُمَّـــرُ

فشيمتنا صَونُ العـــذارى وشأننا

صدامُ الأعادى كلّما ثارَ عِثْيـــر

أظنّ بنو اليونـــان أن سيوفَنَـــا

تثلّمْن ام أضنى عليها التأخرُ

ألمْ يذكروا بالأمسِ ماكان بيننا
على حينِ خُضْنَا الموتَ والموتُ يزفِرُ

....

إذا نحن لم نحْمِ الذِّمار فلا بَدَتْ
لنا في سَمَا العَلْيا كواكِبُ تُزهِـر (١)

بينا نجد "خيرى الهنداوى" فى حرب البلقان ينظم قصيدته التى سميت "فتاة سلانيك" ينظمها على شكل قصة ويجرى فيها حوارا جذابا بين فتى وفتاة ، كانا يعيشان فى أنعم حال وأهدأ بال ، فيدهمهما العدو فيعكر صفو عيشهما ، ويتبادلان أجمل كلمات الود والوفاء فى لحظة يبين فيها الفتى أن ليس بد من القتال حتى الشهادة ، وكان الأمر كذلك إذ تأتيه رصاصة وهو فى طريقه لمنازلة العدو فيخر صريعا على مرأى من فتاته ، فتحزن أشد الحزن عليه .

ويمضى الشاعر على هذا الشكل إلى أن يختم القصيدة بالهدف الذى من أجله نظم القصيدة ، إذ تصرخ الفتاة مَرعوبة فيلتف العدو عليها ويأخذها أسيرة مقيدة .

كم رُوِّعت فى ساحتيكِ لدى الوغى
خودٌ وكم لَفَظَ الحياةَ غـلامُ

عاشا زماناً فى بُلَهْنيةِ الصِّبا
غَرِيريْن لم يزعجْهما النَّمام

لم يسمعا غيرُ المدافع ضحـوة
فتسارعا فإذا هناكَ زِحَـام

....

(١) جريدة العدل أساس الملك عدد ٧ ، ١٣٢٧هـ .

رجعا وقدْ أَخَذَ العدوُّ عليهما
سبلَ الرّجوع وليس ثم تَمَام

....

أسماءُ إِنَّا أنَا ميتٌ فتأمَّلي
هل تذكرينِي والعظامُ رِمام

ويختم المقطع القصصي بقوله :

صرخت بأعلى موتها مرعوبة
فالتفَّ حول صُراخِها الأقوامُ

أخذوا الفتاةَ أسيرةً لأميرِهم
تدعو الكرامَ وماهناك كِرامُ

ياهذه كُفّي الدعاءَ فقومُنا
لو تعلمين عن الدّعاء نيام (١)

ونلحظ أن الشاعر هنا كان متشائما في خاتمته على عكس "امين ناصر الدين" .

ومن الجوانب القصصية في قصيدة الحرب هنا ماعرض له "احمد شوقي" في حرب اليونان ١٣١٤هـ/١٨٩٧م أبان فيها عن بطولة المرأة التركية في تلك الحرب ممثلة فيمن أسماها "زينب" .

وكذا الشجاعة التي أبداها الكهول الاتراك ممثلين في الحاج "عبد الأزل" ، فساعد هذا الجانب الفني على تماسك موضوع القصيدة برغم طولها .

إذ يبدأ على لسان تلك المرأة بوصف الجيش العثماني وبطولته ، والعلاقة التي تجمع المسلمين ببعضهم البعض . ثم يتحدث عن دور المرأة التركية ، متسائلا بادىء الأمر

---

(١) خيرى الهنداوى حياته وشعره .ص ١٩١-١٩٢ .

عندما رأى شبحا يعصف بالعدو ولم يتبينه ، ثم يتأكد له أنه – زينب – ويدير حوارا بينه وبينها تؤكد هي فيه أن من واجبها الدفاع عن ديارها . ويبدأ الحديث عنها بقوله :

تحذّرُني من قومِها الترك زينبُ
وتعجم في وصفِ الليوثِ وتعربُ

وتُكثِرُ ذكرَ الباسلين وتنثني
بعزٍّ على عزِّ الجمال وتُعجبُ

....

وما راعني إلا لواءٌ مخضّبٌ
هنالك يحميه بنانٌ مخضّبُ

فقلتُ من الحامي اللِيثُ غضنفرُ
من الترك ضارٍ أمْ غزالٌ مربّبُ

....

إذا ما الديارُ استصرخت بُدُرتْ لها
كرائمُ منّا بالقنا تتنقّبُ

أما الحاج "عبد الأزل"(١) الرجل الطاعن في السن يصحبه جواد متمرس في الحرب ، وكيف تعامل العدو معه لما أبداه من بسالة ، فيمطره بوابل من الرصاص .

ثم يدخل الشاعر شخصا ثالثا يحاور ذلك البطل العجوز يشير عليه بترك الفرس لينجو بنفسه ، ولكن للعلاقة التي تربط بينهما يؤكد إيثار الموت معه على الحياة بعده ، إلى غير ذلك من الجوانب التي زادت من حرارة الجانب القصصي في هذا المقطع مما عرفت له في بابه :

---

(١) لعل اختيار الشاعر لهذا الاسم فيه إيماء إلى الفروسية العتيدة والمجد التليد اللذين تمتع بهما الفارس التركي .

وأشمطَ سوّاسِ الفوارسِ أشيبُ
يسيرُ به في الشّعب أشمطُ أشيبُ

ويختمه بقوله :

أيحملني عمرا ويحمي شبيبتـــي
وأخذله في وهنٍ وأخيّـــب
إذا نحن متنا فادفنونا ببقعةٍ
يظلّ بذكرانا ثراها يطيّبُ (١)

أمـا "محمد فاضل حرب" فيدور حديث بينه وبين ابنته في قصيدة لـه فـي حرب اليونان ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م إذ تسأله عن سبب ذهوله وجريان دموعه :

فيجيبهـا أنـه يبكي على الأبطال الذين ذهبوا للذود عن حمى الإسلام ، ويصف بطولـة الأتراك بقيادة "مصطفى كمال" ، ويبشر ابنته بأن الله أعز دينه بظهور القائد التركي ـ حيث كـان ممن خدع ببطولاته الممنوعة ـ على أن هذا الدور للمرأة في القصيدة الحربية بالأسلوب القصصي عند هذا الشاعر لم يكن لـيرقى إلـى مستوى الشعراء السابقين سواء من جهة النفس الشعري ، أو الصورة الشعرية ، أو الحبكة القصصية وإنما أشرت إليـه هنـا لتـأكيد تنـامي هـذا الجـانب عند عدد من الشعراء مما يشكل ظاهرة استرعت انتباهي .

قالت وداد وقد رأتني باكياً
لمَ تبـكِ يا أبتي بدمعٍ هامي
أبتي فدتك النّفسُ هل بك علّةٌ
أم أنت تشكو حادث الأيام

---

(١) ديوانه : الشوقيات ١/٤٨-٥١ .

إن كانت الأولى دموتُ طبيبنا
فعساهُ يدفعُ عادِى الأسقام

أو كانت الأخرى فلاتحفلْ بها
فحوادثُ الأيام كالأحلام

فأجبتُها ابكى على قومٍ مشوْا
للموت كى يحموا حِمى الإسلام (١)

وليس الغرض بيان مواقف المرأة فى شعر الحرب بطولة ومأساة فذلك أيضا موجود بكثرة عند شعراء آخرين "كأحمد محرم" فى حرب اليونان ١٣٤٠هـ/١٩٢١م إذ تحدث عن دور "خالدة أديب" التركية ، وكذلك "عبد الرحمن البنا" فى الحرب العالمية الأولى داخل الوطن العربى ، إلى غير ذلك من الإشارات عند بعض الشعراء مما أشرت إلى بعضه فى ثنايا هذا البحث .

ولاريب أن النزوع إلى الشعر القصصى فى شعر الحرب الذى ظهر آنذاك مرده إلى وجود تيار قوى للقصص المترجم ، وجنوح كثير من الكتاب العرب إلى مجارات القصة الأوربية فى نسقها وتكوينها ، وطريقة الحوار فيها ، واعتبار المرأة عنصرا أساسيا فيها .

ولم يعد غريبا أن يجارى الشعراء الكتاب فى هذا اللون الأدبى ، لاسيما بعد أن كثر الاطلاع على الشعر الأوربى ومافيه من قصص شعرى ، وكان الشاعر "خليل مطران" واحدا ممن دعوا إلى هذا الاتجاه ، وتبنى ذلك فى مجلته "المجلة المصرية" إذ حملت دعوة صريحة لهذا القصص الشعرى بل نشرت نماذج متعاقبة من الأقاصيص الشعرية . (٢)

---

(١) شعراؤنا الضباط ص ١٣٩ .
(٢) انظر : الصحافة الأدبية بمصر إلى سنة ١٩١٤م ، رسالة ماجستير لم تنشر ، د. محمود عبد ربه فياض .

الأساليب الإنشائية :

إن خوض الشعراء بلسانهم معترك الحرب يجعلهم يستظهرون في قصائدهم بعض أساليب انشائية كالأمر والاستفهام والنداء ، والتي تؤدي دورا مهما في تحريض المتلقي واستثارته ، التي هي من صميم وظيفة قصيدة الحرب .

لذا فإن شعراء الحرب هنا استخدموا هذا الجانب الاسلوبي وشاع في قصائدهم .

فالأمر مثلا ورد كثيرا في شعر الحرب في هذه الحقبة ، فهذا "عبد العزيز الفشتالي" يدعو الملك "المنصور" أن يجرد الجيوش لاستعادة الاندلس :

أوطىءْ جيوشَك أرضَ اندلسٍ
فقد نَذَرَتْ تطيعك كي يوفّى نُذُرُها

واحصدْ رؤوسَ المشركين بها فقد
آن الحصادُ لها وأرْطَبَ بسرُها

واملك جميعَ الأرض فهي وراثةٌ
وإليكم بالفتح يسندُ أمرُها (١)

وكقول "أحمد فارس الشدياق" في الحرب الروسية الأولى ١٢٦٩هـ/١٨٥٣م :

فالقوْمِ بهما كِفاحا تظفروا
وعليهم صولوا وطولوا وانفِروا

واغزوهمُ بحرا وبرا واحشدوا
رَكْبا وفرساناً ونسرهم انسروا (٢)

---

(١) روضة الآس ص ١٣٣ .
(٢) الساق على الساق ص ٦٥٤ .

وظاهر أن الشاعرين محرضان ، ولكن لضعفهما الفنى أتت الأوامر على شكل ألفاظ مرصوصة بعيدة عن روح الشعر .

ولكن لو نظرنا مثلا إلى قول "شوقى" لرأينا كيف أدخل الحكمة فى الدلالة على دور القوة فى حرب اليونان ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م وإسداء النصح والإرشاد مع المحافظة على تلازم الألفاظ وتماسكها .

وما السيفُ الا آيةُ الملكِ فى الْوَرَى
ولا الأمرُ إلا للذى يتغلّب
فأدّب به القومُ الطّغاةَ فإنه
لنعم المربى للطّغاةِ المؤدّب
وداوِ به الدُّولات من كلِّ دائهَا
فنعمَ الحسامُ الطبُّ والمُتطبّب (١)

ويحذر "عبد المحسن الكاظمى" الأمة من كيد العدو ، وأن اتساع رقعة الدولة وبعدها عن العاصمة قد يؤدى إلى استغلال العدو لها وذلك فى حرب البلقان حين قال :

خذِ الحذرَ من ناى التّخوم ونبِّهوا
ظُبَاكم إلى كيد العدوِّ المتاخم
أريشوا سهامَ الموت واستهدفوا لها
قلوباً براها الحِقدُ غيرَ رَوَاحِم (٢)

ويقول "محمد عبد المطلب" معرضا بمباركة "البابا" للهجوم الإيطالى على طرابلس :

سلوهُ أفى الإنجيل للحربِ آيةٌ
إذا كان فى إنجيله ليس يكذب

---

(١) ديوانه : الشوقيات ٤٢/١ .
(٢) ديوانه ١١٧/٢ .

سلوا جنةَ البابا بماذا تزيَّنت

لتلقى الأولى فى لجَّةِ الحرب غيَّبوا (١)

ويعبر "محمود صادق" عن عاطفة صادقة بعودة مدينة "أزمير" إلى الاتراك فى حرب اليونان ١٣٤٠هـ فيدعوها قائلا :

أأزميرُ هبّى عانقى الشرقَ طالما

لأجلِك أضْنَتْه النّوى والوجائع

تعالَى تعالَى اسعدينا فإنما

غرامُك أقوى ما احتوتْه أضالع

تعالى فتاةُ الشّرقِ والدرةُ التى

يعالجُها عن مفرق الشرق نازع (٢)

ويقول "الرصافى" داعيا إلى مساعدة الخلافة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى :

ياقوم إن العدا قد هاجموا الوطنا

فانضُوا الصوارمَ واحموا الأهل والسكنا

واستنفروا لعدوّ الله كل فتى

ممن نأى فى أقاصى أرضِكمْ ودَنَا

واستقْتِلُوا فى سبيلِ الذّود عن وطنٍ

به تقيمون دينَ الله والسّنَنَا (٣)

وأما الاستفهام والنداء فهما يكثران أيضا فى قصائد الحرب هنا وجلى أنهما يؤديان دورا كبيرا فى استنهاض الهمم لمدافعة العدو ومقاومته .

فهذا "اليوسى" فى حروب الدولة فى المغرب يحرض أهل المغرب على الجهاد ، وينادى أهل الأندلس بالذات مستجيشا

---

(١) ديوانه ص ٣٠ .
(٢) ديوانه ص ١٥٨ .
(٣) ديوانه ٤٨٩/٢ .

عواطفهم لاسترداد بلادهم :

يا أمةَ المختار أحمدَ شمّروا
لقتالِ من هو بالنّبى مكذب

يا أهل أندلسِ ألمْ تُستخرجوا
من أرضكم ودياركم أوْ تنكبوا

هلّا انتصرتم مثلما انتصر العدى
هلّا تَحزَّبتم غداةَ تحزّبوا

هلّا جعلْتم فى نحورِهمُ القَنَا
ودعوتمْ ربّ العباد لِتَغْلِبوا

أينَ الشجاعةُ والحفاظُ وأنتم
عربٌ ولِلْعَربِ الحفَائظُ تنسب (١)

ويقول "حمزة الفقى" داعيا إلى القتال فى الحرب الروسية الثانية :

أنادى ليوثَ الشرقِ ياعصبةَ التُّقى
ويامن إليهم بالكمال أُشير

أفيكم فَتًى يَمْحُو عَنِ الدّين عَارَه
له اللّهُ يجزى والإله شكور

فيانخوةَ الإسلام هُزّى رجالَنا
وياغيرةً لايعتريك فتور (٢)

ويعقد "أمين ناصر الدين" ـ فى قصيدته التى قالها بمناسبة احتلال اليونان لجزيرة "كريت" ١٣٢٧هـ/١٩٠٨م ـ عددا من الاستفهامات محرضا على استرجاع تلك الجزيرة المهمة من يد اليونانيين ، فيبدأ القصيدة بأداة الاستفهام حين قال :

---
(١) الأدب المغربى ص ٤٦٢ .
(٢) جريدة مصر عدد ٢٧ ، ١٨٧٧م .

ايملكني اليونانُ والتركُ تنظرُ
وللعرب أسيافٌ بها الغيدُ تخفر

ثم يسترسل في إيراد عدد من الاستفهامات :

بنى العرب والاتراك أين حميـــةٌ
يروعُ العدا منها اللّظى المتسعّر

وأين السناءُ الجمُّ والهمم التي
غدت دونها الشّهب الثواقبُ تصغرُ

وأين نفوسٌ مافتئــن إلى العــلا
طوامحُ فيهــنّ الإبــاءُ الموقـــر

وأين مــواضٍ تنتضيهـــا أكفكــم
فيبدو عليهنّ الحِمــام المصــوّر (١)

ويدعــو "أحـمد محـرم" فـي حرب طرابلس إلى الوحدة لصد العـدو منكـرا الإذعـان للبغاة ، مـادام الـترك والعرب أمة واحـــدة .

أنُذْعِنُ للباغــي ونعطيـــهِ حكمَـهُ
وفي التّرك مِقدامٌ وفي العُرب حازمُ

وكيف نطيعُ العاذليـــن وترتقـــى
إلينـــا وشـــاياتُ العـدى والنّمائم

انصّدعُ ركنَ الدّهرِ من بعد مارسا
وقرّت أواسيهِ بنَــا والقّـــوائم (٢)

ويتســاءل "حــافظ ابــراهيم" سؤال المحزون المتذلل لله بمناسـبة سقوط "أيا صوفيا" بيد الحلفاء في الحرب العالمية الأولى :

(١) العدل أساس الملك عدد ٧ ، ١٣٢١هـ .
(٢) ديوانه : السياسيات ٢٠١/١ .

أيُرضيك أنْ تَغْشى سنابُك خيلِهم
حِماك وأن يُمْنى الحطيمُ وزَمْزم

وكيف يُــذِلُ المسلمون وبينهم
كتابُك يُتْلى كلَّ يومٍ ويُكْــرم (١)

ويستنهض "عبد الرحمن البنا" العراقيين لمقاتلة الإنجليز فى تلك الحرب حين قال :

بنى العراقيــن لاتنحط همّتُكــم
فرُبَّ بارقةٍ تُجْلَى بها الظُلَــم

بنى العراقين حلَّ الخصمُ ساحتَكم
وفى حماكم له مرْعى ومُغْتَنَـم

وكيف يهنا لكــم عيشٌ بأرضِكــم
والإنجليز لها يُرسى لهم قدم (٢)

وبنــاء على ماسبق من الأمثلة وغيرها اتضح دور الأساليب الإنشائية فى شعر الحرب وأن جلهـا تحريض على الاستبسال والمقاومة .

---

(١) ديوانه ٨٩/٢ .
(٢) الشعر العراقى الحديث ص ٨٢ .

المعارضات الشعرية :

من الظواهر اللافتة للنظر فى شعر حقبة الانبعاث كثرة المعارضات الشعرية ، وبشكل أظهر فى شعر الحرب ، ولايضير الشعراء ذلك ، فقد اتخذ شعراء البعث الشعر العربى القديم نبراسا يهتدون به .

والمعارضة تعنى :"أن يقول شاعر متأخر عن شاعر متقدم فى الزمان قصيدة مشابهة لقصيدته بالغرض والموضوع ، مع الالتزام بالوزن والقافية وحركة الروى وعندها تكون المعارضة تامة ... وقد يكون فى الموضوع اختلاف وانحراف يسير او كثير ... فهى معارضة ناقصة"(1) . وهى بهذا المفهوم كانت سائدة عند شعراء الحرب هنا .

وتفاوت الشعراء فيما بينهم فى معارضة الآخرين ، كذلك نجد بعض القصائد ذات حضور قوى عند مجموعة كثيرة من الشعراء ، نظرا لقوة القصيدة المعارضة فى الحدث والمعنى .

ولعل نظرة إلى قصيدة الحرب فى هذا الوقت ، تظهر بجلاء مدى تأثر شعرائها بقصائد الشعراء السابقين .

وقد بدا للباحث أن قصائد الشعراء العباسيين الكبار هى اكثر حضورا واثرا فى قصيدة الحرب التى بين ايدينا ، مما يدل على كثرة النظر فيها ، وكونها صادرة عن شعراء كبار لهم وزنهم فى شعر العربية جودة معنى واداء اسلوب .

ومن خلال هذا البحث وجدت أن بائية أبى تمام الشهيرة :

---

(1) تاريخ المعارضات فى الشعر العربى ص ١٣ ، ط/مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـ ، د. محمد محمود قاسم نوفل .

السَّيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ
في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللَّعبِ (١)

من أكثر القصائد دورانا في المعارضة الشعرية كأنها راية مركوزة أبدا على قمة عالية في التاريخ وفي الشعر (٢)، فهي لجودتها وفنيتها في الذروة من الشعر العربي ، ناهيك بأن مناسبة القصيدة في حد ذاته ، والانتصار الذي حمل للمسلمين في "عمورية" جعلتهم يتعلقون بها على مر العصور قادة وعامة ومتأدبين .

فيعارضها "أحمد شوقي" في قصيدته المعروفة في حرب اليونان ١٣٤٠هـ/١٩٢١م :

اللّهُ أكبرُ كمْ في الفتحِ من عجبِ
ياخالدَ التّرك جدّدْ خالدَ العربِ (٣)

فيستعير الوزن والروى ، بل وينظر إلى كثير من معانيها وصورها ، فقوله :

يومٌ كبدرٍ فخيلُ الحقِّ راقصةٌ
على الصّعيد وخيلُ اللّهِ في السُّحُبِ

غُرٌّ تظلّلُها غرّاءُ وارفةٌ
بدريّةُ العُود والدّيباجِ والعَذَبِ (٤)

فقد ولّده من قول أبي تمام :

إن كان بينَ صروفِ الدّهرِ من رَحِمٍ
موصولةٍ أو ذِمامٍ غيرِ مُنْقَضِبِ

فبيْنَ أيامكَ اللاّتي نُصِرْتَ بها
وبين أيّامِ بدْرٍ أقربُ النّسَبِ (٥)

---

(١) ديوان أبي تمام ٤٤/١ .
(٢) دراسات في النص الشعري العصر العباسي ص ١٩ .
(٣) ديوانه : الشوقيات ٥٩/١ .
(٤) نفسه ، ٦٢/١ .
(٥) ديوانه ٧٣/١

وكثير من قوافيه مأخوذة من قوافي "أبى تمام" نحو : الخطب الكتب الريب منقلب ... الخ ، وغلبة المحسنات على الشاعرين في التضمين متشابه .

كنَّ الرجاءَ وكنَّ اليأسَ ثم محا
نورُ اليقين ظلامُ الشكِ والرِّيب
قد أمَّنَ اللّهُ مجراها وأبدَلَها
بحسنِ عاقبةٍ من سوءِ مُنْقلَب
....
ماكان ماءُ "سقاريا" سوى سَقَرٍ
طَغَتْ فأغرقت الإغريقَ في اللهبِ (١)

والمهم أن "شوقيا" احتذى حذو "أبى تمام" في هذه القصيدة ، ولكنه كان واضح الشخصية فلم يذب في نص "أبى تمام" بل كانت شاعريته واضحة مما جعل هذه القصيدة ترقى إلى مصاف الشعر العربى الجميل .

ويعارضها "أحمد خير الدين" في قصيدته التى مطلعها :

يابارقا قد هَفَا يسعى على خَببٍ
انعشْتَ منا فؤاداً بات في تعب (٢)

وذلك في تلك الحرب أيضا بقيادة «مصطفى كمال» .

فالتشابه واضح بين القصيدتين مثلما هو عند "شوقى" وإن كان هذا الشاعر دون "شوقى" براعة

فتضمينه لبيت "أبى تمام" أنزله من عليائه الذى كان في قوله :

---

(١) ديوانه : الشوقيات ١/٦٠-٦١ .
(٢) الأدب التونسي في القرن الرابع عشر ٢/٩٣-٩٤ .

سلِ القواطعَ تنبى بالذى مَنَعَتْ

رفالسّيفُ أصدقُ أنباءً من الكتب

وقوله :

انتمُ أسودٌ ضوارٍ فى مخالبها

خلاصةُ القولِ بين الجدِّ واللّعب

فلقد أضحى الشطر الثانى متهافتا أمام قول "أبى تمام"

السيف أصدق انباء من الكتب

فى حده الحد بين الجدواللعب

واخذ كثيرا من قوافى "أبى تمام" : تعب ، لعب ، كرب ، طرب ، هرب ... الخ

ثم إن الشاعر هنا كرر قوافيه على الرغم من أخذها من "أبى تمام" مما يشى بضعف الشاعرية كقوله :

كانّما البرقُ فى الليلِ البهيمِ هَفَا

تبسم الأسـد التركى فى لعـب

أنتم اسـودُ ضـوارٍ فى مخالبهـا

خلاصةُ القول بين الجدّ واللعب

ونحو قوله :

وقال لى البرق هيا لاتكنّ كسلا

من واجبِ الحمدِ واشكرٌ مفرج الكُرُبِ

كرر القافية فى قوله :

والانجليزُ التى لاقت بواخرُهـم

بالدّردنيل ضروبُ الذّل والكُرَب

امـا الشـاعر الثـالث الـذى عـارض "أبـا تمام" فى هذه القصيدة فهو "محمد الشاذلى خزنة دار" فى قصيدته التى قيلت فى تلك الحرب أيضا :

ياسفرَ "سيفرَ" إنّ خطوك بالذّهب

السيفُ أصدقُ أنباء من الكتب (١)

إذ نجد في هذه القصيدة ، أثرا واضح المعالم لأبي تمام في قصيدته السالفة ، ففي مطلع القصيدة يضمن شطر بيت "أبي تمام" .

واستخدم المحسنات البديعية هنا وفي مواضع أخرى ، وان لم ترق إلى جودة "أبي تمام" وقدرته في توظيفها ، فإن من يتمعن في البيت السابق سيصدم من أول وهلة "بالجناس" ،وكذا قوله :

لاعاصمَ اليوم من "عصَمت" فينقذُها

ولات رافةَ من "رأفت" على الغلب

وكيف استحال البيت الى لعب بالالفاظ ، وهذا الشاعر وامثاله بهذا الصنيع في هذه الحرب المتاخرة يدل على أن الشعراء مايزالون يجرون وراء المحسنات البديعية المتكلفة .

وبناء على ذلك يظهر أثر قصيدة أبي تمام في قصائد "الحروب العثمانية" إذ تاثر المذكورون بها في المعاني والالفاظ والمحسنات البديعية ، فدل على أن الشعراء نظروا لهذه القصيدة في معارضتهم لها .

ومن قصائد "أبي تمام" التي عورضت في شعر الحرب في هذا الزمن قصيدته في رثاء "محمد بن حميد الطوسي الطائي" التي مطلعها :

كذا فليجلّ الخَطْبُ وليفدحْ الأمرُ

فليس لعينٍ لم يفضْ ماؤها عذر (٢)

(١) ديوانه ١٣٣/١ ومابعدها .
(٢) ديوانه ٧٩/٤ ومابعدها .

إذ عارضها "محمد بن سعيد العباسي" في قصيدته في حرب طرابلس :

مكانكمو إن الفخارَ هو الصّبر
إذا اشتكبت بيضُ الظُّبا والقنا السمر (١)

ويعارضها "عبد الجليل براده" في حرب اليونان ١٣١٤هـ/١٨٩٧م في قصيدته التي مطلعها :

كذا فليكنْ مايحرزُ المجدُ والفخرُ
كذا فليكنْ مايُجْمعُ الفتحُ والنصر (٢)

ويأخذ بعض قوافيها نحو : النصر ، أجر ، صبر ، ذكر ، قبر ... بل وبعض معانيها نحو قوله :

كذا فليكنْ سعيَ الملوكِ مقدساً
يرافقه نسكُ ويتبعه أجـرُ

فالشطر الثاني قريبا من قول أبي تمام :

غدا غدوةً والحمدُ نسجُ ردائه
فلم ينصرفْ إلا وأكفانه الأجر (٣)

ونسبة الفرح إلى القبر في قوله :

وقبرٌ لخيرِ الخَلْقِ سُرَّ بطيبةٍ
وحقَّ لهذا النصرِ أن يَفْرَحَ القبرُ

قريبا من قول أبي تمام :

مضى طاهرُ الاثوابِ لم تبقَ روضةٌ
غداةَ ثوى إلا اشتهتْ أنّها قبرُ

وقصيدة "أبي تمام" في وصف معركة من معارك المأمون التي مطلعها :

---

(١) ديوانه ص ١٠٦-١٠٧ .
(٢) حلية البشر ٧٨٢/٢-٧٨٣ .
(٣) ديوانه ٨٤/٤

دِمنُ ألمَّ بها فقال سلامُ كم حلّ عقدةَ صبرِه الإلمام (١)

عارضها "أحمد محرم" فى قصيدته فى حرب اليونان سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٧م :

إنّا بنو عثمان أعلامُ الورى والأرض تشرف فوقها الأعلام (٢)

الا أن "محرما" لم يبلغ في استهلاله ووصفه للمعركة شأو "أبي تمام" ربما لأن "محرما" كان يافعا لم يتمرس بعد بقول الشعر .

وكان للمتنبى اثر جلي فى شعر هذه الفترة إذ عارضه كل من "شوقى" و"عبد المطلب" و"الكاظمى" و"أحمد محرم" و"شكيب أرسلان" .

"فشوقى" عارض "المتنبى" فى بائيته التى مطلعها :

بسيفكَ يعلُو الحقُّ والحقُّ أغلبُ

ويُنصرُ دينُ اللهِ ايانَ تَضربُ (٣)

إذ اتت على وزن وروى بائية المتنبى :

أغالبُ فيك الشوقَ والشوقُ أغلبُ

وأعجبُ من ذا الهجرِ والوصلُ أعجب (٤)

"واذا نظرنا الى قصيدتى "شوقى" و"المتنبى" نرى "المتنبى" يبدأ قصيدته بمدح "كافور" ثم يصف شجاعته ويختتمها بالفخر بشعره ... وعلى نحو هذا سار "شوقى" فى قصيدته ، فابتدأ بمدح "عبد الحميد" ثم وصف شجاعة الاتراك فى الحرب العثمانية اليونانية ، واختتم القصيدة بالفخر كما فعل المتنبى" . (٥)

---

(١) ديوانه ١٥٠/٣ .
(٢) ديوانه : السياسيات ٤١/١ .
(٣) ديوانه : الشوقيات ٤٤/١ .
(٤) ديوان المتنبى شرح العكبرى ١٧٦/١-١٨٦ .
(٥) شوقى وشعره الاسلامى ص ١٧٩ ، ط/دار المعارف بمصر ، د. ماهر حسن فهمى .

وأثر قصيدة المتنبي واضح في قصيدة "شوقي" سواء في المعاني أو الألفاظ .

فالشطر الأول من مطلع قصيدة "شوقي" وهو "بسيفك يعلو الحق والحق أغلب" تأثر في نظمه بقول "المتنبي" : "أغالب فيك الشوق والشوق أغلب" ، وقوله :

ومملكةُ اليونان محلولةُ العُرى
رجاؤك يعطيْها وخوفُك يَسلبُ

متأثر تأثرا جليا بقول المتنبي :

إذا لمْ تنطْ بي ضيعةٌ أو ولايةُ
فجودُك يكسوني وشغلُك يَسلبُ

وقول شوقي :

وهلْ أنتْ إلا الشمسُ في كلِّ أمةٍ
فكلُّ لسانٍ في مديحِك طَيّبُ

متأثر بقول المتنبي :

وكلُّ امرئٍ يولي الجميلَ محببٌ
وكلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العزَّ طيبُ

إلى غير ذلك من المواضع التي أوحت لشوقي بكثير من معانيه وألفاظه .

ويعارض "محمد عبد المطلب" قصيدة "المتنبي" هذه في قصيدته البائية التي قالها في حرب "طرابلس" والتي مطلعها :

بني أمِّنا أين الخميسُ المدرَّبُ
وأين العوالي والحسامُ المذرَّبُ (١)

ويستعير بعض ألفاظه ومعانيه نحو قوله :

أولئك أنصارُ النّبي ورهطُه لهم يتناهى كلُّ فخرٍ ومَنْسَبُ

---

(١) ديوانه ص ٢٥ ومابعدها .

اخذه من قول المتنبى : (١)

وبغنيكَ عمّا ينسبُ الناسُ انّه   إليك تناهى المَكرمات وتُنسب

وقوله :

فما شَهِدَ الإسلامُ رأياً كرايه   وقد قامَ فى يوم السّقيفةِ يخطبُ

اخذه من قول المتنبى :

سَلَلْتَ سيوفاً علّمتْ كلّ خاطبٍ   على كلّ عودٍ كيف يدعو ويُخطبُ

ثم ان كثيرا من قوافى "عبد المطلب" مأخوذة من قوافى المتنبى نحو : "تلعب ، خيبوا ، يذهب ، كوكب ، تنهب ، يغضب اركبوا ، تغرب ، يكذب ... الخ" .

ومن قصائد "المتنبى" التى عورضت فى هذه الفترة قصيدته التى مطلعها :

انا لائمى إنْ كنتَ وقتَ اللّوائمِ
عَلِمْتَ بما بى بينَ تلك المعالمِ (٢)

إن عارضها ايضا "محمد عبد المطلب" فى قصيدته فى حرب البلقان التى مطلعها :

صريفُ المنايا ام صليلُ الصّوارمِ
وليلُ الرّدى ام نقعُ تلك الملاحمِ (٣)

فالقصيدتان من البحر الطويل وذات روى واحد .

ويستعير "عبد المطلب" بعض قوافى "المتنبى" نحو مناسم راحم ، عزائم ، قشاعم ، الصوارم .

ثم إن "المتنبى" يصف بطولة ممدوحه ودوره فى المعركة فى قوله :

ولايتلقّى الحربَ إلاّ بمهجةٍ   معظمةٍ مذخورةٍ للعظائم

---

(١) ديوان المتنبى شرح العكبرى ١٨٦/١ .
(٢) نفسه ١١٠/٤-١١٧ .
(٣) ديوانه ص ٢٧١-٢٧٣ .

فنلفى "عبد المطلب" يصف المعركة أيضا ولكنه يصفها وصفا عصريا خاصة عندما بين دور المدافع في هذه المعركة في قوله :

مدافعُها عُمْيُ المرامى إذا رَمَت
رمت لم تَمِزْ ذا شَكَّةٍ مِن مُسَالِمِ

ويعارض "عبد المحسن الكاظمى" تلك القصيدة أيضا في حرب البلقان في قصيدته التى مطلعها :

حُماة العلا قد آن حمدُ الجماجمِ
أقيموا العُلا واستأصلوا كلّ هادمِ (١)

ويستعير أكثر قوافيه وبعض معانيه ، فالقوافى مثل "الجماجم ، الصوارم ، الغلاصم ، نائم ، سالم ، قشاعم ...الخ" .

وأما معانيه فمن ذلك أن "المتنبى" عندما وصف ديار محبوبته وعرض لبعض نساء تلك الديار فقال :

حسان التَثَنِّى ينقشُ الوشيُ مثلَه
إذا مِسْن فى أجسامهن النواعمِ (٢)

أخذه "الكاظمى" ليصف به جنود العدو فقال :

ولاتعطِفَنكم رِقةٌ فى خدودِهم
فتُحنو على تلك الخدودِ النواعم

ويلتقى فى وصف جنود العثمانيين مع "المتنبى" الذى وصف ممدوحه ، فيقول الكاظمى :

حماة العلا ضاقَ الزمانُ بحِلمِكم
ألا غضبةٌ تأتى بعذرِ الحوالم

---

(١) ديوانه ١/١١٠-١٢١ .
(٢) ديوان المتنبى شرح العكبرى ١١١/٤ .

وداويتُمُ بالحلم داءَ غُرُورِهم
وربَّ جُروحٍ أُفسدت بالمَراهمِ

تحومُ على طيب الورود قلوبُكم
وعند الظُّبى ريُّ القلوب الحوائم

وكيفَ يَنال الخصمُ منكم ودونَكم
صرائمُ أمضى من شِفار الصوارم

بينما يقول "المتنبى" فى ممدوحه :

همُ المُحسنون الكرَّ فى حَومة الوغى
وأحسنُ منه كرُّهم فى المكارم

حَيِيُّون إلا أنّهم فى نِزالِهم
أقلُّ حياءً من شِفار الصَّوارم (١)

إلى غير ذلك من المعانى والألفاظ التى أخذها "الكاظمى" من "المتنبى" .

ويعارض تلك القصيدة "شكيب أرسلان" فى إحدى قصائده فى حرب طرابلس التى مطلعها :

سلا هل لديهم من حديثٍ لقادم
عن الغربِ يَروى فيه غُلّةَ هائمِ (٢)

ويلتقى مع "المتنبى" فى عدد من القوافى ، ويورد بعض معانيه كحديثه عن المدافعين عن طرابلس ومدحه لهم ووصف بطولتهم فى قوله :

فثاروا وماكانت زعانفُ رومةٍ
من العرب أكفاءَ الليوثِ الضراغمِ

---

(١) السابق ٤/١١٥
(٢) ديوان ص ١٠٨ .

ونِعمَ سُقاةُ الموتِ حيثُما بدتْ
بروقُ المواضى فى رُعودِ الغمائِمِ
وحسبُك منهم كلُّ قوم نمتْهُمُ
أرومةُ قحطانٍ ونَبْعَةُ هاشم

فهو يلتقى مع "المتنبى" فى وصفه لبطولة ممدوحه كما سبق أن ذكرت .

ثم إن "المتنبى" فخر بنفسه فى تلك القصيدة وكذلك "شكيب" حين قال :

وقد طالما أرهقتُ حدَّ يَراعتى
فلما تعالى الخطبُ عُدتُ لصارمى

وأما "أحمد محرم" فيعارض قصيدة "المتنبى" فى معركة "الحدث الحمراء" :

على قَدْرِ أهلِ العزمِ تأتى العزائمُ
وتأتى على قدرِ الكرامِ المكارمُ (١)

بقصيدته فى حرب طرابلس التى مطلعها :

هل الحربُ إلّا أن تَطير الجماجمُ
أَم البأسُ إلا ماتجيءُ الضراغمُ (٢)

ويستعين ببعض قوافيه ، الجماجم ، الضراغم ، الزمازم الصوارم ، العظائم ، ويأخذ بعض معانيه نحو قوله :

ألستَ تَرى ذؤبان "روما" ومالَهم
من الحتف فى بطحاءِ برقة عاصمُ

أَخذه من قول المتنبى :

---

(١) ديوانه شرح العكبرى ٣٧٨/٣ .
(٢) ديوانه : السياسيات ١٩٨/١ .

ألا أيّها السيفُ الذى لستَ مغمداً
ولا فيك مُرتاب ولا منك عاصم

وقوله :
وما المُلكُ إلاّ ما اطالت وأثّلت
طوالُ العوالى والرقاقُ الصوارم

مأخوذ من قول «المتنبى» :
ومنْ طلبَ الفتحَ الجليلَ فإنما
مفاتيحه البيضُ الخفاف الصوارم

ويعارض "الكاظمى" «المتنبى» فى قصيدته التى بعنوان "حرب المجد والشرف" فى حرب طرابلس ، التى مطلعها :
لايَصدق السيفُ مالم تَصدق الهممُ
بالساعد الفتلِ يَمضى الصارمُ الخَذِمُ (١)

فهى معارضة "للمتنبى" – برغم مشابهة المطلع لمطلع بائية "أبى تمام" – فى قصيدته التى مطلعها :
واحرّ قلباهُ مِمّن قلبُه شَبِمُ
ومَن بجسمى وحالى عنده سَقَمُ (٢)

فالقصيدتان متماثلتان فى الوزن والروى ، وإن اختلف الغرضان إلا أن "الكاظمى" أفاد من "المتنبى" بعض القوافى نحو : سقم ، عزم ، القلم ، الحكم ، الهمم ، وكذا بعض معانيه نحو قوله :
أبغى النهوضَ فاهوى مِن أسىً وضَنىً
وكيف ينهض عانٍ شَفّهُ السقَمُ

فمعناه وبعض الفاظه مأخوذة من بيت المتنبى السابق الذكر .

---
(١) ديوانه ١/٩٩-١٠٨ .
(٢) ديوانه شرح العكبرى ٣/٣٦٢-٣٧٤ .

وممن عورض شعره فى قصائد الحرب هنا "بشار بن برد" فى قصيدته المشهورة التى قالها فى "مروان بن محمد" وضمنها مدحا "لقيس عيلان" وفخرا بهم والتى مطلعها :

جفا ودّه فازورّ أو ملّ صاحبُه

وأزرى به ألا يزال يُعاتِبُه (١)

إذ عارضها "أحمد محرم" فى قصيدته فى حرب اليونان ١٣١٤هـ/١٨٩٧م التى مطلعها :

حميتَ لواءَ الملك فارتدّ طالبُه

وصنتَ ذِمارَ الحق فاعتزّ جانبُه (٢)

فالقصيدتان من البحر الطويل وذاتا روى واحد ، علاوة على أخذ "محرم" كثيرا من قوافى "بشار" نحو طالبه ، جانبه غواربه ، صاحبه ، مساربه ، كتائبه ، كواكبه ...

ثم إن قصيدة "بشار" حوت مدحا ، ووصفا للجيش ، وكذلك كانت قصيدة "محرم" إلا أن الاختلاف يأتى بينهما فى أن "بشارا" ذكر وصف الليل والخمر ... بلغة موغلة فى الجزالة بينما كانت قصيدة "محرم" قريبة سهلة المأخذ لمعاصريه من القراء ، إلى جانب كونها ذات موضوع واحد تقريبا ، إلى غير ذلك من الفوارق مما هو واضح للناظر فى القصيدتين .

ولما كانت قصيدة "عمرو بن كلثوم" ذات شهرة فى تاريخ الأدب العربى .

ألا هُبّى بصحنك فاصبحينا ولاتبقى خمور الأندرينا (٣)

فقد تعلق بها "أحمد محرم" و"محمد عبد المطلب" .

---

(١) ديوانه تحقيق الشيخ محمد الطاهر عاشور ص ٣٠٦-٣٢٣ لجنة التأليف والترجمة .
(٢) ديوانه : السياسيات ١/٣٧-٤٠ .
(٣) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الانبارى ص ٣٧١-٤٢٧ .

اما "محرم" فقد عارضها بقصيدته التى ناهزت خمسمائة بيت فى حرب اليونان ١٣٤٢هـ/١٩٢٢م ومطلعها :

رِدوا غمراتِها فى الواردينا
وسيروا فى الممالكِ فاتِحينا (١)

فالقصيدتان متفقتان فى البحر والروى ، ويأخذ "محرم" كثيرا من الفاظ "عمرو بن كلثوم" وقوافيه ، نحو ساجدينا ، سخينا ، الاكرمينا ، جونا ، طحينا ، مدربينا ، مجرمينا ... إلخ.وقد يكون هذا طبيعيا مع طول القصيدة ، ولكنه يأخذ بعض معانيه والفاظه ايضا نحو :

مشى جبريلُ يَدعو القوم شتّى   فلبوه وخروا ساجدينا

فواضح انه نظر الى قول "عمرو" :

إذا بلغَ الفطامُ لنا صبياً   تَخِرُّ له الجبابرُ ساجدينا

وقوله :

وهد ببأسِه أُمَماً شِدادا   نُهيبُ بها وتَأبى ان تَلينا

مأخوذ من قول "عمرو" :

وإنّ قناتنا "ياعمرو" اعيت   على الاعداء قبلَك ان تلينا

ثم إنه يلتقى معه فى مواضع المدح والفخر ، ودور النساء ، إلا ان محرما صورها مشاركة فى المعركة – كما مر بنا – بينما "عمرو بن كلثوم" اقتصر على اقاتتهن للجياد فى قوله :

يَقِتْنَ جيادَنا ويقُلنَ لستُمْ   بعولَتَنا إذا لم تمنعونا

واما "محمد عبد المطلب" فقد عارضه فى إحدى قصيدتيه فى حرب طرابلس والتى مطلعها :

هى الهيجاء كم طَحنت قرونا   وكم سَكَنت حوادثُها قرونا (٢)

---

(١) ديوانه : السياسيات ٢/٥٦٩-٥٩٠ .
(٢) ديوانه ص ٢٨٥-٢٩١ .

ويستعير كثيرا من قوافيه وألفاظه ومعانيه نحو :

مصفدينا ، جونا ، ولينا ، لاعبينا ... الخ وقوله :

ليوثٌ من بنى الإسلام شُوسٌ بهم نَسطو ونمنعُ مَن يَلينا

....

فأطفال تُنَاوِشُها العوالى كراتٍ بين أيدى اللاعبينا (١)

مأخوذ من قول "عمرو بن كلثوم" :

ونحنُ إذا عمادُ الحرب خَرّتْ على الأحفاضِ نَمنَعُ من يلينا

كأنّ سيوفَنا فينا وفيهم مخاريقٌ بأيدى اللاعبينا

ونحو ذلك من معانى الفخر والمدح .

وبناء على ماسبق من عرض لبعض المعارضات الشعرية فى قصائد الحرب التى عرضت لها ، يتبين لنا أثر المعارضة فى شعر الحرب ، إذ كانت أداة قوية ساعدت الشعر العربى إبانئذ على التجدد ، بما بعثه وأحياه ويحمد ذلك للشعراء فى تلك الحقبة التاريخية الحرجة التى كانت تمر بها الأمة على كل المستويات .

وأن الشعراء كانوا يتقيلون الشعر القديم ، والشعر العباسى بشكل أقوى وأظهر .

ورأينا بعض الشعراء يعارض قصيدة الحرب بموضوع آخر كالذى رأيناه عند "محمد سعيد العباسى" ، و"عبد الجليل براده" ، و"عبد المحسن الكاظمى" .

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال ص ٣٩٣،٣٩٧ .

الخـــاتمــــة

خرجت من هذا البحث بمجموعة من النتائج أجملها فيما يلي :

(١) إن الشعر كان مواكبا لحروب العثمانيين الدفاعية ، وأنه مع هبوة الأحداث وتوالي الصدام بين العثمانيين والأوربيين كان يزداد كما وكيفا ، تظاهره عوامل كثيرة محدثة ساعدته على الظهور والذيوع ، وأفسحت المجال لكثير من الشعراء كان يمكن أن يعيشوا مغمورين وأن يظلوا بقية حياتهم كذلك ، ففي الحرب الروسية الأولى ، رأينا قلة الشعراء وضعف شعرهم ، بينما ازداد عدد الشعراء في الثانية ، وظهر «البارودي» بروائعه ، وما إن وعى الناس حقيقة الأحداث ، ورجها لوجداناتهم حتى خلنا الشعر يشتعل في كل مكان في الحرب الطرابلسية مثلا .

(٢) إن بعض الشعراء قد سجل الحرب تسجيلا وافيا بمطولات لايعوزها الجمال الفني ، ولا الوعي بالأحداث ونتائجها ، كمطولات "شوقي" ، و"أحمد محرم" ، و"عبد المحسن الكاظمي" ، و"محمد عبد المطلب" ، وأنهم يملكون نفسا شعريا طويلا ، فكان شعرهم أقرب إلى الملاحم .

إنه مع شدة وقع هزيمة الدولة وحليفتها في الحرب العالمية الأولى ، وسيطرة الدول المتحالفة على كامل ممتلكات الدولة ، أمّل الشعراء في حركة "مصطفى كمال" خيرا واعتبروها المنقذ من الظلام الذي حل بالأمة ، على أنهم كانوا متشبثين بالخلافة ، ووقفوا معها حتى في أشد أوقاتها سوءا ، نظرا لما تمثله من رمز للوحدة الإسلامية ، وأجمعت كل الطوائف المنتسبة للإسلام على ذلك .

لهذا لم ينفك الشعراء عن مدح السلاطين لأنهم رمز لوحدة الأمة والتفافها .

(٣) إن بعض الشعراء أعادوا إلى الأذهان فن رثاء المدن خاصة "شوقي" ، و"الهنداوي" ، و"أمين ناصر الدين" ، مما يعد عاملا من عوامل الانبعاث الشعري .

(٤) إن شعر الحرب في المغرب ، خاصة تلك الاستغاثات يقطع بأن مجيء العثمانيين إليها كان بدعوة وتحريض من أهلها مما أخر المد الصليبي على تلك البلاد ردحا من الزمن .

(٥) إنه لم يكن معزولا عن الأحداث التي كانت الأمة تصطلي بأتونها حتى في زمن ضعفه وجموده .

(٦) وإن بعض شعر هذه الحقبة وخاصة في المغرب ، والحرب الروسية الأولى ، وبعض شعراء «المقتبس»وغيرهم ، على تفاوت فيما بينهم ليس من القوة ، ولامستوى الإبداع الفني بحيث يكتفي به وحده ، وإنّما كان أقرب إلى أن يكون تدوينا للحوادث التاريخية ، اشترك فيه العلماء والشعراء وكل من يستطيع القول .

(٧) إن شعراء الانبعاث والتجديد كانوا ينطلقون من قدم راسخة في التراث ، ولذلك لحظنا مدى تأثرهم به من خلال معارضاتهم للقصائد البارزة فيه ، وأن شعرهم دل على تمتعهم بمخزون شعري ولغوي ضخم مما أتاح لهم القدرة على التجديد ، وأنهم ساعدوا على نشر بعض الألفاظ والمصطلحات الجديدة التي أملتها ظروف العصر .

(٨) إن الشعر كان واضحا لاغموض فيه لأنه قائم على الحث والاستنهاض لجميع الطبقات مما جعل عنصر الوضوح هو الطريق الأمثل لإيصال الفكرة .

(٩) من بين القصائد التي أوردتها آثار لشعراء نشرت دواوينهم ، ولكنها خلت من هذه الآثار ، مما يجعل هذا البحث وثيقة لها مثل "على أبو النصر" ، "عبد الحليم المصرى" ، "أحمد الكاشف" وغيرهم .

(١٠) في حرب اليونان ١٣١٤هـ يتسامى صوت "أحمد شوقى" معلنا ان الشعر العربى شرع ينهض من كبوته التى لازمته ، فبرغم طول القصيدة إلا أنها كانت مثالا حيا على قوة اداته الفنى وثقافته الواسعة وقدرته على تتبع سير المعركة وإضفائه عليها من خياله حتى خيل للقارئ أن "شوقيا" حضر المعارك بنفسه .

(١١) إن الاتجاه إلى إخراج شعر الحرب مخرجا قصصيا يكشف عن محاولة تجديد الشعر العمودى دون خروج على أوزانه وقوافيه ، وهى تدل على تجدد الحس الفنى ، والرغبة فى انعتاق الشعر من مظاهر الجمود .

(١٢) وعى الشعراء بالأحداث وذلك فى ربط الحاضر بالماضى ، فسقوط بعض البلدان الإسلامية يذكرهم بآسى المسلمين فى الأندلس ، كما نلحظ ذلك ظاهرا فى أثناء حديثهم عن حرب البلقان .

(١٣) كان ظهور الصحافة العربية بجناحيها الخبرية والأدبية سببا فى أن يؤازر النثر الفنى الشعر ، وأن يواكبا الأحداث معا مما جعل بعض الشعراء يقترضون بعض المعانى التى رددها الأدباء ، أصحاب البيان الرفيع أمثال "حمزة فتح الله" فى صحيفة "البرهان" ١٨٨٠م ، و"أديب اسحق" فى "مصر" ١٨٧١م ، و"الهلال" ١٨٩٢م لجورجى زيدان والشيخ "على يوسف" فى "المؤيد" ١٨٩٠م .

(١٤) المسميات التى ظهرت فى ميادين الحرب ولم يكن لها أسماء حديثة دفعت الشعراء إلى الرجوع إلى التراث العربى وإلى معاجم اللغة واستخراج مايصلح أسماء لهذه المسميات عن طريق الاشتقاق مثلا نحو : المدفع والطائرة وهو ماعاد على مفردات اللغة بالثراء .

كما ان فعل الأحداث بالنفوس ومانيشأ عنها من انفعالات متنوعة متجددة كان يؤدى بهم لظهور صياغات وتراكيب جديدة فى اللغة لاأقول إنها كانت خاصة بالشعر بل ربما شارك فيها النثر أيضا .

مقترحات

هنالك بعض المقترحات عنت أثناء كتابة هذا البحث :

(١) إن كثيرا من الشعراء المشهورين ناهيك عن المغمورين يستحقون أن تقام حولهم دراسات ، نظرا لدورهم فى شعر النهضة مثل : "محمد عبد المطلب" ، "أحمد محرم" ، "أمين ناصر الدين" ، "محمد بن محمود" ، "محمود صادق" وغيرهم .

(٢) إن تاريخ هذه الحقبة أدبا ولغة وسياسة واجتماعا بحاجة ماسة إلى القاء مزيد من الأضواء ، ولن يتم ذلك فى نظرى إلا بقيام لجان متخصصة تتمتع بالقدرة والنزاهة العلمية لتبتعد عن الأحكام الجاهزة والمقررة سلفا .

(٣) مدى أثرها على تاريخنا المعاصر على كل المستويات لنتمكن من وعى كثير من قضايانا المعاصرة ذات الجذور الضاربة بأعماقها فى ذلك العصر .

(٤) ظاهر النثر الفنى الشعر وتطرق به الكتاب إلى شتى المجالات التى تعرض لها الشعراء فى هذا المجال فصار هذا النثر قمينا بالدرس والتمحيص للوقوف على مابلغه بفضل الحرب من مكانة فنية رفيعة .

قائمة المراجع

المراجع العامة :

* أئمة اليمن بالقرن الرابع عشر
محمد محمد الصنعانى
المطبعة السلفية ١٣٧٦هـ .

* ابن الرومى حياته من شعره
عباس العقاد
دار الهلال ١٩٦٩م .

* الاتجاهات الادبية فى العالم العربى الحديث
أنيس المقدسى
دار العلم للملايين ١٩٧٧م .

* الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر
محمد محمد حسين
دار النهضة العربية ، بيروت ١٣٩٢هـ .

* الاتجاهات الوطنية فى الشعر الليبى
محمد عفيفى
دار الكشاف ، بيروت ١٣٨٩هـ .

* الآثار الفكرية من نظم ونثر عبد الله باشا فكرى
عبد الله باشا فكرى ، جمع أمين فكرى
المطبعة الاميرية ببولاق ١٣١٥هـ .

* الأدب التركى الاسلامى
محمد عبد اللطيف هريدى
مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ١٤٠٧هـ .

* الأدب التونسى فى العهد الحسينى (١٧٠٥-١٨٨١م)
الهادى حمودة الغزى

الدار التونسية ١٩٧٢م .

* الأدب العربي الحديث ـ بحوث ومقالات نقدية
يوسف عز الدين
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

* الأدب المغربي
محمد بن تاويت ومحمد عفيفي
مكتبة المدرسة ، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٣٨٩هـ .

* أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض
شهاب الدين أحمد المقري
صندوق احياء التراث العربي المشترك ، الرباط ١٣٩٨هـ .

* الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى
أحمد الناصر السلاوي
المطبعة البهية المصرية ١٣١٢هـ .

* الأعلام
خير الدين الزركلي
دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٠م .

* البعثة العلمية إلى دار الخلافة العثمانية
محمد كرد علي وآخرون
المطبعة العلمية يوسف صادر ١٣٣٤هـ .

* التاريخ الإسلامي ـ العهد العثماني
محمود شاكر
المكتب الاسلامي ، بيروت ١٤٠٧هـ .

* تاريخ أوربا في العصر الحديث (١٧٧٩-١٩٥٠م)
هـ ا ل فشر ، تعريب احمد نجيب ، وديع الضبع
دار المعارف ، مصر ١٩٧٦م .

* تاريخ الدولة العثمانية
علي حسون
المكتب الاسلامي ، دمشق ١٤٠٠هـ .
* تاريخ الدولة العلية العثمانية
محمد فريد "المحامي"
تحقيق إحسان حقي ، دار النفائس ، بيروت ١٤٠١هـ .
* تاريخ المعارضات في الشعر العربي
محمود محمد قاسم
مؤسسة الرسالة ، دار الفرقان ١٤٠٣هـ .
* التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزيرة المحمية
محمد ميمون الجزائري
تحقيق محمد عبد الكريم ، الشركة الوطنية ، الجزائر ١٣٩٢هـ .
* جهاد العثمانيين ضد البيزنطيين حتى فتح القسطنطينية
المعتصم بالله ابراهيم شموط
رسالة ماجستير مخطوطة بمركز البحث العلمي ، جامعة أم القرى .
* حاضر العالم الاسلامي
لوثروب ستودارد
نقله إلى العربية عجاج نويهض ، تعليقات شكيب أرسلان ، دار الفكر ، بيروت ١٣٩٤هـ .
* حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر واسبانيا
احمد توفيق المدني
الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر .

* الحركة الأدبية والفكرية في تونس
محمد فاضل عاشور
دار الهناء ١٩٥٦م ـ معهد الدراسات .
* الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين
محمد حجي
مطبعة فضالة ، المغرب ١٣٩٧هـ .
* حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر
عبد الرزاق البيطار
تحقيق محمد بهجة البيطار ، المجمع العلمي العربي ،
دمشق ١٣٨٢هـ .
* الحماسة لأبي تمام وشروحها
تحقيق عبد الله عبد الرحيم عسيلان
دار اللواء للنشر ، الرياض ١٣٩٩هـ .
* خل وبقل
عبد الله كنون
المطبعة المهدية ، تطوان .
* خيرى الهنداوى حياته وشعره
يوسف عز الدين
لجنة البيان العربي ، بغداد ١٩٧٤م .
* دراسات في النص الشعرى في العصر العباسي
عبده بدوى
دار الرفاعي ١٤٠٥هـ .
* الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها
عبد العزيز الشناوى
مطبعة جامعة القاهرة ، نشر مكتبة الانجلو ١٩٨٠م .

* الدولة العثمانية والمسألة الشرقية
محمد الدسوقي
الثقافة ، القاهرة ١٩٧٦م .
* الرجل الصنم "كمال اتاتورك"
ضابط تركي
ترجمة عبد الله عبد الرحمن ، الرسالة ، بيروت ١٣٩٨هـ
* روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس
أحمد بن محمد المقري
ط/الملكية ، الرباط ١٩٦٢م .
* الساق على الساق فيما هو الفارياق
احمد فارس الشدياق
دار مكتبة الحياة ، بيروت .
* شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات
ابن الانباري ـ تحقيق عبد السلام هارون
ط/دار المعارف ، مصر ١٤٠٠هـ .
* شعراء السودان
سعد ميخائيل
بدون تاريخ ولادار طبع .
* شعراء الغري أو النجفيات
علي الخاقاني
الجديدة بالنجف .
* شعراؤنا الضباط
محمد عبد الفتاح ابراهيم
ط/عبد الحليم الحسيني ١٩٣٥م .

* شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى
عباس محمود العقاد
مكتبة النهضة ١٩٦٥م .

* شعر الحماسة والعروبة فى بلاد الشام
أمجد الطرابلسى
نهضة مصر ١٩٥٧م .

* الشعر السودانى فى المعارك السياسية (١٨٢١-١٩٢٤م)
محمد محمد على
الكليات الأزهرية .

* الشعر العراقى أهدافه وخصائصه فى القرن التاسع عشر
يوسف عز الدين
الدار القومية ، القاهرة ١٣٨٤هـ .

* الشعر العراقى الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه
يوسف عز الدين
الدار القومية ، القاهرة ١٣٨٥هـ .

* الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر
ابراهيم الوائلى
العانى ، بغداد ١٩٦١م .

* الشعر والشعراء فى ليبيا
محمد صادق عفيفى
مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٧م .

* شوقى أو صداقة أربعين سنة
شكيب أرسلان
عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ١٣٥٥هـ .

* شوقي وشعره الاسلامي
ماهر حسن فهمي
دار المعارف بمصر .
* الصحافة الادبية بمصر ... – ١٩١٤م .
محمود عبد ربه فياض
رسالة ماجستير لم تنشر .
* مهاريج اللؤلؤ
محمد توفيق البكري
شرح احمد امين وأبو بكر محمد ، الهلال ١٩٠٦م .
* العثمانيون والروس
علي حسون
المكتب الاسلامي ١٤٠٢هـ .
* كنز الرغائب في منتخبات الجوائب
جمع أديب اسحاق ، ط/الجوائب الاستانة ١٢٩٢هـ .
* محمود سامي البارودي شاعر النهضة
علي الحديدي
النهضة المصرية .

الدواوين الشعرية :

* ديوان ابن زكرى
مصطفى زكرى ، تحقيق على المصراتى
دار الفكر ، طرابلس ١٩٧٢م .

* ديوان ابن محمود
محمد بن محمود
الاعتماد ، القاهرة .

* ديوان أبى تمام
حبيب بن أوس

* ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى — التبيان فى شرح الديوان —
أبو البقاء العكبرى
تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٧هـ .

* ديوان احمد أبى النجاة
احمد أبى النجاة
علبة ، الاسكندرية ١٩٢٤م .

* ديوان أحمد الشارف
أحمد الشارف
دراسة على المصراتى ، دار مكتبة الفكر .

* ديوان احمد شوقى "الشوقيات"
احمد شوقى
دار الكتاب العربى ، بيروت .

* ديوان احمد الفقيه
أحمد الفقيه
وزارة الاعلام والثقافة الليبية ١٣٨٦هـ .

* ديوان احمد الكاشف
احمد الكاشف
المطبعة الجديدة بمصر ١٣٣٧هـ .
* ديوان أحمد محرم "السياسيات"
أحمد محرم
تحقيق محمود أحمد محرم ، مكتبة الفلاح ، الكويت
١٤٠٤هـ .
* ديوان احمد نامى
احمد نامى
الآداب والمؤيد ، مصر ١٣٢٠هـ .
* ديوان الأمير عبد القادر الجزائرى
عبد القادر الجزائرى
التعاونية اللبنانية ١٣٨٤هـ .
* ديوان البارودى
محمود سامى البارودى
ضبطه وصححه على الجارم ومحمد شفيق معروف ، دار
المعارف ١٩٧١م ، ١٩٧٦م .
* ديوان بشار بن برد
بشار بن برد
تحقيق محمد الطاهر عاشور ، لجنة التاليف والترجمة ،
مصر .
* ديوان جعفر الحلى "سحر بابل وسجع البلابل"
جعفر الحلى النجفى
العرفان ، صيدا ١٣٣١هـ .
* ديوان حافظ ابراهيم
حافظ ابراهيم

ضبطه وصححه وشرحه ورتبه أحمد أمين ، أحمد الزين ، ابراهيم الابياري ، دار العودة ، بيروت .

* ديوان الحويزي
عبد الحسين الحويزي
جمع حميد مجيد هدو ، بيروت ١٣٨٤هـ .

* ديوان خزنة دار
محمد الشاذلي خزنة دار
الدار التونسية ١٣٩٢هـ .

* ديوان الخطيب
فؤاد الخطيب
دار المعارف ، القاهرة ١٣٧٨هـ .

* ديوان الرصافي
معروف الرصافي
الاستقامة ، القاهرة ووزارة الاعلام العراقية .

* ديوان سليمان الصولة
سليمان ابراهيم الصولة
المعارف ، مصر .

* ديوان الشبيبي
محمد رضا الشبيبي
لجنة التاليف والترجمة ، القاهرة ١٣٥٩هـ .

* ديوان الشرقي
على الشرقي
تحقيق ابراهيم الوائلي ، موسى الكرباسي ، وزارة الاعلام العراقية ، دار الرشيد .

* ديوان شكيب أرسلان
شكيب أرسلان

المنار بمصر ١٣٥٤هـ .

* ديوان صادق

محمود صادق

المطبعة التجارية الكبرى ، القاهرة .

* ديوان صالح السويسى القيروانى

صالح السويسى

تحقيق نجوى الكافي ، الدار التونسية للنشر .

* ديوان العباسى

محمد سعيد العباسى

* ديوان عبد الباقى العمرى "الترياق الفاروقى"

عبد الباقى العمرى

دار النعمان للطباعة والنشر ، النجف ١٣٨٤هـ .

* ديوان عبد الحليم المصرى

عبد الحليم المصرى

المعارف ، مصر ١٩١٠م .

* ديوان عبد الحميد الفراهى

عبد الحميد الفراهى

المطبعة المحمدية ومكتباتها ، الهند ١٣٨٧هـ .

* ديوان عبد الله البارونى

عبد الله البارونى

بدون دار طباعة ولاتاريخ نشر .

* ديوان عمر أنسى "المورد العذب"

عمر أنسى

جمعه عبد الرحمن أنسى طيب ، بدون دار طباعة ولاتاريخ نشر .

* ديوان الفرزدق
همام بن غالب
دار صادر ، بيروت .
* ديوان الكاظمي
عبد المحسن الكاظمي
طبعة ابن زيدون ، القاهرة ١٩٤١م .
* ديوان محمد عبد المطلب
محمد عبد المطلب
شرح وتصحيح ابراهيم الابياري ، عبد الحفيظ شلبي ،
مطبعة الاعتماد ، القاهرة .
* ديوان محمد العبيدي
محمد حبيب العبيدي
حققه احمد الفخري ، مطبعة الجمهورية ، الموصل ١٣٨٦هـ
* ديوان محمد الهاشمي
محمد الهاشمي
تحقيق عبد الله الجبوري ، وزارة الثقافة العراقية .
* ديوان مصطفى الغلاييني
مصطفى الغلاييني
المطبعة العباسية ، حيفا ١٣٤٣هـ .
* ديوان نسيب أرسلان "روض الشقيق"
نسيب أرسلان
جمع وتحقيق شكيب أرسلان ، ابن زيدون ، دمشق ١٣٥٢هـ .
* ديوان ولي الدين يكن
ولي الدين يكن
المقتطف ، مصر ١٣٤٣هـ .

الدوريات :

(أ) الجرائد :

* الأخبار
* الاقبال
* جريدة مصر
* العدل أساس الملك
* القبلة
* المقتبس
* الوقائع

(ب) المجلات :

* كلية الآداب جامعة بغداد
* المجتمع الكويتية
* المقتطف
* الهلال

فهرس الموضوعات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الباب الثاني

الصفحة

الصفحة